مجلة
إسلامية
شهرية
جامعة

البيان

AL BAYAN

السنة السابعة والعشرون . العدد ٣٠٢ . شوال ١٤٣٣ هـ . أغسطس ٢٠١٢ م

شريعتنا هي كل ديننا

حرب النُّخب

من الثوير الغربي
إلى الثوير الإسلامي

أرباب جِدٍّ في العمل

استشراف آفاق الصراع في سورية

مجلة

البيان

www.albayan.co.uk

تفاعل معنا إلكترونياً

YouTube

موقع البيان الإلكتروني
يطلق نافذته الإندونيسية

bayan@albayan.co.uk

الآن

مستشفى أبها الخاص

مركز طب وجراحات العيون

الليزر البارد...أمان أكثر وتكلفة أقل

تعتبر عمليات تصحيح الإبصار من أكثر العمليات نجاحاً على الإطلاق، حيث أجريت ملايين العمليات من هذا النوع في مراكز طبية متخصصة وحققت نجاحاً باهراً

(تحت إشراف نخبة من أفضل الاستشاريين)

خدمات المركز:

- عمليات زراعة القرنية وزرع الحلقات لمرضى القرنية المخروطية.
- إجراء جميع الفحوصات الخاصة بالعين من تصوير القرنية وتصوير قاع القرنية وتصوير قاع العين باستخدام الصبغة وخريطة مجال الإبصار وأشعة الموجات الصوتية على العين.
- عمليات إزالة المياه البيضاء بالموجات فوق الصوتية مع زرع العدسة.
- عمليات المياه الزرقاء.
- عمليات الليزر للشبكية.
- عمليات انفصال الشبكية وإزالة الجسم الزجاجي.
- متابعة وعلاج مرضى الاعتلال الشبكي للسكريين.
- عمليات حزام السيلكون لتعديل انفصال الشبكية بالتبريد.
- عمليات تصحيح طول وقصر النظر باستعمال الليزر.
- عمليات الحول وتجميل العين.

للحجز و الاستعلام

072292222

تحويلة: 240، 241، 242

الموقع الالكتروني : www.aph.emd.sa

مجلة البيان
إسلامية . شهرية . جامعة

خدمة العملاء

السعودية
ص. ب ٢٦٩٧٠ الرياض: ١١٤٩٦.
الهاتف الموحد: ٩٢٠٠٠٤٥٤٨
هاتف: ٤٥٤٦٨٦٨ ـ فاكس: ٤٥٣٢١٢١

للمراسلات عبر البريد الإلكتروني

التحرير
editors@albayan.co.uk
خدمة العملاء
sub@albayan.co.uk
التسويق
sales@albayan.co.uk
العلاقات العامة
pr@albayan.co.uk

المـوزعـــون

الأردن: الشركة الأردنية للتوزيع، عمان ص. ب ٣٧٥ هاتف: ٥٣٥٨٨٥٥، فاكس: ٥٣٣٧٧٣٣.
الإمارات العربية المتحدة: شركة الإمارات للطباعة والنشر، دبي ص. ب ٦٠٤٩٩ هاتف : ٣٩١٦٥٠١، فاكس ٢٦٦٦١٢٦ .
سلطنة عُمان: مؤسسة العطاء للتوزيع، ص.ب ٤٧٣ ـ العذيبة ١٣٠ ـ هاتف: ٢٤٤٩١٣٩٩ ـ فاكس: ٢٤٤٩٣٢٠٠ .
البحرين: مؤسسة الهلال لتوزيع الصحف ـ **المنامة:** ص.ب ٢٢٤ هاتف ٥٣٤٥٥٩ ـ٥٣٤٥٦١، فاكس ٥٣١٢٨١.
السعودية : الشركة الوطنية للتوزيع: هاتف: ٤٨٧١٤١٤ ـ فاكس: ٤٨٧١٤٦٠.
السودان: الخرطوم، مكتب المجلة ٨٣٢١٢١٨٣.
قطـر: دار الشرق للطباعة والنشر والتوزيع، الدوحة هاتف: ٤٥٥٧٨١٠ - ٤٥٥٧٨١١ - ٤٥٥٧٨١٢ - فاكس: ٤٥٥٧٨١٩.
الكويت: شركة المجموعة الكويتية للنشر والتوزيع، ص. ب: ٢٩١٢٦ ـ الكويت الرمز البريدي ١٣١٥٠ ـ هاتف: ٢٤٠٥٣٢١ ـ ٢٤١٧٨١٠ ـ فاكس: ٢٤٧٨٠٩.
المغـرب: سوشبرس للتوزيع، الدار البيضاء، ش جمال بن أحمد ص. ب ١٣٦٨٣ ـ هاتف: ٤٠٠٢٢٣ ـ فاكس: ٢٤٦٢٤٩.
اليمـن: دار القدس للنشر والتوزيع، صنعاء : ص. ب ١١٧٧٦ الطريق الدائري الغربي أمام الجامعة القديمة، هاتف: ٢٠٦٤٦٧ ـ فاكس: ٤٠٥١٣٥
تونس: الشركة التونسية للصحافة، ت ٠٠٢١٦٧١٣٢٢٤٩٩ - فاكس: ٠٠٢١٦٧١٣٢٢٠٠٤

رئيس التحرير
أحمد بن عبد الرحمن الصويان
alsowayan@albayan.co.uk

مدير التحرير
د. عبد الله بن سليمان الفراج

هيئة التحرير
أحمد بن عبد العزيز العامر
د. عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف
د. يوسف بن صالح الصغير
فهد بن صالح العجلان
د. أحمد بن عبد المحسن العساف
فيصل بن علي أحمد الكاملي

سكرتير التحرير
إسلام السيد علي

الإخراج الفني
محمد سالم لرضي

عنوان المجلة على الشبكة العالمية
www.albayan.co.uk

الافتتاحية

٤ **العظات قبل العقوبات**
التحرير

العقيدة والشريعة

٨ **معالم في منهج السلف في الدعوة إلى الله**
هاني بن عبد الله بن محمد الجبير

بلّغوا عني ولو آية

١٤ **﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾**
د. عبد العزيز كامل

قضايا دعوية

١٨ **﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾**
إبراهيم بن محمد الحقيل

كلمات في المنهج

٢٢ **إشكالية التلازم بين الرضا بالديمقراطية والتعامل معها**
أ. د. ناصر بن سليمان العمر

قضايا تربوية

٢٦ **كفايات المدرس**
د. مولاي المصطفى البرجاوي

٣١ **شهوة الشباب والتناول السلبي**
عادل مناع

عاجل إلى الإسلاميين

٣٤ **حرب النُّخب**
أحمد فهمي

حدث وحديث

٣٦ **المستضعفون في الأرض**
د. يوسف بن صالح الصغير

معركة النص

٣٨ **قصة العلمانية المؤسلمة!**
فهد بن صالح العجلان

الحسابات

السعودية: مصرف الراجحي
آي بان: SA١٣٨٠٠٠٠٢٩٦٦٠٨٠١٠٠٢١٠٠٧

الاشتراكات

السعودية ودول الخليج	١٢٠	ريال سعودي
بريطانيا وإيرلندا	٤٧	يورو
أوروبا	٥٥	يورو
البلاد العربية وإفريقيا	٤٥	يورو
أمريكا وبقية دول العالم	٥٥	يورو
المؤسسات الرسمية	٦٠	يورو

المسلمون والعالم

٤٢ استشراف آفاق الصراع في سورية
د. سامي الدلال

٤٨ الثورة السورية.. ربع الساعة الأخير
هيثم محمد الكناني

٥٢ رئيس بنصف سلطة!
حسن الرشيدي

٥٦ «ليالي تُركستان» والمسلمون المنسيون!!
صلاح محمد أبو زيد

٥٩ مرصد الأحداث — جلال سعد الشايب

عين على العدو

٦٤ تنبُّؤات صهيونية سوداوية بشأن اتفاقات التسوية — د. عدنان أبو عامر

قصة قصيرة

٦٦ الانتظار المخيف — جميلة بحر

إعلام

٦٨ الموقف من الإعلام — د. عطية عدلان

في دائرة الضوء

٧٢ نقل المصطلحات السياسية الغربية إلى البيئة العربية — تامر بكر

فكرية

٧٦ خارطة التنوير.. من التنوير الغربي إلى التنوير الإسلامي — أحمد سالم فهر

قراءة

٨٤ تاريخ تطور الفكر التربوي الإسلامي
علي عفيفي علي غازي

تاريخية

٨٨ «عندما ترعى الذئاب الغنم»
مصطفى محمد الحسناوي

الباب المفتوح

٩٠ البناء المنهجي عند طالب العلم
عمر محمد ذيب النصر

٩٣ نص شعري يا شام — أسامة المحوري

الورقة الأخيرة

٩٤ أرباب جِدٌّ في العمل
د. عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف

[كلمة صغيرة]

مِن وحي الانتخابات الليبية

الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام على نبينا محمَّد وعلى آله وصحبه، وبعد:

بعد أربعين عاماً من الأغلال والقيود التي عاشها أهل ليبيا تحت جبروت حكم القذافي وطغيانه، وبعد ثورة شعبية عارمة انتهت بالخلاص من النظام البائد ورأسه وملحقاته وآله؛ عاشت البلاد الليبية أجواءً غير معهودة من سباق الانتخابات للحصول على مقاعد في المؤتمر الوطني العام الذي يُنتظر منه تنظيم الحياة السياسية في ليبيا الجديدة.

ومع أن الشعب الليبي الكريم شعبٌ أصيلٌ في تديُّنه وانتمائه، وفيه من العاطفة الدينية ما لا يُنكر، وحَفَظَة الكتاب العزيز يزدادون يوماً إثر آخر؛ إلا أن النتائج النهائية للتصويت أفرزت تقدماً لقوائم توجُّهات لا تنطلق من الرؤية الإسلامية، وقد طار بتلك النتيجة فرحاً كلٌّ من شرق بانتخابات المغرب وتونس ومصر، بل ربما شرق بربيعنا العربي الزاهر كله!

ومع أن هذا الفوز ليس فوزاً ساحقاً، والمستقلون يمثلون أكثرية في العدد، وربما تعادل توجُّهات المستقلين رجحان الكفة في انتخاب القوائم؛ إلا أن ما حدث في هذه الانتخابات يوجب على من يعنيهم شأن الحفاظ على الهوية في ليبيا أن يتعاملوا معه بقدر كبير من الاهتمام ومحاولات التصحيح.

والتصحيح المطلوب يشمل تصحيح المعتقدات الدينية، وتصحيح طرائق التعاطي مع المسائل السياسية على الأرض، وتصحيح أوجه التعاون والتكامل بين جميع القوى المناهضة لإفساد دين الناس ودنياهم، ومن ذلك:

١ - الارتقاء بوعي العامة نحو تمييز الحق من الباطل، ومعرفة الأصلح للبلاد، بعيداً عن التشويش أو التعتيم الذي تُحدثه الآلة الإعلامية.

٢ - الاقتراب من رموز المجتمع وكبرائه، وربط العلاقات المتينة مع شيوخ القبائل وكبراء الجهات والعوائل ورؤوس المهنيين وأرباب الصنائع والحِرف.

٣ - التعاون بين أطياف العمل الإسلامي بما يحقق البر والتقوى وينأى عن الإثم والعدوان، ويا لها من جريمة حين يهرب صوت الناخب من الإسلاميين باتجاه غيرهم بسبب التناحر والتراشق الذي لا ترتضيه الديانة ولا تقبله المروءة.

٤ - الحضور الإيجابي في جميع أعمال المؤتمر الوطني الجديد، حتى لا تخرج ليبيا من ظلام القذافي إلى ظلام غيره، وقد شغب الليبراليون على الفائزين في مصر وتونس والمغرب بحجة الخوف من تطبيق الشريعة، وحري بالصالحين أن يحموا بلادهم من تنحية الشريعة عن الحكم والحياة.

٥ - لا بأس أن يستفيد الإخوة في ليبيا من هذه الواقعة لتحقيق مزيد من النضج في العمل السياسي والإعلامي، ولتدارس أحكام السياسة الشرعية؛ حتى تنضبط قراراتهم بالوحي الشريف المعصوم.

وإن ليبيا التي انتفضت عن بكرة أبيها لطرد حكم بغيض آثم اعتدى على دين الناس وحرياتهم الشرعية ومصالحهم الدنيوية، حقيق بها ألا تُهدر دماء شهدائها لصالح حكم غير رشيد، وألا تكرر ما حدث بعد طرد الاستعمار من تسلط أذيال الشر وفلوله على مفاصل الحياة وشؤون الحكم.

العظات قبل العقوبات

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله محمد النبي الأمين ﷺ، أما بعد:

فمن رحمة الله البالغة بعباده أنه لا يؤاخذهم بما كسبته أيديهم بمجرد وقوعهم في الباطل، أو صدوره منهم، بل يسلك بهم طرقاً كثيرة لصرفهم عن ذلك، ورجوعهم من الطريق الوبيل الذي اختاروه، ولا يعاجلهم بالعقوبة، ما يبيِّنَّ أن الشريعة متوجهة وحريصة على الإصلاح عن طريق سَوق ما يُوعظ به ويُعتبر قبل إيقاع العقوبات، ولا توقِع الشريعةُ العقوبةَ إلا:

١ أن تكون طريقاً من طرق الإصلاح لمن وقع في الإثم أو لمن يشاهد ويرى مخالفة الآخرين من باب الاعتبار والاتعاظ بما حاق بالمخالفين رغبة في ألَّا يسلك سبيلهم وألَّا يسير مسيرتهم.

٢ أو طريقاً من طرق العقوبة لمن لم تُجدِ معه وسائل الإصلاح المتعددة جزاءً وفاقاً وما ربك بظلام للعبيد.

لذلك لم تكن الوسيلة الدعوية في نشر الخير والحض على سلوك سبيل الرشاد قائمةً على القهر والإجبار، إنما كانت بالدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن وإقامة الحجة ودحض الشبهة.. ولا تكون العقوبة إلا لمن عاند وأبى قبول الحق بعد ظهور الحجة وإقامتها كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، قال ابن كثير في تفسير الآية: «من

أراد الاستبصار منهم في الدين، فيجادل بالتي هي أحسن، ليكون أنجع فيه، وقوله: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ أي: حادوا عن وجه الحق، وعموا عن واضح المحجة، وعاندوا وكابروا، فحينئذ ينتقل من الجدال إلى الجلاد، ويقاتلون بما يردعهم ويمنعهم».

وما ذكر القرآن من قصص الأمم السابقة مع رسلهم الذين جاؤوهم بالبينات والهدى، وعصيانهم لرسلهم، وما حاق بهم من العقوبة بعدما أتم لهم الرسل البيان وبعدما استبانت السبيل وقامت الحجة؛ ما ذُكر ذلك إلا بياناً للمنهج الذي ينبغي سلوكه في التعامل مع المخالفين، وليكون في ذلك أيضاً عظة وعبرة لمن يخالف عن طريق الهدى والصلاح حتى لا يغرُّه حلم الله عنه، فلا يتمادى في الشقاق والعصيان.. والعظة لا تقف عند حد المخالفين، وإنما تتجاوز ذلك لتكون عظة للمستجيبين لرسلهم الذين يلاقون من أقوامهم الصد والعنت والتعذيب ألواناً، لتكون العاقبة التي يدخرها الله لعباده المستقيمين على أمره القابضين على دينهم دافعاً لهم على الثبات والاستمرار في طاعة الله رغم ما يصيبهم، فإن الإنسان متى علم واستيقن من المآل الحسن الذي يصير إليه بعد الضيق والشدة، فإن ذلك يقوي احتماله ويعينه على الشدائد التي تمر به.

فما وردت تلك القصص وتكرَّرت على أنحاء متعددة إلا لتكون عظة للطرفين:

١ المكذِّبون للرسل ودعوتهم حتى يرجعوا من طريقهم الذي لا نهاية له غير خاتمة السوء.

٢ والمؤمنون المشفقون من لقاء يوم يجعل الولدان شيباً، ليكون تثبيتاً لهم على تحمُّل مشاق الطريق كما قال الله تعالى لرسوله: ﴿وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠].

وقد تنوَّعت في ذلك القصص والأمثال وصرفها الله تصريفاً، ولم تقف عند نوع واحد؛ لتكون عظة وعبرة للناس كافة كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَـذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ [الإسراء: ٨٩]، وقريب منه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ [الكهف: ٥٤]، قال الطبري – رحمه الله: «يقول عزَّ ذكره: ولقد مثلنا في هذا القرآن للناس من كل مثل، ووعظناهم فيه من كل عظة، واحتججنا عليهم فيه بكل حجة ليتذكروا فينيبوا، ويعتبروا فيتعظوا، وينزجروا عما هم عليه مقيمون من الشرك بالله وعبادة الأوثان»، وقال ابن عطية: «قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ الآية، المعنى: ولقد خوفنا ووضَّحنا ونوَّعنا وبالغنا في البيان»، وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ [طه: ١١٣]، فتصريف أنواع من الوعيد على أنحاء متعددة كان الهدف منه أن يحصل للناس ما يتقون به سخط الله ونقمته لعصيانهم ومخالفة شرعه، أو يجعل الإنسان يقظاً غير لاهٍ، بل متذكراً لما هو مطالَب به ولما ينتظره بناء على تجاوبه مع ما أُمر به وطُلب منه، قال الطبري: «﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ يقول: كي يتقونا، بتصريفنا ما صرفنا فيه من الوعيد ﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ يقول: أو يحدث لهم هذا القرآن تذكرة، فيعتبرون ويتعظون بفعلنا بالأمم السابقة التي كذبت الرسل، وينزجرون عما هم عليه مقيمون من الكفر بالله».

وقد أكد القرآن الغاية من التصريف فذكرها في أكثر من موضع، منها ما مرَّ، ومنها قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا﴾ [الفرقان: ٥٠]، ومنها قوله: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٧]، ومنها قوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا﴾ [الإسراء: ٤١]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا﴾، فكانت تلك المواعظ والقصص والأمثال بقصد الذكرى والرجوع عن طريق الفساد وسلوك سبيل الرشاد باستعمال ما منَّ الله به على الناس من نعمة العقل والقدرة على التفكير الرشيد، كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١]، وقوله: ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٦]، وهذا ما يبيِّن أن القصص في القرآن أو السنة ليست كلاما للتسلية، وإنما قصص تقوم بالتربية المقصودة التي تربي الناس على التفكير السليم والحذر من الوقوع فيما يخالف شرع الله، كما تربي في النفس الصبرَ على المكاره والعقبات التي تعترض السائرين في طريقهم إلى الله تعالى.

فقد قصَّ علينا القرآن قصة الملك الكافر الذي ادَّعى القدرة على الإحياء والإماتة لما آتاه اللهُ الملكَ حتى قيَّض الله له إبراهيم عليه السلام فحاجَّه وقطعه حتى بُهت، وهو ما يعني أن الملك والسلطان لا يضفي على الباطل قوة أو صواباً، وأن من وفقه الله فهو قادر على إفحام هؤلاء وإن كان فرداً لا حول له ولا قوة.

وقصَّ علينا أيضاً قصة أكبر طاغية في التاريخ الذي بلغ من طغيانه أنه ادَّعى الربوبية فقال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤]، بعدما أراه موسى عليه السلام الآية الكبرى

الدالة على صدقه فيما دعاه إليه، ثم ننتقل إلى نهاية هذه القصة لنرى هذا الطاغية وهو يغوص في لجج البحر حتى يدركه الغرق فلا يجد شيئاً يتمسك به أو يتوسل به للنجاة من مصيره المحتوم إلا أن يقول: ﴿آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠]، قالها صاغراً ذليلاً. وعلى الجانب الآخر نرى مشهد نصر الله تعالى لموسى ومن آمن معه وقد نجاهم من بطش الطاغية ومكَّن لهم في الأرض، ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: ٥]، ليكون في ذلك عبرة وعظة للمفسدين المتكبرين المتجبرين الذين لا يرجون لله وقاراً، والذين يظنون أن مُلكهم وسلطانهم يمنعهم من الله تعالى، أو أنه يجعل لهم مكانة تحميهم من جريان سنة الله عليهم، وكذلك ليكون تسلية وتسرية عن المؤمنين المستضعفين في الأرض ليوقنوا أن نصر الله لا يتخلف عن عباده المؤمنين به الصادقين في إيمانهم القابضين عليه ما داموا مستمسكين به، ما يحيي الأمل في نفوس المؤمنين في كل عصر ومصر بتمكين الله لعباده الصالحين كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، وكما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١].

وقد قصَّ علينا القرآن قصة اليهود الذين خانوا رسول الله ﷺ ثم احتموا بحصونهم وقلاعهم وظنوا أنها تمنعهم من نفاذ ما قضاه الله، لكنها لم تنفعهم وحصل لهم ما قضاه الله تعالى، وعقَّب القرآن بعد إيراده هذه الواقعة فجاء قوله تعالى: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُوْلِي الأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢]، قال ابن كثير: «أي: تفكروا في عاقبة من خالف أمر الله وخالف رسوله، وكذَّب كتابه، كيف يحل به من بأسه المخزي له في الدنيا، مع ما يدخره له في الآخرة من العذاب الأليم».

كما قصَّ خبر الرجل الذي غرَّه ما أنعم الله به عليه من سعة العيش حتى طغى وظنَّ أن لا أحد يقدر على نزع ما معه من الملك، وأنه لا يرجع إلى الله، ولئن رجع إليه فليجدنَّ في الآخرة خيراً مما له في الدنيا، فأهلك الله بستانه حتى لا يكون في ذلك اغترار من أحد بما وسع الله عليه به، قال الله تعالى: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٥ – ٣٦]، كما وعظتنا الآيات برجل من أهل العلم منَّ الله به عليه لكن انسلخ منه فقال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٥ – ١٧٦]، وإذا كان الله تعالى قد قصَّ علينا قصص الأنبياء والمرسلين مع أقوامهم تفصيلاً، فإنه قد أجملها أحياناً فسرد أكثرها في جمل متلاحقة لينوِّع المسلمُ في دعوته بين التفصيل والإجمال، قال تعالى: ﴿فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ [العنكبوت: ٤٠]، وبيَّن الله تعالى بعد معاقبتهم إنه لم يفعل ذلك ظلماً منه لهم سبحانه وتعالى عن ذلك، بل هم الظالمون لأنفسهم لما كذبوا رسله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

ولو انزجر الناس واتعظوا بما وعظهم الله به، وبما يقع تحت أسماعهم وأبصارهم من المواعظ والزواجر التي لا تخلو منها الحياة، والتي لا يكاد يمر يوم إلا وقع شيء من ذلك؛ لانصلح حال كثير من الأمم، وانحسر الفساد والضلال وانحصر في أدنى مستوياته، ولثبت المؤمنون على دينهم وعضوا عليه بالنواجذ لا يزعزعهم عنه شدة أو كرب؛ لعلمهم ويقينهم بما يؤول إليه حال الفريقين، قال رسول الله ﷺ في بيان هذا الصنف: «كان الرجل فيمن قبلكم يُحفر له في الأرض، فيُجعل فيه، فيُجاء بالمنشار فيُوضع على رأسه فيُشق باثنتين، وما يصده ذلك عن دينه، ويُمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب، وما يصده ذلك عن دينه»[1]، وفي حضِّه للثبات على الحق وعدم التفريط فيه ولو واجه المسلم ما واجه يقول ﷺ: «ألا إن رحى الإسلام دائرة، فدوروا مع الكتاب حيث دار، ألا إن الكتاب والسلطان سيفترقان فلا تفارقوا الكتاب، ألا إنه سيكون أمراء يقضون لكم، فإن أطعتموهم أضلوكم، وإن عصيتموهم قتلوكم». قيل: يا رسول الله، فكيف نصنع؟ قال: «كما صنع أصحاب عيسى ابن مريم، نُشروا بالمناشير وحُملوا على الخشب، موتٌ في طاعة خيرٌ من حياة في معصية الله عزَّ وجل»[2].

وهذا مما يبيِّن العناية التامة بهذا الأسلوب في الدعوة إلى الله تعالى وإلى دينه القويم، والبَدء به لأنه الأحق بالتقديم.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه رقم ٣٦١٢.
(٢) المعجم الصغير للطبراني رقم ٧٤٩.

صدر حديثًا

مجلة البيان

موسوعة أحاديث الشمائل النبوية الشريفة

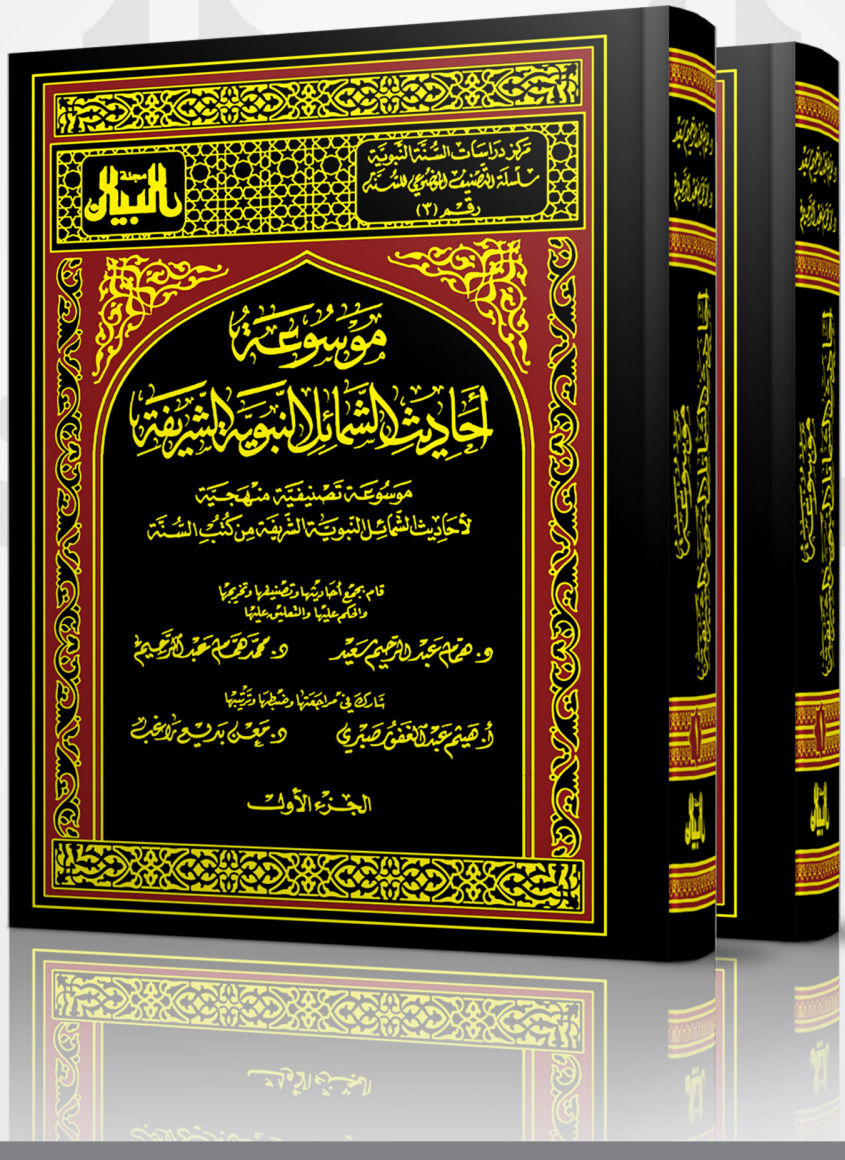

الرياض: ـ هاتف: ٤٥٤٦٨٦٨ تحويلة: ٥٠٠ و ٥٠٢ فاكس: ٤٥٣٢١٢١

التوزيع والمبيعات: ٠٥٠٤٤٧٨٩٣٢ ـ ٠٥٠٢٢١٠٩٢٠ ـ ٠٥٠٣٤٠٩٨١٦ ـ ٠٥٠٣٨٩٦٣٦٥ ـ ٠٥٠٦٤٦١٠٦٥

مكة والمدينة: ٠٥٠٧٢٦٦١٢٠ المنطقة الجنوبية: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٨

المنطقة الشرقية: ٠٥٠٦٢٩٢٦٨٩ منطقة القصيم: ٠٥٠٢٢٢٠٦١٦

معالم في منهج السلف في الدعوة إلى الله

هاني بن عبد الله بن محمد الجبير(*)
haniagm@gmail.com

المنهج هو الطريق الواضح الظاهر(١)، والسلف في الفكر الإسلامي اسمٌ لكل من يتبع في الدين طريق الصحابة والتابعين وأعلام الإسلام(٢)، وبذلك يختلف المراد اللغوي للسلف وهو الدلالة على من تقدمنا زمناً(٣) عن المراد الفكري بأمرين:

الأول: أن الزمن المقصود منه هو العصور الأولى للإسلام، وهم القرون الثلاثة الأولى الذين شهد لهم النبي ﷺ بالخيريَّة، عن عمران بن حصين - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال: (خير أمتي قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم - قال عمران: فلا أدري، أذكر بعد قرنه قرنين، أو ثلاثة - ثم إن بعدكم قوماً يشهدون ولا يُستشهدون، ويخونون ولا يؤتمنون، وينذرون ولا يوفون، ويظهر فيهم السمن)(٤).

والثاني: أن الوصف الزمني وحده لا يكفي ما لم تنضم إليه موافقة الكتاب والسُّنَّة نَصّاً وروحاً، فمن خالفهما ليس من السلف وإن عاش بين التابعين.

وللسلف منهج في الاعتقاد والعمل والدعوة والاستدلال، وذلك أن منهج السلف هو الإسلام المصفَّى، وهو صراط الله المستقيم الذي أُمرنا باتباعه: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وهو الإسلام الذي جاء به نبينا محمد ﷺ دون زيادات أو غبش حسبما تلقاه منه أصحابه وعمل به تابعوهم(٥).

ولذا؛ فلا غرابة أن يكون لهم منهج في الدعوة إلى الله؛ إذ للإسلام منهجه في ذلك، ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]. ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: ١٠٨].

وفي هذه الأوراق نظرات عامَّة في ملامح منهج السلف في الدعوة إلى الله أقدم قبلها مقدمات عامَّة، ثم أتبعها بالملامح أو المعالم الخاصة بالمنهج الدعوي.

(*) قاض في المحكمة الكبرى في الرياض.
(١) لسان العرب لابن منظور (٦/٤٥٥٤) (نهج).
(٢) كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي (١/٧٤٨)؛ وانظر: المنهج السلفي، د. مفرح القوسي ص ٣٦.
(٣) لسان العرب (٣/٢٠٦٨) (سلف).
(٤) صحيح البخاري (٣٦٥٠).
(٥) انظر مثلاً: لوامع الأنوار البهيَّة للسفاريني (١/٢٠)؛ الاعتصام للشاطبي (١/١٠٤)؛ مدارج السالكين لابن القيم (١/١٣)؛ مجموع الفتاوى لابن تيمية (١٩/١٩٤).

أولاً: أهمية لزوم منهج السلف:

إن خيريَّة صدر الأمة المشـــهود لهم بذلك على لسان النبي ﷺ، ومـــا ورد من نصوص كثيرة في مدح الصحابة والحث على الاقتداء بهـــم؛ (يقتضي تقديمهم في كل باب من أبواب الخير، وإلا لـــو كان خيراً من بعض الوجوه فـــلا يكونون خير القرون مطلقاً)[1]. وترجيـــح منهج غير منهجهم إبطال لهذه النصوص، بل إن النبي ﷺ أرشد أمته لأن يعملوا بما عليه صدر الأمة عند ورود النزاع وحصـــول الاختلاف، عن أبي واقد الليثي - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال يوماً: إنها ستكون فتن. قالوا: فكيـــف لنا يا رســـول الله، أو كيف نصنع؟ قـــال: ترجعون إلى أمركم الأول[2].

وقال عليه الصلاة والســـلام: (فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وإن كل بدعة ضلالة)[3].

قـــال ابن تيميـــة - رحمه الله: (من المعلـــوم بالضرورة لمن تدبَّر الكتاب والســـنة ومـــا اتفق عليه أهل الســـنة والجماعة من جميع الطوائف، أن خير هـــذه الأمة في الأعمال والأقوال والاعتقادات وغيرهـــا من كل فضيلة؛ أن خيرها: القرن الأول، ثـــم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، كما ثبت ذلك عن النبي ﷺ مـــن غير وجه، وأنهم أفضل من الخلف في كل فضيلة؛ من علم وعمل وإيمان وعقل ودين وبيان وعبادة، وأنهم أولى بالبيان لكل مشـــكل. هذا لا يدفعه إلا من كابر المعلـــوم بالضرورة من دين الإسلام، وأضله الله على علم)[4].

ثانياً: ترابط منهج السلف:

منهج الســـلف الصالح منهج شـــمولي، فهو يشمل جوانبَ الاعتقاد والعبادة والسلوك والأخلاق، إذ هذا المنهج هو الإسلام المصفى، والإسلام رسالة حياة كما أوضح ذلك كتاب الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الحج: ٧٧]. ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [الأعراف: ٢٩]. ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٤]. فالقرآن الكريم يعرض رسالة الإســـلام بجوانبها المتعددة في وحدة متكاملة تشـــمل عقائده وتشريعاته، فمنهج السلف رجوع لهذا التكامل الصافي، الشامل لكل جوانب الإسلام الذي لا يعتريه نقص.

قال ابن تيمية: (الشريعة جامعة لكل ولاية وعمل فيه صلاح الدين والدنيا، والشـــريعة إنما هي كتاب الله وسنة رسوله وما كان عليه سلف الأمة في العقائد والأحوال والعبادات والأعمال والسياســـات والأحكام والولايات والعطيات... وليس للإنسان أن يخرج عن الشـــريعة في شـــيء من أموره، بل كلما يصلح له فهو في الشرع، من أصوله وفروعه وأحواله وأعماله وسياسته ومعاملته وغير ذلك)[5].

فمنهج الســـلف مترابط؛ تترابط فيه مســـائل الاعتقاد مع التشـــريع والدعوة والمعرفة وطرق التغيير، وتتداخل مع بعضها؛ لأن المنبع واحد والاستمداد واحد.

ولهذه المقدمة ارتباط بما يليها.

ثالثاً: مخالفة منهج السلف ليست على وزن واحد:

تقدم أن المنهج السلفي تكامل في مجالات عدة، كالاعتقاد والتشريع والمعرفة والســـلوك والدعوة، وهو مترابط؛ إذ المنبع واحد، لكن مخالفة منهج الســـلف في مســـائل الاعتقاد ليست كمخالفته في مســـائل السلوك، كما أن مخالفة أصول الاعتقاد ليست كمخالفة فروعه.

قال ابن تيمية: (الطوائف المنتسبة إلى متبوعين في أصول الدين والكلام: على درجات، منهم من يكون قد خالف السُّـــنَّة في أصول عظيمة، ومنهم من يكون إنما خالف السنة في أمور دقيقة، ومن يكون قد رد على غيره من الطوائف الذين هم أبعد عن الســـنة منه، فيكون محموداً فيما رده من الباطل وما قاله من الحق، لكن يكون قد جاوز العدل في رده، بحيث جحد بعض الحق، وقـــال بعض الباطل، فيكون قـــد رد بدعة كبيرة ببدعة أخف منها، ورد باطلاً بباطل أخف منه)[6].

وقال أيضاً: (لا ريب أن الخطأ في دقيق العلم مغفور للأمة، ولولا ذلك لهلك أكثر فضلاء الأمة)[7].

---

(١) تضمين من: إعلام الموقعين لابن القيم (٤/١٣٦).

(٢) معجم الطبراني الكبير (٣/٢٤٩)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣/٣٠٣): فيه عبد الله بن صالح وثق وفيه ضعف، وبقيَّة رجاله رجال الصحيح. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم ٣١٦٥.

(٣) مسند أحمد (٤/١٢٦)؛ سنن أبي داود (٤/٢٠٠)؛ سنن الترمذي (٥/٤٤)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم ٢٧٣٥.

(٤) مجموع الفتاوى (٤/١٥٨).

(٥) مجموع الفتاوى (١٩/٣٠٨ - ٣٠٩).

(٦) مجموع الفتاوى (٣/٣٤٨).

(٧) مجموع الفتاوى (٢٠/١٦٦).

١ أول الواجبات الدعوة إلى تصحيح الاعتقاد، وأهم

ذلك توحيد العبادة لله، فهو أساس الدين وجميع الأحكام ترجع إليه، ولا يصح ولا يقبل عملٌ صالح إلا بتحقيق التوحيد الواجب، ولذا كان أول دعوة كل رسول أرسله الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

ولما بعث النبي ﷺ معاذاً لليمن داعياً أَمَرَه بالبِدَاءة بالدعوة إلى التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله[١].

قال ابن حجر: (بدأ بالشهادتين لأنهما أصل الدين الذي لا يصح شيء إلا بهما، فمن كان غير موحِّد فالمطالبة متوجهة إليه بكل واحدة من الشهادتين على التعيين... ويبدأ بالأهم فالأهم، وذلك من التلطف في الخطاب..)[٢].

وتصحيح الاعتقاد والعناية به هو أهم مَعْلَم من معالم السلف الصالح في الدعوة إلى الله، وذلك أنه أهم مسائل الدين وأولاها بالبيان، وعلى ذلك جرت سنة الرسل وأعلام الأمَّة.

وبعد مسائل الاعتقاد تأتي بقية مسائل الدين فتبيَّن للناس بياناً يقطع العذر من جهات وضوحها وبيانها كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤]، ومن جهة زوال الشبهة عنها.

٢ لزوم الكتاب والسنة على ما فهمه سلف الأمة:

فالمعول عليه عند الداعي إلى الله هو ما دل عليه هذان الأصلان العظيمان، فلا يعارَضَان باجتهاد أو مصلحة، إذ كل ما خالف الكتاب والسنة فاسد الاعتبار، مطرّح عند التحقيق، فيقدم الداعي للأمة الإسلام مصفى من كل شائبة، فقد علق به ما ليس منه، وواجب الداعية إلى الله إرجاع الناس إلى صفاء الكتاب والسنة وتنقية عقائدهم وتعاملاتهم وسلوكياتهم من كل ما شابها ولوثها من الدخيل.

وقد كان النبي ﷺ إذا خطب قال: (أما بعد، فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة)[٣].

(١) صحيح البخاري (١٤٥٨)؛ صحيح مسلم (٢٩).
(٢) فتح الباري (٣/٣٥٧).
(٣) صحيح مسلم (٨٦٧).

وبهذا يُعرف أن من أهم ما يعده الداعية إلى الله في نفسه تسلُّحه بالعلم الشرعي الذي يتبيَّن به الحق، ويُعرف به الصواب، قال ابن تيمية: (والله سبحانه وتعالى قد أمرنا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: والأمر بالشيء مسبوق بمعرفته، فمن لا يعلم المعروف لا يمكنه الأمر به، والنهي عن المنكر مسبوق بمعرفته، فمن لم يعلمه لا يمكنه النهي عنه)[٤].

ومن لزوم الكتاب والسنة أن يكون الداعي مخلصاً لله في دعوته مريداً بها وجهه.

٣ الأدلة الشرعية ليس منها قول الواحد من السلف:

إن منهج السلف متابعة الكتاب والسنة على فهم سلف الأمة، والأدلة الشرعية التابعة لهذا من الإجماع والقياس ليس منها قول الواحد من السلف، فالواحد يصيب ويخطئ، إذ لا عصمة له، أما إجماع السلف فهو معصوم، أما الواحد من السلف فقوله محتملٌ للصواب والخطأ.

قال ابن تيمية: (أهل الحق والسنة لا يكون متبوعهم إلا رسول الله ﷺ، فهو الذي يجب تصديقه في كل ما أخبره، وطاعته في كل ما أمره، وليست هذه المنزلة لغيره من الأئمة)[٥].

(٤) التفسير الكبير (٥/٣٠٤).
(٥) مجموع الفتاوى (٣/٣٤٦).

وقال أيضاً: (فمن اتبع السابقين الأولين كان منهم، وهم خير الناس بعد الأنبياء، فإن أمة محمد خير أمَّة أخرجت للناس، وأولئك خير أمة محمد.. ولهذا كان معرفة أقوالهم في العلم والدين وأعمالهم خيراً وأنفع من معرفة أقوال المتأخرين وأعمالهم في جميع علوم الدين وأعماله.. وذلك أن إجماعهم لا يكون إلا معصوماً، وإذا تنازعوا فالحق لا يخرج عنهم، فيمكن طلب الحق في بعض أقوالهم)[1].

فلا يصح لأحد أن يبدِّع أحداً أو يخطئه بناء على مخالفته قول أحد علماء السلف حتى يثبت أنه إجماع السلف، أو أن هذا القول دل عليه الكتاب والسنة؛ فإن من أقوال سلف الأمة وأئمتها ما خالف الثابت في الكتاب والسنة، وهم في ذلك معذورون[2]، إذ لا يسلم من الخطأ أو الغفلة بشر.

ويرتبط بهذا الضابط الضابط الرابع.

٤ عدم التعصب لمسائل الاجتهاد:

فمسائل الدين منها القطعية الثابتة بالكتاب والسنة والإجماع، وهذه لا إشكال بأنه لا يجوز القول بخلافها؛ ومنها ما تُوصِّل إليه بالنظر والاجتهاد، فهذه الواجب فيها على العالِم أن يقول بما أداه نظره إليه بحسب اجتهاده، ولذا فإن الواحد من علماء السلف قد يخالف الصواب، وهو معذور، بل مأجور؛ فقد قال النبي ﷺ: (إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإن أخطأ فله أجر واحد)[3].

والواجب على العامي (غير المجتهد) أن يسأل أهل العلم عما لا يعرفه ويتابعه ما لم يغلب على ظنه خطؤه، إذ تقليد أهل العلم ليس مقصداً في ذاته، بل هو طريق لمعرفة العلم لمن لم يتمكن من النظر بنفسه، واعتبار أقوال أهل العلم بمنزلة أعلى من ذلك إعراضٌ عما أمر الله به من تحكيم للشرع، يقول الشاطبي: (إن تحكيم الرجال من غير التفات إلى كونهم وسائل للحكم الشرعي المطلوب شرعاً؛ ضلال.. فحكم الشارع إذا وقع وظهر فلا خيرة للرجال ولا اعتبار بهم... والصحابة لم يأخذوا أقوال الرجال في طريق الحق إلا من حيث كونهم وسائل للتوصّل إلى شرع الله، لا من حيث هم أصحاب رتب كذا أو كذا)[4].

وهذا الأمر مع ظهوره نظرياً إلا أن الواقع أن من الناس من يتمسك بمنهج السلف في عدم التعصب لآراء الفقهاء، فتجده يخالف الإمام مالكاً أو الشافعي باعتبار نظره في الدليل، ثم لا يخالف العلامة الألباني – رحم الله الجميع – مع أن الباب واحد، فكل مسألة اجتهادية فإن واجب المجتهد النظر والاستدلال.

وكثير من مسائل الدعوة إلى الله اجتهادية – كونها ليست مقاصد بذاتها – كهجر بعض المخالفين أو طريقة الرد عليهم... ونحو ذلك، ولذا فلا مجال للتعصب لرأي فيها.

قال الشيخ محمد بن عثيمين – رحمه الله: (ليس لوسائل الدعوة حد شرعي، فكل ما أدى إلى المقصود فهو مقصود، ما لم يكن منهياً عنه بعينه، فإن كان منهياً عنه بعينه فلا نقربه... فالوسائل غير المقاصد، وليس من اللازم أن ينص الشرع على وسيلة بعينها، لأن الوسائل لا حصر لها ولا حد لها، فكل ما كان وسيلة لخير فهو خير)[5].

إلا أن واقع كثير من الدعاة مؤسف، فترى الفُرقة والتنابذ بناء على اختلافهم في مسألة اجتهادية مما لا يوجد له مبرر شرعي، بل هو خلاف ما أراده الله تعالى لهذه الأمة من الاجتماع، وخلاف طريقة سلف الأمة في التعامل مع المسائل الاجتهادية (فقد كانوا إذا تنازعوا في أمر اتبعوا أمر الله تعالى: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ [النساء: ٥٩]. وربما اختلف قولهم في المسائل العلمية والعملية ومع ذلك تبقى بينهم الألفة وأخوَّة الدين، ولو كان كلما اختلف مسلمان في شيء تهاجرا لم يبقَ بين المسلمين أخوَّة)[6].

وهذا التعصب لرأي عالم في مسألة اجتهادية ولو كان هذا العالم من أئمة السلف؛ مخالف لمنهج السلف، إذ منهج السلف أو الولاء والبراء هو للكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة.

قال ابن تيمية: (تعليق الأمور من المحبة والبغض، والموالاة والمعاداة، والرضا والغضب، والنصرة والخذلان.. بالانتساب إلى إمام معين أو شيخ أو متكلم أو فعل أو شعار.. كل ذلك من أمور الجاهلية المفرِّقة بين الأمة، وأهلها خارجون عن السنة والجماعة، داخلون في البدع والفرقة...)[7].

(١) مجموع الفتاوى (١٣/٢٣).
(٢) مجموع الفتاوى (٣/٣٤٩).
(٣) صحيح البخاري (٧٣٥٢)؛ صحيح مسلم (١٢/١٣) عن عمرو بن العاص رضي الله عنه.
(٤) الاعتصام ص ٥١٤.
(٥) لقاء الباب المفتوح (١٥/٤٩).
(٦) تضمين من مجموع الفتاوى لابن تيمية (٢٤/١٧٠).
(٧) مجموع الفتاوى (٣/٣٤٢).

٥ التكامل:

تقدم أن منهج السلف مترابط يدخل في كل مناحي الحياة، لأن الإسلام كذلك؛ فالله تعالى (أنزل الشريعة على رسوله فيها تبيان كل شيء يحتاج إليها الخلق في تكاليفهم التي أُمروا بها، وتعبداتهم التي طوقها في أعناقهم، ولم يمت رسول الله ﷺ حتى كمل الدين بشهادة الله تعالى بذلك، حيث قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

(... والعالم الرباني لا يصدّه التبحّر في الاستبصار بطرف عن التبحّر في الاستبصار بالطرف الآخر.. وبذلك يسمى: الرباني والحكيم والراسخ في العلم، والعالم والفقيه والعاقل)[١].

وتكامل منهج السلف يظهر في شموله العقيدة والعمل والسلوك كما تقدم، كما يتجلّى أيضاً في أنّه لا يغفل عن الجماعة حين تربيته للفرد ولا عن الفرد حين دعوته للجماعة، ويتجلى أيضاً في أنها لا تعتني بالجوانب النظرية على حساب الواقع العملي والذي به تفقد أثرها الاجتماعي، ويظهر أيضاً أنها تعتني بالموافق تربيةً وتعليماً وبالمخالف بياناً وجدالاً وكشفاً، ويظهر كذلك في عدم تخليها عن أي معركة تعرض لها، فلا تترك مواجهة فتن العصر ومشاكله المتجددة ولا تغفل عن شيء منها.

(فكما أن الإنسان لا يكون إنساناً حتى يستنطق، فلا ينطق باليد وحدها، ولا بالرجل وحدها، ولا بالرأس وحده، ولا باللسان وحده، بل بجملته التي سمي بها إنساناً، كذلك الشريعة..)[٢].

وهذا كله يدلنا على أنه لا مانع من تعدد توجهات من ينتمي لمنهج السلف؛ بحيث يكمل كل عمل الآخر، ويقوم بدور يعتقد قدرته عليه، قال ابن تيمية: (كل شخص إنما يُستحب له من الأعمال التي يتقرب بها إلى الله تعالى ما يقدر عليه ويفعله وينتفع به، والأفضل له من الأعمال ما كان أنفع له، وهذا يتنوّع تنوّعاً عظيماً، فأكثر الخلق يكون المستحب لهم ما ليس هو الأفضل مطلقاً، إذا أكثرهم لا يقدرون على الأفضل ولا يصبرون عليه إذا قدروا عليه، وقد لا ينتفعون به، بل قد يتضررون إذا طلبوه)[٣]. ثم استشهد بالحديث القدسي (إن من

(١) تضمين من الاعتصام للشاطبي ص ٤٧٨، والمقطع الثاني من الموافقات له أيضاً (١٦٨/٤).
(٢) الموافقات (١٧/١).
(٣) مجموع الفتاوى (١١٩/١٩).

عبادي من لا يصلحه إلا الفقر فلو أغنيته لأفسده ذلك). وقد كتب العُمَري الزاهد للإمام مالك - رحمهما الله تعالى - يحثّه على الانفراد عن الناس والتفرغ للتعبد، فكتب له الإمام مالك: (إن الله - عز وجل - كما قسم الأرزاق: قسم الأعمال، فربَّ رجل فتح له في الصلاة ولم يفتح له في الصوم.. ونشر العلم وتعليمه من أفضل أعمال البر، وقد رضيت بما فتح الله لي فيه من ذلك، وما أظن ما أنا فيه بدون ما أنت فيه، وأرجو أن يكون كلانا على خير)[٤].

٦ لا مانع من تعدد الطرق ضمن منهج السلف.

ما دام كل طريق قد دل عليه دليل صحيح ولم يعارِض أصلاً من أصول الشرع، وهو مقيد بما تقدم عن التعصب المذموم.

وهذا فرع عن جواز الاجتهاد وعدم حتميّة الصواب في رأي من الآراء الاجتهادية، إذ الحق ليس حكراً على أحد، أو جماعة.

قال الشاطبي: (إن الله تعالى حكم بحكمته أن تكون فروع هذه الملة قابلة للأنظار، ومجالاً للظنون، وقد ثبت عند النظار أن النظريات لا يمكن الاتفاق فيها عادة، فالظنيّات عريقة في إمكان الاختلاف، لكن في الفروع دون الأصول، وفي الجزئيات دون الكليات، فلذلك لا يضر هذا الاختلاف)[٥].

لكن من المؤسف أن نجد من يجعل للجزئيات والفروع الاجتهادية مكانة الكليات القطعية فيتجاوز هذا الأصل ويجعل الفروع سبباً للخصومة والبغضاء.. والله المستعان.

(٤) التمهيد لابن عبد البر (١٨٥/٧).
(٥) الاعتصام ص ٣٩٣.

نـــمـــاء

منهج بناء الشخصية الإسلامية
من الرضاعة إلى ما بعد الجامعة

للمربين..
..للأسرة..
..للدعاة

بمشاركة فريق من الباحثين المختصين

أولادي والتقنية

بناء قيادات اجتماعية فاعلة

كيف نبني داعية مؤثراً؟

أريد بناء الخلق الحسن لدى ابنتي

ابني المراهق وعلاقته بالله

كيف أجعل طفلي منظما.

إعداد مؤسسة
المربي
ALMURABBI

إخراج و تصميم
BN
www.BNet.ws

﴿ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ ولا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾

شريعتنا هي كل ديننا

د. عبد العزيز كامل
d.amk@hotmail.com

الشريعة هي عنوانُ المرحلة الراهنة والمقبلة، فتحكيمها وإقامتها سيظل موضوع حراك الإسلاميين، وموضع خصومة الكارهين من العَلمانيين، والمواقف منها سلباً أو إيجاباً، قبولاً أو رفضاً؛ هي التي ستقرر معالم الفرز الاعتقادي القسري الذي فرضته تداعيات الثورات العربية، وعندها لن يكون التقسيم الواقعي بين الشعوب قائماً على الأسس القومية ولا الوطنية، ولا معتمداً على الفروق الاجتماعية أو الثقافية؛ إنما سيكون مبنياً - قبل هذا أو ذاك - على المعايير الاعتقادية والفروق الفكرية والمذهبية، لتعود القسمة بين الناس ثلاثية كما قررها الوحي المنزل عندما قسمت سورة البقرة في بدايتها الناس إلى ثلاثة أقسام: (مؤمنون... كافرون... منافقون)، فبينما ينحاز المؤمنون إلى خيار العيش في ظلال الشريعة، سيقف الكفار الصرحاء داخل بلدان المسلمين وخارجها بصلابة في وجه الشريعة وحَمَلتها وحُماتها، وستفيء إلى الكافرين الظاهرين فئام المنافقين المتسمّين بأسماء المسلمين، والذين أصبحوا يصرحون علانية بمعارضتهم للاحتكام لها وكراهيتهم للنزول على أحكامها.

نزاع مفاهيم:

جزء كبير من الخصومة في قضية الشريعة يعود إلى خلط المفاهيم حولها، فمع أن مفهوم الشـــريعة والمعاني المحيطة بالحكم بها بعد التحاكم إليها، من الأمور التي حسمها الوحي كتاباً وسنة؛ فقد ظلت «النخب» الفكرية في لغط وجدال - ولا تزال - حول مرجعيتها وحاكميتها وتنفيذها وإقامتها، ومن يقوم بذلك ومن يُقام عليه ذلك.

بعض المفاهيم الخاطئة حول الشريعة أصبحت - بفعل التراكم - كأنها هي الأصل الواجب الرجوع إليه، ومن ذلك: الظن بأن الشـــريعة أمر مختص ومختصر في تنفيذ أحـــكام العقوبات وإقامـــة الحدود، والظن بأن ذلـــك التنفيذ واجب على الفـــور دونما تمهيد أو تأهيل للشـــعوب. وأيضاً يســـود مفهوم خاطئ عن أن القيام بأمر الشـــريعة أمر خاص بالخاصة من الحكام والقضاة، مع أن ذلك ينصرف إلى جزء قليل منها وهو أحكام الحدود. ومن أخطر صـــور التلاعب بالمفاهيم في هذا الصـــدد الادعاء بأن الحكم بالشـــريعة غير مُلزِم، وأن المسلم يسعه أن يظل في دائرة الإيمان رغم عدم رضـــاه بحكم الله، أو أن الإيمـــان بوحدانية الله يكفي عن الخضوع لحاكميته.

ومن صور العبث بالمفاهيم كذلك، تقســـيم الشريعة إلـــى (مبـــادئ) و(أحـــكام)، فالمبـــادئ يســـوغ قبولها والتنصيص عليها في الدســـاتير، مثل: المناداة بالعدالة والمســـاواة واحترام حقوق الإنسان؛ وأما الأحكام فعلى طريقة العَلمانيين لا يُعدُّ أكثرُها مناسباً للعصر أو قابلاً للتطبيق.

ومن ضمن الأســـباب التي تســـاعد على اتســـاع دائرة الخلط فـــي المفاهيم، اســـتحداث مصطلحات غير مدققـــة ولا موثقة كي تحل محـــل المصطلحات الشـــرعية التي جاء بها الوحي في كتاب الله أو ســـنة رسول الله ﷺ، ومن ذلك تعبير (تطبيق الشريعة) الذي أعطى ورســـخ إيحاءات كثيرة عائمـــة مائعة توصل أو تؤصل لبعض المفاهيم الخاطئة الســـابق ذكرها، حيث يتبادر إلى أذهان الناس عند استعمال هذا التعبير أن المقصود من الشريعة هو فقط «تطبيق» الحدود وتنفيذ العقوبات وبعض المعاملات، وفـــي هذا تقزيم للمعنى العظيم الكامن وراء الدعوة لـ (إقامة) الشريعة بالمعنى الشـــامل، المتضمن قضايا اعتقاديـــة وأحكاماً فقهية وأموراً تتعلق بأعمال القلوب وآثار السلوك، ونحو ذلك مما يصدق عليه بمجموعه وصف (العبودية لله)، وهو ما لا يكفي للوفاء به أيضاً الحديث عما يُسمى: «تقنين الشريعة».. فالعبودية لا تقنن في قوالب، ولا تنقط في فقرات.

لا شـــك أن المفاهيم الســـليمة فيما يتعلق بقضايا الشريعة إنما تُستمد من خطاب الوحي، فالقرآن والسنة الصحيحة بفهم الســـلف هما الأولـــى بالتصدير قبل غيرهما في تحديـــد تلك المفاهيم ووضع مصطلحاتها، وتعيين المراد بها.

في هذا الإطار يأتي الاســـتهداء بهدي القرآن في ذلك الشأن الشاغل، ولعل الآية المعنون بها لهذا المقال، وأقوال المفســـرين فيها، تحســـم الجدال في كثير من الأمـــور، وتؤصل للمفاهيم الصحيحة حول موقع الحكم بالشريعة من الدين.

يقول الله - عز وجل -: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ [الشورى: ١٣].

فالآية خطاب لهذه الأمة بأن تقيم وتستقيم على ما شـــرعه الله لها وللأمم قبلها على ألسنة الرسل العظام أصحاب الشرائع، ولا يتفرقوا في الطريق الموصل إليه، بـــل يجتمعوا عليه؛ وأن يعلموا أن رضى أعداء الرســـل عنهم محال ما داموا داعين لشـــرع اللـــه وعاملين به، فليكونوا هم أهل اصطفاء الله ورضاه بالاســـتمرار في الاهتداء بهداه، والعودة إليه.

ومن خلال ذلك المعنى العام للآية، تظهر لنا حقائق ومفاهيم مستمدة منها، ومما يماثلها من الآيات، وهذه أبرزها:

أولاً: الإقرار بالوحدانية يستلزم إقامة الشريعة:

ذلك أن الله الذي شرع لنا من الدين ما وصى به أولي العزم من الرسل، هو الإله الواحد الذي له مقاليد السماوات والأرض - كما بيَّنت الآية قبلها - والذي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر وهو بكل شيء عليم، فهذا الإله العظيم أودع آثار صفاته العُلا في شرعه، فقد أنزله بعلمه وحكمته ولطفه وغناه عن خلقه، وقال: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ ولا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾. فالذي شرع هو الذي خلق فسوى، والذي قدر فهدى. قال القرطبي «﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ﴾ أي: الذي له مقاليد السماوات والأرض شرع لكم ما شرع لقوم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى». أما ما شرعه وأمرنا بإقامته، فهو - كما قال رحمه الله - «توحيده والإيمان برسله وكتبه وبيوم الجزاء، وبسائر ما يكون الرجل به مسلماً».

ثانياً: نكون خير أمة بإقامة خير شريعة:

فالله - تعالى - وصانا بمثل ما وصى به أمم الأنبياء السابقين، قال ابن عاشور «والمماثلة: في أصول الدين مما يجب لله - تعالى - من صفات، وفي أصول الشريعة من كليات التشريع، وأعظمها توحيد الله، ثم ما بعده من الكليات الخمس: الضروريات، ثم الحاجيات التي لا يستقيم نظام البشر دونها، فإن كل ما اشتملت عليه الأديان المذكورة من هذا النوع قد أودع مثله في الإسلام».

فإذا كان أولو العزم هم أفضل الرسل الذين أُرسلوا بأكبر الشرائع، فإن أفضلهم جميعاً محمد ﷺ، ولذلك فإن شريعته هي أكمل الشرائع، ولهذا كان ما شُرع للأنبياء السابقين (وصية) من الله لهم، أما ما شُرع لنبينا ﷺ فهو (وحي) من الله، والفرق أن الوحي يشير إلى الإعجاز التشريعي الذي اختص به القرآن عن سائر الكتب المنزلة، وعندما تقيم الأمة شريعة الإسلام الكاملة فإنها تقيم بها شرائع كل الأنبياء، وتكون بذلك خير أمة، وأولى بكل نبي من قومه؛ عندما تحيي من شرعه ما أماته قومه.

ثالثاً: حقيقة إقامة الشريعة هي إقامة الدين كله:

فـ «إقامة الدين» ومن ثم: إقامة الشريعة؛ مصطلح قرآني لا يحل محله غيره كـ (التطبيق) أو (التنفيذ)، وهو أشمل أيضاً من (التحكيم)، فقد يكون التطبيق جزئياً فلا يسمى إقامة، وقد يحصل بعض التنفيذ دون تحكيم اعتقادي، وقد يحصل التحاكم الاعتقادي للشريعة دون إقامتها في الواقع. وقد تكرر في القرآن الأمر بإقامة الدين المستلزم لإقامة الشريعة، قال ابن العربي في تفسير ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ﴾ «أي اجعلوه قائماً، يعني دائماً مستمراً، محفوظاً مستقراً، من غير خلاف فيه واضطراب عليه»، وهو يشمل - كما قال - «الأصول التي لا تختلف فيها الشريعة، وهي التوحيد والصلاة والزكاة والصيام والحج والتقرب إلى الله بصالح الأعمال، والتزلف إليه بما يردُّ القلب والجارحة إليه والصدق والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة وصلة الرحم وتحريم الكفر والقتل والزنا والإذاية للخلق، والاعتداء على الحيوان، واقتحام الدناءات وما يعود بخرم المروءات».

رابعاً: الشريعة بمعناها العام ترادف الدين كله:

قال - تعالى -: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا﴾ [الجاثية: ١٨]، قال الشوكاني في تفسيرها: «المراد بالشريعة هنا ما شرعه الله لعباده من الدين»، فإذا أمرنا بإقامة الدين، فقد أمرنا بإقامة الشريعة. نقل الطبري عن قتادة في تفسير ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا﴾ أنه قال: «بُعث نوح حين بُعث بالشريعة بتحليل الحلال وتحريم الحرام، وهو نفسه ما بُعث به إبراهيم وموسى وعيسى»، ولذلك قال الطبري في تفسير تلك الآية: «وعنى بقوله ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ﴾ أي اعملوا به على ما شُرع لكم وفُرض». وإذا كان الدين يشمل المعتقدات والتشريعات والسلوكيات، فإن الشريعة بمعناها العام تشمل ذلك، وقال ابن عطية: «﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ﴾.. إقامة الدين مشروع اتفقت النبوات فيه، وذلك في المعتقدات أو في جملة أمرها، حيث إن كل نبوة مضمونها معتقدات وأحكام، فيجيء المعنى على هذا: شرع لكم شِرعة هي كشرعة نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام، في أنها ذات المعتقدات المشهورة التي هي في كل نبوة».

نخلص من هـذا إلى معنى ينبغي تحديده، ومفهوم يجب إحياؤه، وهو أن الشـريعة معنى أعظم بكثير مما يردده الإعلام، وما يفهمه الرأي العـام، فهي كل الدين الواجب إقامته على كل الأمة، يقول ابن تيمية - رحمه الله - في فتاويه عند شرحه هذه الآية تحت عنوان (قاعدة في الفرقة والجماعة): «فالمشروع لنا هو الموصى والموحى، وهو ﴿أَقِيمُوا الدِّينَ﴾، فأقيموا الدين مفسر للمشروع لنا الموصى به الرسل، والموحى به إلى محمد ﷺ».

خامساً: إقامة الشريعة.. لا تطبيق الشريعة:

المعنى المتبادر من التعبير المستحدث (تطبيق الشريعة) يكاد ينصرف عند عموم الناس - كما سبقت الإشارة - إلى تنفيذ باب من أبواب الفقه الإسلامي، وهو باب أحكام العقوبات والحدود وبعض المعاملات، ولذلك فالتعبير يوهم تجزئةً غير جائزة تؤدي إلى تبعيض الشريعة المنهي عنه في قول الله تعالى: ﴿كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ۝٩٠ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ [الحجر: ٩٠ - ٩١]، أي أعضاء وأجزاء يؤخذ ببعضها ويترك بعضها.. لا شك أن الذين وضعوا مصطلح (تطبيق الشريعة) لم يكونوا يقصدون هذا، لكن هـذا ما آل إليه الأمر عندما تُرك التعبير القرآني (إقامة الدين) الذي يعني (إقامة الشـريعة)، ولو رحنا نبحث عن المعنى اللغوي فـي مادة (ط. ب. ق) لكلمة (طبَّق) لوجدنا هذه المادة تدور حول معاني: التغطية والتسوية والتراتب الفوقي والموافقة والاتفاق.

فهل يكون (تطبيق الشـريعة) مثلاً: هو تغطيتها، أو تسـويتها بسواها، أو موافقتها لغيرها، أو وضعها في ترتيب بعضه فوق بعض؟!

إن معنى (إقامة) الدين ومن ثم (إقامة) الشـريعة، أبلغ في الإيضاح والتحديد، ولهذا؛ فهو تعبير بليغ سـديد، فالإقامة في اللغة تعني الإتمام والإدامة، ولذلك جاء التكليف بأعظم فروض الإسـلام - وهي الصلاة - بلفـظ الإقامة أيضاً بمعنى إتمامها وإدامتها، فقال الله تعالى في كثير من الآيات: (وأقيموا الصلاة)، وإقامتها تعني إتمامها - كما قال الزجاج في تفسيره -، فالصلاة تحتاج إلى أمور كثيرة وعظيمة الشـأن حتى يصدق على فاعلها أنه (مقيم للصلاة)، قال الطبري في تفسـير ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ [البقرة: ٣] «إقامتهـا: أداؤها بحدودها وفروضها والواجب فيها على ما فرضت عليه، كمـا يقال: أقام القوم سـوقهم، إذا لم يعطلوها من البيع والشراء»، ونقل - رحمه الله - عن ابن عباس قوله: «إقامة الصلاة: تمام الركوع والسـجود والتلاوة والخشوع والإقبال عليها فيها». وقد جاء في الحديث: (سـووا صفوفكم فإن تسوية الصفوف من إقامة الصلاة)[1].

فإذا كان كل هذا مطلوباً في الصلاة كي يُعدَّ المرءُ مقيماً لها وهي واجب واحد، فما بال الواجب الشـامل لكل الواجبات وهو (إقامة الشريعة).. ما المطلوب منا كي نكون مقيمين لها؟

إن إقامة الشـريعة تشـمل أموراً أرحـب وأعظم من الأمور التي يشـير إليها تعبير (تطبيق الشـريعة)؛ إنها أمور تتوزع على العقائد والعبادات والمعاملات والسـلوكيات لتشمل أعمال القلوب وأعمال الجوارح، إلى جانب الأخلاقيات التي تدعو الشـريعة إلى التزامها وعـدم الخروج عنها، إضافة إلـى الضوابط العامة في الأقوال والأعمال، والمعايير الخاصة في الحكم على الأشـخاص والأفكار. وهذه كلها - كما تـرى - مهمة الأمة بمجموعها، حيث إنها كلها مخاطبة بإقامة الشريعة وإقامة الدين.

لذلك نقول إن من إقامة الشريعة: إجلال الموحِي بها - سبحانه - وتعظيم الموحَى إليه بها ﷺ، وتعظيم نصوصها، والتحاكم القلبي إليها، والتحكيم الفعلي لها، والولاء والبراء لأجلها، والحب والبغض على أساسـها، والجهاد لرفعة شـأنها، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بمقتضاها، وتحمّل الأذى في سـبيلها، وتوقير علمائها، وطاعة الحاكمين بها، ونصرة الداعين إليها، والتزام منهج السلف في فهمها ونصرها ونشرها، وعدم التفرق والاختلاف في الطريق الموصل إليها كما أمر الله ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾.

وما أحسـن تفسير الشيخ السعدي لمعنى هذه الآية حيث قال رحمه الله «﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّيـنَ﴾.. أمركم أن تقيموا جميع شـرائع الدين، أصوله وفروعه، تقيمونه بأنفسكم وتجتهدون في إقامتـه على غيركـم، وتعاونون على البـر والتقوى ولا تعاونـون على الإثم والعدوان.. ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُـوا فِيهِ﴾ أي ليحصل منكم الاتفاق على أصول الديـن وفروعه واحرصوا على ألا تفرّقكم المسائل وتحزّبكم أحزاباً، وتكونوا شيعاً يعادي بعضكم بعضاً مع اتفاقكم على أصل دينكم».

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٧٢٣).

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ ﴾

قال الله - تعالى -: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴾ [آل عمران: ١٤].

هذه الآية جاءت في سياق صراع أهل الحق مع الباطل، فقبلها ببضع آيات ذكر الله - تعالى - من يتّبعون المتشابه من النصوص والأحكام ليقفزوا به على محكمات الشريعة بالإبطال والإلغاء، ويضربوا النصوص بعضها ببعض ليُخرجوا المحكم عن إحكامه ويضعفوا دلالته على الحكم، ليقوموا بعد ذلك بتمرير الشبهات التي يضلون بها الناس؛ كما هي عادة أهل الأهواء ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ﴾ [آل عمران: ٧].

إبراهيم بن محمد الحقيل(*)

ثـم بعد ذلك تأتـي آيات لتخبر عن أن قـوة الكفار وما يملكـون لن تنفعهم: ﴿إِنَّ الَّذِيـنَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُـمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُـم مِّنَ اللَّهِ شَـيْئًا وَأُوْلَئِكَ هُـمْ وَقُودُ النَّـارِ﴾ [آل عمران: ١٠]، وصـولاً إلى معركة المؤمنين معهم ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَـتُغْلَبُونَ﴾ [آل عمـران: ١٢]، وتناول أول معركة وهي بدر ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَـبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَـاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُوْلِي الأَبْصَارِ﴾ [آل عمران: ١٣]، ثم تأتي آية تزيين الشهوات التي نحن بصددها.

فالمشـهد إذن: أتبـاع شـبهات، وكفـار، ومدافعون من المؤمنين.. ولو أسـقطنا هذا السـياق القرآنـي بتفصيلات مشـهده على واقعنا المعاصر - دون الزعم أن الآية محصورة في هذا الفهم، ولا أنها لا تتناول سوى هذا المشهد - لوجدنا أن لها دلالات عميقة في معالجة واقعنا المعاصر:

١ فأتباع الشـبهات فـي زمننا اجتـرؤوا على انتهاك حمى الشـريعة، سواء بالتشكيك في أصل الدين، وتمثل ذلك فـي موجة الإلحاد والزندقة التي جرفت جمعاً من الشـباب فطوحت بهم في أودية الجحود أو الشك؛ أو كانت في تحليل المحرمات وإسـقاط الواجبات، فإن كثيراً مـن أهل الأهواء وعُبَّاد المناصب والشهوات استخرجوا شذوذ الأقوال والفتوى من بطون الكتب وشـغبوا به على المحكـم في إباحة المحرم، كالاختلاط وسفر المرأة بلا محرم وتحديد سن الزواج وتقنين القضاء وغير ذلك؛ أو إسـقاط الواجب، ومن أمثلته إضعاف واجب الحسبة، وتقليصه إلى أقصى حد ممكن، وحصره في فئة قليلة.

٢ والكفار، وهم داعمون لأهل الأهواء وأتباع الشـبهات مادياً ومعنوياً، بل وسياسـياً واسـتخباراتياً وعسكرياً، فيما يرومونه من مسـخ الشريعة الربانية وإحلال الشريعة الغربية الليبرالية محلها.

٣ وأهل الإيمان والاحتسـاب يدافعون غوائل الطائفتين الأوليين، ويصدون هجومهم المسـتمر على الشريعة الربانية، ويحذرون الناس منهم.

وهذا الصراع سـنة ربانية كتبها الله تعالى على المؤمنين ابتلاء لهم؛ لتعظم أجورهـم، وترفع منازلهم في الآخرة على جهادهم في الدنيا، فهي سـنة حتميـة لا محيص عنها ولا مهرب منها.

وأهل الكفر لا يسـتطيعون النفاذ إلى المجتمعات المؤمنة إلا عن طريق من يتّبعون المتشـابه، الذين يسقطون المحكمات بالمتشـابهات، تمهيداً لإحلال شـريعة الكفار محل الإسلام، ويشوشون بالمتشابهات على عوام المسلمين لحشد الرأي العام خلف مشـروعاتهم وأطروحاتهم التي يصفونها بالإصلاحية والتطويرية والتقدمية ونحوها.

لكن كيف اسـتخدم الكفار أتباع الشبهات في هذه المهمة القذرة وهم في الأصل مسـلمون ويعلمون أن تبديل كلام الله تعالى وتغيير شـريعته يوجب سخط الله تعالى من جهة، ومن جهة أخرى سيكون وصمة عار لا تمحوها الأيام في سيرتهم، كما قد دُونت سيرة أمثالهم من قبل في كثير من حقب الزمان، وفي مختلف ديار أهل الإسلام؟

الآية التـي نحن بصدد الحديث عنهـا تجيب عن ذلك؛ إذ الطريق إلى تسـخير متّبعي المتشابهات لخدمة مشروعات الطاغوت هي الشـهوات التي يضعف أمامها الإنسان، والآية صُدِّرت بقول الله تعالى ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾ [آل عمران: ١٤]، فالفعل مبني لما لم يسـمَ فاعلـه، والمزين هو الله تعالى بجبله الإنسـان على حب الشـهوة لا بدعوته سبحانه إليها، وحكمة هذا التزيين: ابتلاء العباد بالدين وبالشهوة، فمن قدّم الدين قهر الشهوة، ومن ضَعُفَ أمام الشهوة تخلى عن الدين. فاسـتغل الكفار هذه الصفة في الإنسـان فغذوا بها ضعاف المؤمنين، وسخروهم بالشـهوات لاستخراج الشبهات وضرب المحكمـات بها للقضـاء على أحكام الديـن، وإحلال أحكام الطاغوت محلها.

والشهوات التي تأسر الإنسان كثيرة ومتنوعة، وبعضها يأخذ برقاب بعض، بحيث لو قوي المفتون على التخلص من بعضها لم يقدر على بعضها الآخر، وفي الآية ذِكْرُ ﴿النِّسَـاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَـوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾ [آل عمران: ١٤]، وهذه أصول الشـهوات البشـرية التي يتفرع عنها شهوات كثيرة يسعى بنو آدم إلى تحصيلها والاستمتاع بها.

أولها: حبّ النساء، وقد فطرت عليه قلوب الرجال، حتى إن أشد الرجال بأساً ليضعف ويذل أمام جمال أضعف النساء؛ ولذا قال النبي ﷺ: «ما تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ على الرِّجَالِ من النِّسَاءِ»[1].

وثانيها: حبّ البنين، وهو فطري لا حرج فيه، لكن الممنوع منه الإفراط في حبهم والحرص عليهم بحيث يؤدي إلى فعل المحرم لأجلهم؛ ولذا قال الله تعالى: ﴿يَـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤].

وثالثها: حبّ المال، وجاء التعبير عنه بالقناطير المقنطرة لبيان محبة الإنسان للكثرة الكاثرة من المال، فلا يشبع منه مهما كثر؛ وقد قال النبي ﷺ: «لو أَنَّ لابن آدَمَ وَادِياً من ذَهَبٍ أَحَبَّ أَنْ يَكُونَ له وَادِيَانِ وَلَنْ يَمْلَأَ فَاهُ إلا التُّرَابُ»[2].

ورابعها: الخيل المسوّمة، وكانت أجود المراكب وأغلاها، والعرب تفاخر بها وتذكرها كثيراً في الشعر، وكانت تتخذها زينة أيضاً؛ كما في قول الله تعالى: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ [النحل: ٨]، ووصفها بالمسوّمة، سواء كان معناه السائمة التي ترعى، فيه دلالة على ثراء أصحابها بكثرة مراعيهم واتساعها، أو كان معناه أنها توسم بوسم يدل على جودتها وأصالتها وسرعتها، وكلا المعنيين دالان على الثراء واتساع المال.

وخامسها: الأنعام، وفيها من المنافع شيء كثير، وتتخذ كذلك زينة ﴿وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ [النحل: ٥ - ٦].

وسادسها: الحرث، وهو الزرع، ويشمل الجنات والحوائط وحقول الزرع، سواء كانت كبيرة أو صغيرة.

وإذا كان تزيين هذه الشهوات مركباً في فطرة بني آدم كما يقتضيه قوله تعالى ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾، فإنه لا أحد من البشر لا يريدها إلا من علة، بل الأصل سعيهم لتحصيلها.. وإذا كان ذلك كذلك، فمن الناس من يسعى إلى تحصيل هذه الشهوات ببيع دينه لأجلها، وذلك باتباع المتشابهات لإرضاء الكبراء، وجعل الشريعة الربانية موافقة لشريعة الكفار، فيرضى الكبراء عنه، ويمنحونه الجاه والمال، وهما جالبان لكل هذه الشهوات؛ إذ جميلات النساء يرضين بذوي الجاه والمال من الرجال، وبماله وجاهه يُدخل أولاده أحسن المجالات التعليمية، ويتمتعون بأفضل رعاية صحية، فلا مشكلة عنده في كثرة الولد؛ لأنه يجد ما ينفعهم به، وكذلك يشتري بماله من المراكب أجملها، ومن الأنعام أنفعها وأكثرها، ويمنح بجاهه أراضي زراعية متسعة، فيقلبها بفضول ماله إلى مروج وفياض.

وبهذا نعلم أن كثيراً مما يقع من أتباع المتشابه هو بسبب الشهوات المزينة في القلوب التي يضعف عن مقاومة إغرائها أكثر الناس فيقعون في المحظور.

وتفريعاً على ذلك: فإنه يجب على الداعية أن يربي نفسه للاستعلاء على الشهوات، ويجاهدها في سبيل إيصالها للقناعة باليسير؛ حفاظاً على دينه من النقص أو الذهاب؛ لأن النفس البشرية قد تضعف أمام الشهوات المزينة، وتبذل الدين في تحصيلها، وتجعل العلم وسيلة لها لا إلى مرضاة الله تعالى.. وآية تزيين الشهوات خُتمت بقول الله تعالى ﴿ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران: ١٤]، أي هذه الشهوات المزينة المغرية ما هي إلا متاع مؤقت لا يستمر؛ لأن وصفه بكونه متاعاً مؤذن بالقلة، وهو ما يُستمتع به مدة. وما عند الله تعالى خير من هذه الشهوات المزينة؛ ولذا أعقب الله تعالى آية تزيين الشهوات بآية ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ١٥]. ولا يَستبدل المتاع الفاني بالباقي إلا أهل الخسران.

وأئمة السلف - رحمهم الله تعالى - صنفوا مصنفات في الزهد ليقمعوا بها شهواتهم ومتطلبات نفوسهم، وليربّوا أتباعهم على ذلك؛ لئلا يخرجهم طلب الشهوات المزينة في نفوسهم إلى طلب المتشابهات لنيل الشهوات. كان محمد بن واسع - رحمه الله تعالى - يبلّ الخبز اليابس بالماء ويأكل ويقول: من قنع بهذا لم يحتج إلى أحد[3].

وقال سفيان الثوري - رحمه الله تعالى -: خير دنياكم ما لم تبتلوا به، وخير ما ابتليتم به ما خرج من أيديكم[4].

(١) أخرجه البخاري: ٤٨٠٨؛ ومسلم: ٢٧٤٠.
(٢) أخرجه البخاري: ٦٠٧٥؛ ومسلم: ١٠٤٨.
(٣) الإحياء: ٣/ ٢٣٩.
(٤) الزهد لابن المبارك: ٥٤١.

أوراد

أهل السنة والجماعة

من القرآن الكريم وصحيح السنة والنبوية

قال شيخ الإسلام: (فالأدعية والأذكار النبوية هي أفضل ما يتحراه المتحري من الذكر والدعاء، وسالكها على سبيل أمان وسلامة، والفوائد والنتائج التي تحصل لا يعبر عنها لسان، ولا يحيط بها إنسان).

في هذا الكتاب..

الثناء • الصلاة على الحبيب • الاستغفار • السؤالات • الاستعاذات
تفريج الكرب والهم • الرقية الشرعية • أذكار الصباح والمساء

للتوزيع الخيري والمبيعات في المملكة العربية السعودية - اليمن - السودان
دار رسالة البيان للنشر والتوزيع - هاتف : ٤٥٤٦٨٦٨ - تحويلة ٥٠٢/٥٠٠ - جوال : ٠٥٠٦٤٦١٠٦٥
المنطقة الغربية : ٠٥٠٦٤٦١٠٥٧ - المنطقة الجنوبية : ٠٥٠٦٤٦١٠٥٨ - القصيم : ٠٥٠٢٢٢٠٦١٦
الشرقية : ٠٥٠٦٢٩٢٦٨٩ - مكة : ٠٥٠٧٢٦٦١٢٠

إشكالية التلازم بين الرضا بالديمقراطية والتعامل معها

أ. د. ناصر بن سليمان العمر(*)
@naseralomar

إن على المسلم أن يزيل المنكر إن قدر عليه لقوله ﷺ: (من رأى منكم منكراً فليغيره)[1]، وقوله تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨ – ٧٩]، والأدلة على هذا المعنى متظاهرة.

وإن لم يستطع إزالة المنكر لكن أمكنه التخفيف منه فذلك واجب عليه، فمن أصول الشريعة تقليل المفاسد إن لم تمكن إزالتها، قال ابن القيم رحمه الله: «إنكار المنكرات أربع درجات؛ الأولى: أن يزول ويخلفه ضده، الثانية: أن يقل وإن لم يزل بجملته، الثالثة: أن يخلفه ما هو مثله، الرابعة: أن يخلفه ما هو شر منه.. فالدرجتان الأوليان مشروعتان، والثالثة موضع اجتهاد، والرابعة محرمة»[2]، ومن أدلته قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، (إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم)[3]، والأدلة على هذا المعنى كثيرة.

لكن من المقرر من حيث الأصل كذلك منع التوسل إلى طاعة الله بمعصيته، ولا يُشكل على هذا أن المحرم تُبيحه الضرورة بقدره كما هو مقرر، فالطاعة المعجوز عنها حكماً لفوت شرطٍ شرعي أو قيام مانعٍ شرعي كالطاعة المعجوز عنها حقيقةً لا يكون إتيانها واجباً ولا مستحباً ليقال تُفعل ضرورة، ولهذا لم يقل فقيه بجواز السرقة لتحصيل نفقة الحج، بل قال القائل – وتجاوز:

إذا حَجَجْتَ بمالٍ أصله سُحت
فما حججت ولكن حَجَّت العير!

وكذلك المرأة لا يجوز لها الحج بغير محرم مع أن الحج ركن الدين، غير أن من شرط وجوبه رفقة المحرم في السَّفر، واختلفوا في سَد الرفقة المأمونة مسدَّه، فإن لم تجد المحرم كانت عاصية بسفرها، مع صحة حجها.

(*) الأمين العام لرابطة علماء المسلمين، والمشرف العام على موقع المسلم.
(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٤٩).
(٢) إعلام الموقعين ٣/ ٤؛ وانظر مجموع فتاوى ابن تيمية: ٢٨/ ١٢٩–١٣١.
(٣) أخرجه البخاري (٧٢٨٨)؛ ومسلم (١٣٣٧)، وهذا لفظ البخاري.

و(الله طيب لا يقبل إلا طيباً)[1]، ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، ليتوسل بمعصيته إلى طاعته، وإنما تجاوز عن المكره بمَنِّه فرفع عنه حكم الذنب وإن تلفظ بالكفر، قال تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل: ١٠٦]، كما تجاوز عن المضطَّر بفضله فرخص له أن يأتي المفسدة ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ﴾ [الأنعام: ١١٩]، ولهذا إن كان لا بد للمرء من إحدى مفسدتين ضرورةً فهنا لقاعدة الضرورات تبيح المحظورات مجال، كأكل الميتة لمنع زهوق النَّفس مثلاً، وكرفع الإثم عمن رمى نفسه في البحر المخوف الهائج وهو لا يأمن السلامة لينجو من الحَرَق المحقق[2]، وكإتلاف الأموال والمتاع بالرمي في البحر للنجاة من الغرق، بل في التنزيل: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ [الصافات: ١٤١].

وبعد هذه المقدمات المهمة

تجيء إشكالية المشاركة في الانتخابات منتخَباً أو منتخِباً بقصد إزالة منكر بتحكيم شرع الله، أو بتخفيف معارضة الشريعة عن طريق اختيار الأمثل، هل هذا من قبيل التوسل إلى الطاعة بالمعصية المحرمة بل بالمشاركة في التشريع والحكم والدخول في عملية كفرية (ديمقراطية)؟ أم هو من قبيل إزالة المنكر أو تخفيفه بفعل لا يشتمل على محذور في ذاته ولا يقتضيه؟

هذا هو موضع الإشكال الذي اضطربت فيه أفهام فئام ممن أرادوا خيراً!

ولمعرفة وجه الصواب في القضية لا بد من استحضار أن التصويت للأقل مفسدة وإن كان كافراً ليس محرماً في ذاته بنص كالزنا! فإن الأفعال التي نص الشارع على تحريمها يجب اجتنابها، فلا يقال هذا الرجل إذا لم أشرب معه الخمر سيشربها مع تلك المرأة ويفجر بها! فهنا لا سبيل للتخفيف للعجز الحكمي بسبب تحريم الفعل المقلل للمفسدة، بل اجتناب المحرم واجبٌ، وكل نفس بما كسبت رهينة، وليس في الصورة المفروضة إكراه يعذر به أو ضرورة تلجئه لأحدهما.

أما إذا أمكن التخفيف بفعل لم يتوجه إليه نهي فيجب التخفيف، فإن أمكن رجل أن ينهى آخر بحضوره مجلس المنكر لإنكار بعض المنكرات دون بعضها وكان إذا غاب وقعت كلها شرع له الحضور لتقليل المخالفة بهذا القيد، وليس حضور المنكر لإنكاره من شهود الزور المنهي عنه.

وكذلك التصويت هو إدلاء بالرأي أصله جائز لقوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨]، ونحوها من الآيات، ولأن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه شاور الناس[3]، وإنما دخل المنكر من جهة تسوية القائمين على الانتخابات في النظم المعاصرة رأيَ أهل الحل والعقد بالعامة، وتسوية الكافر بالمسلم، وهذا يتحمل وزره القائم على الانتخابات، فإن عُلم أن هذا سيعتمد رأي الأكثرية، وعُلم أن الواجب اعتماد رأي أهل النظر، شرع للعامة تكثير رأي هؤلاء بفعل هو في أصله جائز ما لم يفد إقراراً للمنكر.

فإذا كان المشارك يكثِّر رأي أهل الرأي والنظر وينتخب من يشير به أهل العلم وهو يعلن موقفه من الديمقراطية، فلا يقال إن مشاركته محرمة في ذاتها ولا باعتبار ما تفضي إليه في هذه الحالة، بل المحرمة من تفضي مشاركته إلى مخالفة رأي أهل الحل والعقد، بل لو قيل بتحريم مقاطعة من تفضي مقاطعتهم الانتخابات لمخالفة أهل الرأي المعتبر لكان وجيهاً.

وقول بعض الفضلاء: المشاركة في التصويت مشاركة في الديمقراطية الكفرية وذلك رضا بها فلا تجوز بحال، أو بعبارة أخرى: رضا بالتشريع البشري المخالف لشرع الله وحكمه كالتشريع.

شبهة ملخصها أن التصويت محرم للزوم الإقرار أو الرضا له.

وكشفها باختصار في بيان أن المشاركة أنواع، منها ما يكون رضا بالتشريع أيَّاً كان الاختيار وإقراراً له، ومنها ما لا يكون كذلك، فجعل كل تعامل مع منكر رضا أو إقراراً له مجرد دعوى يظهر فسادها إذا اعتبرتها في منكرات أخرى، نظِّرها كما نظرها بعض أهل العلم بالمشاركة في دخول خمَّارة فيجب أن يفرق بين من دخلها لإزالة المنكر الذي بداخلها أو تخفيفه وبين من دخلها ليشرب أو يفجر، والتسوية بين هذين من أبين الظلم، بل لو شارك في منافسة لإدارة المبنى وهو يعلن أنه سيحوله إلى مطعم فعمله مبرور.

أما سكوته أو إحجامه أو مقاطعته لشؤون لا بد فيها من

---

(١) من حديث أبي هريرة عند مسلم (١٠١٥).

(٢) الأكثر على التخيير إن استوى الاحتمالان، فإن رجح أحدهما سُلك، أما إن استويا فأكثرهم على غير المنع، إما على القول بالانتقال لسبب الموت الآخر، أو على القول بالتخيير، أو القول بجواز الانتقال، لكن عند مسيس السبب الأول ليكون في حكم المكره، وبعضهم يوجب الانتقال من سبب الموت إذا حل؛ انظر شرح السير الكبير ١٥١٤/٤، والمغني ٢٥٦/٩، ومفتاح دار السعادة ١٩/٢، والموسوعة الفقهية ١٢٥/٢.

(٣) وأصل الخبر في الصحيح، أخرجه البخاري (٧٢٠٧).

وقوع أحد محظورين ولـــه بدفع أحدهما يد فهو معتبر كفعله، بل الســـكوت للإقرار والرضا أقرب، فإن قلت أنا أعلن رفضي للاثنين مع علمي بأنه مؤثر في نتيجة الانتخاب فكذلك المشارك يعلن مخالفته للاثنين لكنه دفع بالأخف ضرراً استجابة لمقاصد الشـــريعة وعملاً بقاعدتها في المصالح والمفاسد، وكما لم يلزم الرضا المقاطع، فلا يلزم المشارِك المنْكِر الذي يعلن أنه إنما يريد بمشـــاركته تخفيف المنكـــر، وإلا كان كل عمل على تقليل المنكر رضا بالمنكر الأدنى وهذا خلاف الواقع وما يقرره الفقهاء.

وهذا في المشـــاركة بالعملية الديمقراطية يشـــمل المشاركة في الترشح بغرض إقامة الشرع، والمشاركة في ترشيح من يقيم الشرع، والمشاركة في الدفع بالأخف ضرراً مع الجهر بالإنكار على مخالفاته.

– فالـــذي يزعـــم أن المشـــاركة بالترشـــح فـــي العملية الديمقراطية مشـــاركة في التشـــريع أو رضا بمبدأ التشـــريع المخالف لشـــرع الله يغالط واقع المشارك الذي يُعلن أن الغرض من مشـــاركته إقامة شـــرع الله، وهو يعلن أن تلك خطته وذلك برنامجه الذي يحاول فرضه، ولا يرضى بسواه، بل سيعارضه.

وللمخالـــف أن يعكس القضية ويقـــول إحجامك إباحة أو رضـــى أو إقـــرار للاثنين أو من يظفر ولو كنـــت منكراً حقاً لا ادعاء لصَدَّق القولَ عملٌ؛ فإن كان عذرك العجز عن الإزالة كما هو عذر المشارك فليس لك عذر في ترك السعي للتخفيف من المنكر فذلك مقدور لك.

والقصد بيان غلط من عدَّ الداخل مشـــاركاً في المنكر ولو دخل لإنكار التشـــريع المخالف لحكم الله أو تخفيفه، والمغالطة فـــي هذا عند من تصورها أقبح مـــن المغالطة في عدِّ الداخل خمارةً من أجل الإنكار شـــارباً! والداخل لسوق مقراً لكل منكر فيه والمشـــارك في منبر عـــام – كمنابر الإنترنت مثلاً – كذلك والداخل مدينة كذلك والعامل في مؤسسة كذلك وهلم جراً!

– وأما الذي يزعم أن المصـــوت للأخف ضرراً تصويته له رضا بمنكرات برنامجه الذي اختاره، فلا يسلم وهو يعلن الإنكار عليه حيث خالف الشرع! وقريب من هذا اختيارك الصلاة بين اثنين أحدهمـــا أخف بدعة من الآخر فلا يقتضي ذلك رضاك ببدعته! وجهادك خلف الإمـــام الظالم أو الفاجر أو المبتدع لا يلزم منه رضا بما هو عليه من الباطل أو مشاركة له فيه.

نعم ترجيح صاحب برنامج أقل مفســـدة يحتمل اختيارك له لرضـــاك ببرنامجه وهذا منكر ويحتمـــل اختيارك له دفعاً لمفســـدة أعظم، فإن كنت تصرح بهذا وتعلنه وتنكر على المختار مخالفتـــه انتفى احتمال الرضا وإن لـــم يظهر ذلك منك وجب الاستفصال منك للاحتمال، لا الاعتساف بالادعاء على النيات وصرف المحتمل لأســـوأ محامله، ولهذا كانت جل فتاوى أكابر الراسخين من أهل العلم وفقهاء الشريعة مسوغة للمشاركة في العملية الديمقراطية لتخفيف منكرها أو إزالته، ولم يروا أن من لازم ذلك رضا بها.

وقد علم أنه ليس من شرط اختيار المرشح قانونياً أو عرفياً الرضـــا أو الموافقة والإقرار له علـــى كل برنامجه، كما أن حب ظهور أقلهما مفســـدة لا يدل على الرضا بمخالفته للشـــريعة، ولهذا فرح المؤمنون بظهور الروم على الفرس كما في تفســـير: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ الرُّومُ ۝٢ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الروم: ١ – ٥]، مع أن الروم كفار نصارى مثلثة مشـــركون! لكن شركهم وكفرهم أخف من شرك المجوس القائلين بالأصلين.

وكذلك شـــارك يوســـف – عليه الســـلام – فـــي حكومة فرعونيـــة ولم تكن مشـــاركته رضا منه بما عليـــه الدولة التي ينتســـب لحكومتها، ولا يقال هذا شرع من قبلنا، فالكفر المتعلق بمشاركة الله تعالى في حق التشريع لا تختلف فيه الشرائع، فلو كانت المشـــاركة من لازمها الإقرار والرضا لكان ذلك كفراً في شريعته وشـــريعتنا، لأن حق التشريع من أمور العقائد وأصول الإلهية التي لا يدخلها النســـخ، ولهذا قال في الأمم التي قبلنا: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُـــمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِـــيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ [التوبة: ٣١]، وقال: ﴿أَمْ لَهُمْ شُـــرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١].

نعـــم قد نختلف في واقع معين حول جدوى المشـــاركة في تخفيف المنكر أو جدوى المشـــاركة في التمثيل مع ما يكلِّفه إذا كانت ثمة أمور أولى تشاح تلك المشاركة وتلك مسألة اجتهادية. ونختلف خلافاً أكبر مع من تهيأت له وسائل أخرى لإقامة دين الله أو التخفيف من معارضة شرع الله، ثم أبى إلا الديمقراطية! ونختلـــف كذلك خلافاً أعظم مع من يزعـــم أن تخفيف المنكر يُصيِّر المخفف غير منكر فيمنع إنكاره، وخلافاً فوقه مع جاهل لـــم يعرف ديـــن الله الـــذي أنزله على محمـــد ﷺ فيزعم أن الديمقراطية الغربية الليبرالية لا تخالف الدين ما دامت تحترم جميع الأديان وتســـاوي بينها وتعتبر حقوق الأقليات! ولا يجوز بحال أن تســـحب أو تلبس تنازلات هذا وأمثاله على المشـــاركة التي يجوزها كثير من العلماء.

وكل تلـــك وغيرها بحوث غير دعـــوى التلازم بين الرضا والدخول فـــي العملية الديمقراطية لتحكيم الشـــريعة ومنع المنكر أو الاختيار للتخفيف من مخالفة الشـــريعة، هذا والله أعلم وهو المســـؤول أن يرزقنا وإياكم النية الحسنة والبصيرة في الأمور.

مجلة البيان

صدر حديثاً

جديد ..

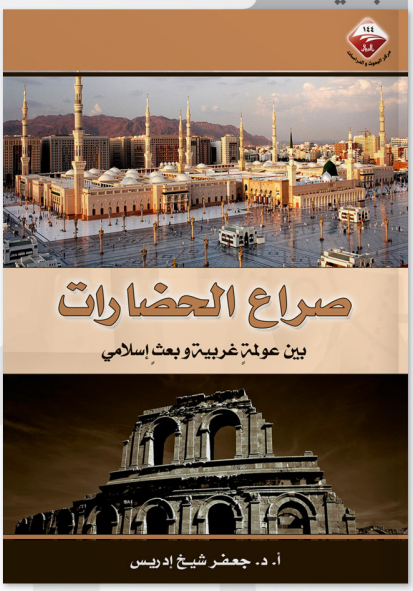

جديد ..

جديد ..

جديد ..

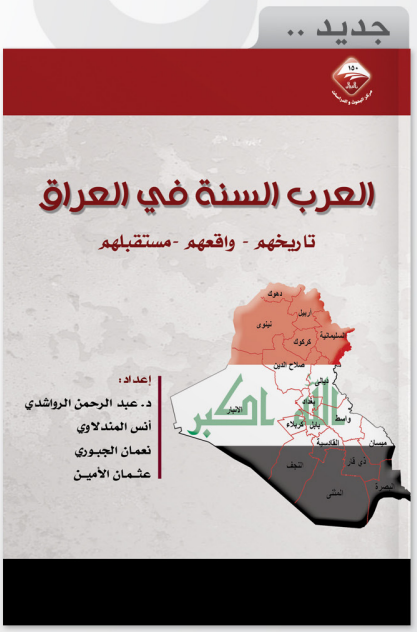

جديد ..

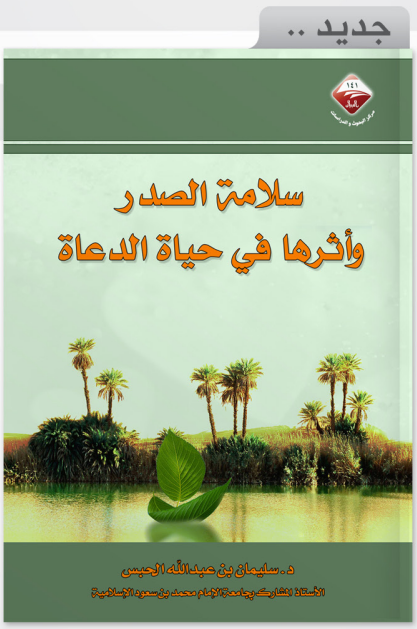

جديد ..

الرياض: ـ هاتف: ٤٥٤٦٨٦٨ تحويلة: ٥٠٠ و ٥٠٢ فاكس: ٤٥٣٢١٢١

التوزيع والمبيعات: ٠٥٠٤٤٧٨٩٣٢ ـ ٠٥٠٣٤٠٩٨١٦ ـ ٠٥٠٣٨٩٦٣٦٥ ـ ٠٥٠٦٤٦١٠٦٥

جدة: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٧ مكة والمدينة: ٠٥٠٧٢٦٦١٢٠ المنطقة الجنوبية: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٨

المنطقة الشرقية: ٠٥٠٦٢٩٢٦٨٩ منطقة القصيم: ٠٥٠٢٢٢٠٦١٦

د. مولاي المصطفى البرجاوي(*)

رغـــم أن لكل مجتمع من المجتمعـــات فكره التربوي الخاص به، وأن ما يصلح لمجتمع لا يصلـــح لآخر، إلا أن المتفحص لمناهجنا التربوية في العالـــم العربي يجدها – في كثير من جوانبها – متأثرة بالفكر الغربي(١)، إن كان على مســـتوى التوجهات التربوية أو على مستوى المواضيـــع والمضامين، ما يطرح أكثر من تســـاؤل: كيف يمكن لأمة أن تتقدم وما زالت عالة على غيرهـــا، حتى في نظمها التربوية؟ أم أن المغلوب مولع بتقليد الغالب على تعبير المؤرخ المغربي الكبير ابن خلدون؟

يمثـــل الفكر التربـــوي الإطار النظري لما يحتاج إليه المجتمع فـــي بناء نظامه وبرامجه التربوية ووضع أسسها وقواعدها، بل أكثر من هذا، وهو أن النمو الحضاري والنمو الفكري يســـيران جنباً إلى جنب، ومـــا الفكر التربوي إلا نتاج حضارة عريضـــة امتدت على مدار أربعة عشـــر قرناً من الزمان، وقد استمد قوته وحيويته من الدين، واستطاع الفكر التربوي الإسلامي أن ينتج الإنسان الصالح القادر على التكيّف مع واقعه(٢).

(*) باحث في ديداكتيك العلوم الاجتماعية والتواصل – كلية علوم التربية – الرباط.

(١) العمايرة، محمد حسن: الفكر التربوي الإسلامي، دار المسيرة، عمان، ٢٠٠٠، ص ١٤٢.. للتوسع في الموضوع الرجوع إلى الدراسة القيمة للدكتور محمود خليل أبو دف، معالم الفكر التربوي عند سيد قطب من خلال تفسيره في ظلال القرآن، الجامعة الإسلامية – غزة، ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٢م.

(٢) الكيلاني، ماجد عرسان: تطور مفهوم النظرية التربوية، دار ابن كثير، دمشق، ١٩٨٥، ص ٢٦٥ – ٢٦٨.

مصطلحات الدراسة:

- معنى التربية لغة واصطلاحاً:

لغةً، جاء في لسان العرب لابن منظور: «ربا يربو بمعنى زاد ونما»، وفي القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥]، أي نمت وازدادت، ورباه بمعنى أنشأه، ونمّى قواه الجسدية والعقلية والخلقية. والتربية بمعناها الواسع تعني كل عملية تساعد على تشكيل عقل الفرد وجسمه وخلقه باستثناء ما قد يتدخل فيه من عمليات تكوينية أو وراثية، وبمعناها الضيق تعني غرس المعلومات والمهارات المعرفية من خلال مؤسسات أنشئت لهذا الغرض كالمدارس، كذلك فإن تعريف التربية يختلف باختلاف وجهات النظر ويتعدَّد حسب الجوانب والمجالات المؤثرة فيها والمتأثرة بها.

واصطلاحاً، التربية عموماً تعدّ عملية شاملة تتناول الإنسان من جميع جوانبه النفسية والعقلية والعاطفية والشخصية والسلوكية وطريقة تفكيره وأسلوبه في الحياة وتعامله مع الآخرين، كذلك تناوله في البيت والمدرسة وفي كل مكان يكون فيه.. وللتربية مفاهيم فردية، واجتماعية، ومثالية[١].

- مفهوم البيداغوجيا:

لقد ورد مصطلح البيداغوجيا في معجم علوم التربية على أنه لفظ عام ينطبق على كل ما له ارتباط بالعلاقة القائمة بين المدرس والتلميذ بغرض تعليم أو تربية الطفل أو الراشد وبالانطلاق من مستويات مختلفة[٢].

- الفكر التربوي.. إشكالية المصطلح:

ونظراً لإشكالية المصطلح من زواياه المختلفة، أحببت – دفعاً لكل لبس – عرض هذا التعريف، فهو عبارة عن جزء من فكر إنساني مبدع يتسم بالديناميكية والتطور المستمر في ميدان التربية ويستند إلى تاريخ المجتمع وفلسفته وثقافته وصفاته وحاجاته[٣].

(١) كمال عبد الله وعبد الله قلي، مدخل إلى علوم التربية، ص: ٤ – ٦.

(٢) عبد اللطيف الفارابي: معجم علوم التربية، مصطلحات البيداغوجيا والبيداكتيك، سلسلة علوم التربية، ٩ – ١٠، دار الخطابي للطباعة والنشر، ط: الأولى ١٩٩٤، ١٥٥.

(٣) مصطفى شريف: «الفكر التربوي الإسلامي»، مجلة المعلم الطالب، دائرة التربية والتعليم، الأونروا، عمان، ١٩٩٠، ص ٢٣٩.

تعريف الكفايات في مجال الثقافة العربية - الإسلامية:

في هذا السياق أقتصر فقط على تعريف العلامة ابن خلدون:

يقول عبد الرحمن بن خلدون: «الحذق في التعليم والتفنّن فيه والاستيلاء عليه إنما هو بحصول مَلَكة في الإحاطة بمبادئه وقواعده والوقوف على مسائله واستنباط فروعه من أصوله، وما لم تحصل هذه الملكة لم يكن الحذق في ذلك الفن المتناول حاصلاً، وهذه الملكة هي في غير الفهم والوعي، ولأنّا نجد فهم المسألة الواحدة من الفن الواحد ووعيها مشتركاً بين من شدا في ذلك الفن.. والملكة إنما هي للعالم أو الشادي في الفنون دون من سواهما».

كفايات المدرس في الفكر التربوي الإسلامي:

كثيراً ما يتم الحديث وفق المقاربات البيداغوجية عما يسمى المثلث الديداكتيكي (المدرس، المتعلم، والكتاب المدرسي)، كمنظومة متكاملة لإنجاح التعليم، فالتلميذ يعدّ قطب ومحور العملية التربوية والتعليمية خاصة، فهو الذي يتلقى المعلومات والمعارف ويتعلمها، أما المدرس – الذي تسعى أطراف متعددة حالياً إلى تشويه سمعته تنكيثاً وإعلامياً – بطبعه قيادة فكرية، فهو بحكم عمله ومهنته وتخصصه واتصالاته وعلاقاته قائد بالطبيعة أو مستعد للقيادة بالطبيعة، لأن رسالته لا تقف عند حد العلم وتعليمه، وإنما هي تتعداهما إلى غيرهما، كالقيادة[٤]. لكن في هذه المنطقة البحثية سأركز على كفايات المدرس في الفكر التربوي الإسلامي.

وحسبنا أن شوقي لم يبالغ كثيراً حينما قال «كاد المعلم أن يكون رسولاً»؛ لإدراكه التام حقيقة الرسالة الإنسانية المقدسة الملقاة على عاتقه والمكانة الاجتماعية التي حظي بها كمصلح ومرشد ومؤتمن على فلذات الأكباد، خاصة أن المرحلة العمرية للمتعلم في طفولته تمثل الأفق الأرحب للتفتح على المستقبل بوعي متقد، يقول ابن خلدون: «إن التعليم في الصغر أشد رسوخاً وهو أصل لما بعده»[٥]. إن نجاح هذه الرسالة مرهون بقدرة المعلم على غرس التربية الأخلاقية والثقافية والعلمية في نفوس الناشئة.. إذن ما الكفايات اللازمة لغرس هذه التربية بشتى ضروبها؟

(٤) عبد الغني عبود: التربية ومشكلات المجتمع، (ط ٢)، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٢، ١٨٩.

(٥) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، ت ٨٠٨ هـ، مقدمة ابن خلدون، مكة المكرمة: دار الباز، ط ٤، ١٣٩٨هـ، ص ٥٣٨.

تنقسم كفايات المدرس – حسبما جاء في التراث الإسلامي – إلى كفايات متعددة، لكن أقف في هذه الورقة عند الكفايات الأخلاقية والعلمية والمهنية.

١ الكفايات الأخلاقية: ومن الكفايات الأخلاقية التي يجب توافرها في المعلّم المسلم:

أ - الإخلاص في العمل: إن إتقان العمل لا يكون إلا بالإخلاص والتقوى.. وشعور المعلم أن ما يقوم به هو رسالة سامية يستحق عليها الأجر والثواب من الله تعالى يدفعه للعمل بفاعلية وكفاءة وإتقان امتثالاً لقوله ﷺ: «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه».

ب - القدوة: يظل هذا العنصر من أهم ركائز التربية في بُعدها الإسلامي، فالمعلم لا بد أن يمثل النموذج المحتذى والمقتدى، خلقاً وعلماً وتعليماً، فالقرآن الكريم حرص شديداً على تبني هذه القيم دون الإخلال بها، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢ – ٣]. ولله در الشاعر إذ يقول:

لا تنهَ عن خلق وتأتي مثله
عارٌ عليك إذا فعلت عظيم

لذلك، فالإسلام يحث على أعظم الوسائل نجاحاً في التربية وأجداها في توصيل المبادئ والقيم؛ وهي القدوة.. وهذا نلمسه في منظومة حياتنا، فلو سألت أحد المتعلمين عمن تريد أن تكونه في المستقبل، لرد عليك إما يريد أن يكون أستاذاً أو طبيباً أو مهندساً، وذلك تبعاً للقدوة طبعاً.

ج - حب المتعلمين وحُسن التعامل معهم: بحكم تعامل المدرس اليومي مع متعلميه كان لزاماً عليه أن يكون قريباً منهم وأن يتفهم عصرهم وعقليتهم كما قال علي بن أبي طالب – رضي الله عنه: «علموا أطفالكم لزمانهم، فإنهم خلقوا لزمان غير زمانكم»، كما أن حبيبنا ﷺ كان القدوة والمثال في التعليم والتعلم وفي التعامل الرائع والرقراق مع الأطفال قبل أن تظهر النظريات الغربية التي تحاول فهم شخصية المتعلم السيكولوجية والنمائية (بياجي...)، فقد روى البخاري عن أبي هريرة أنه قال: «قبَّل رسول الله ﷺ الحسن بن علي وعنده الأقرع بن حابس التميمي جالساً، فقال الأقرع: إن لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحداً، فنظر رسول الله ﷺ وقال: «من لا يَرحم لا يُرحم»، وفي حديث آخر «ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويعرف حق كبيرنا»[١]، فالمدرس يجب أن يكون رحيماً بتلاميذه، فذلك أدعى أن يكون محبوباً ومتفاعلاً معهم، بل يقبلون على تعلم ما يدرّسه لهم.

٢ الكفايات العلمية: ويعني ذلك أن يكون المعلم مثقفاً ثقافة عامة بحكم كونه مربياً.. وثقافة المعلم عامل مؤثر في نضوج شخصيته، واتساع أفقه، وسعة مداركه، حتى ينجح في مهمته التربوية والاجتماعية مع الأبناء والآباء والزملاء، وأهم ثقافة يجب أن يلم بها المعلم إلماماً جيداً هي الثقافة النفسية للأطفال ومن يعلمهم، كذلك العلم بمواهبهم واستعداداتهم وقدراتهم الذهنية، كذلك معرفة قدر من العلوم الإنسانية كالتاريخ والاجتماع والاقتصاد والسياسة والأدب، إضافة إلى إجادة اللغة العربية والتحدث بها للتلاميذ[٢].

كما شددت كتب التراث الإسلامي فيما يخص الكفاءة العلمية؛ على أن يكون المعلم غزير المادة العلمية، يعرف ما يعلمه أتم معرفة وأعمقها، وعلى المعلم ألا ينقطع عن التعليم وأن يداوم على البحث والدراسة وتحصيل المعرفة «دوام الحرص على الازدياد بملازمة الجد والاجتهاد والاشتغال قراءة وإقراء ومطالعة وتعليقاً وحفظاً وتصنيفاً وبحثاً ولا يضيع شيئاً من أوقات عمره في غير ما هو بصدده من العلم إلا بقدر الضرورة».

فالمعلم إذا شاء أن ينجح في تعليمه لا مفر له من أن يقبل على الاستزادة من العلم بمادته وتخصصه، ولتكن همته في طلب العلم عالية، وعليه أن يبادر أوقات عمره إلى التحصيل ولا يغتر بخدع التسويف والتأمل.

٣ الكفاءة المهنية: ويقصد بها مهارات التدريس التي يجب توافرها في المعلم كي يستطيع أن يؤدي عمله على أكمل وجه لتحقيق أهدافه التربوية.. ومن هذه المهارات:

(أ) استثارة الدافعية عند التلاميذ ووجودها عنده،

فالمفكرون التربويون ينصحون المعلم بأن يثير دافعية المتعلم وأن يرغبه في العلم في أكثر الأوقات بذكر ما أعدَّ الله للعلماء من منازل الكرامات وأنهم ورثة الأنبياء وعلى منابر من نور يغبطهم الأنبياء والشهداء.

---

(١) أخرجه أبو داود والترمذي.

(٢) كمال عبد المنعم خلي، صفات المعلم الجيد، العدد: ٥٣٠، مجلة الوعي الإسلامي.

(ب) مراعاة الفروق المهنية، أو ما يسمى حالياً البيداغوجيا الفارقية، فلا ينبغي للمعلم أن يشرك الطالب عالي التحصيل مع متدني التحصيل، وذلك لاختلاف قدرة كل منهما، ففي ذلك عدم إنصاف، ويؤكد الغزالي ذلك بقوله «ضرورة مخاطبتهم على قدر عقولهم».

(ج) طريقة التدريس، حيث أشار المفكرون إلى أهمية طريقة التدريس للمعلم بأن لا ينقلهم من علم إلى علم حتى يحكموه، فإن ازدحام الكلام في القلب مشغلة للفهم طبقاً للقاعدة التي تقول: «الاستيعاب شرط للتجاوز».

ومن طرائق التعليم التي استخدمها المعلمون المسلمون أمثال ابن سينا التعليم التعاوني فيقول «إن الصبي عن الصبي ألقن وهو عنه آخذ وبه آنس».

(د) قوة الشخصية: إن قوة الشخصية عامل مهم جداً في نجاح المعلم في إدارة صفه وحُسن قيادته لتلاميذه، من خلال حديثه ونظراته إليهم، ودون أن يلجأ إلى الصراخ أو رفع الصوت أو حمل العصا والتهديد والوعيد، بل بما يملكه من قدرات قيادية وغزارة علم ومحبةٍ لتلاميذه.

ونعني بقوة الشخصية في التدريس القوة المعنوية التي تمكّن المدرس من أن يمتلك زمام صفه وَتحمل تلاميذه على أن يقبلوا عليه ويمتزجوا به ويستجيبوا له، وطبيعي أن هذه الشخصية لا ترتبط دائماً بضخامة الجسم أو جهامة الوجه أو غلظ الصوت.

إضافة إلى ما سبق، ينبغي للمعلم أن يهتم بالمظهر، وأن يُحسن اختيار ملابسه بحيث تتناسب مع شكل جسمه وهيئته، فلا يلبس الرجل البدين الملابس الضيقة ويلبس النحيف الملابس الفضفاضة الملفتة للنظر.

قال علي بن أبي طالب:

أَجِدِ الثّياب إذا اكتسيت فإنها
زَيّنُ الرجالِ بها تُعَز وَتُكْرَمُ
وَدَعِ التواضُعَ في الثياب تجوّباً
فالله يعلم ما تُجنّ وتَكتُمُ
فرثاث ثوبك لا يزدك زلفة
عند الإله وأنت عبد مجرم
وبهاءُ ثوبك لا يضرك بعد أن
تخشى الإله وتتقي ما يحرم

الكفايات التربوية اللازمة للمدرس وفق التصور الجديد:

وفي ضوء التطورات التي يعرفها حقل التربية والتعليم عامة، والمنهاج الدراسي خاصة، إن كان على مستوى الغايات/المرامي أو الكفايات أو الأهداف والتقويم، أو ما يعرف بالمدخلات والعمليات التعليمية التعلّمية والمخرجات؛ بات من الضروري التفكير في قطب الرحى في المنظومة التربوية – المدرس – الذي من دون دعمه وتكوينه تكويناً يراعي مقومات الجودة، يصبح من العبث الحديث عما يسمى المقاربة بالكفايات!!

إذن، ما المقاربة بالكفايات وفق هذا التوجه التربوي الجديد؟ أو بصيغة أخرى: ما الكفايات المهنية أو التدريسية اللازمة لمدرس هذه المرحلة؟

ترتكز هذه المقاربة على أنشطة التعلم بحيث يتجلى دور المدرس في إرشاد التلميذ وفي إحداث مواقف بيداغوجية تظهر حب الاطلاع والميل للاكتشاف والتفكير وفي ملاحظة كيفية تعلمه[1].

ويعرّف النجادي الكفايات التدريسية بـ: «المعلومات والخبرات والمهارات التي ينبغي أن تتوافر لدى المعلم ليصبح قادراً على معالجة النواحي التربوية والعلمية والتطبيقية والعمل على تحقيق التكامل بين هذه الجوانب للوصول إلى الأهداف التعليمية المرجوة»[2].

ولعل حركة تأهيل المدرسين القائمة على الكفايات يمكن أن تساعد المدرس على أداء الأدوار الجديدة المنوطة به، «إذ تقوم هذه الحركة على توصيف الكفايات باستخدام المنهج التحليلي للأدوار والمهام التي يجب أن يقوم بها المدرس، وتحديد القدرات والمعارف والمعلومات التي يحتاج إليها ليقوم بأداء تلك الأدوار على أكمل وجه»[3].

تتعدد أنواع الكفايات التدريسية بتعدد النظرة إليها (فلسفات التعليم، نظريات التدريس، حاجات المجتمع، الاقتصاد، والقيم...).

---

(١) صلاح الدين لخزامي وصباح سلماوي، هل يمكن للمقاربة بالكفايات أن تنجح في المدرسة المغربية؟ تدريس علوم الحياة والأرض نموذجاً، منشورات مجلة علوم التربية، الطبعة الأولى – المغرب، سنة ٢٠٠٧، ص٩٧.

(٢) النجادي، عبد العزيز راشد، «كفايات التدريس المطلوب توافرها لدى معلمي التربية الفنية بالمرحلة المتوسطة»، المجلة التربوية، جامعة الكويت، العدد التاسع والثلاثون، المجلد العاشر، ١٩٩٦م، ص ١١٥.

(٣) عبد الرحمن الأزرق، علم النفس التربوي للمعلمين، ط ١، مكتبة طرابلس العلمية العالمية، طرابلس، ٢٠٠٠، ص ٢٢٠.

فقد أشـــار Gary Borich[1] إلـــى أنواع من الكفايات اللازمة للمعلم، وهي:

- كفايات ترتبط بالمعارف.
- كفايات ترتبط بالأداء.
- كفايات ترتبط بالنتائج.

كما أشـــار يس قنديل[2] إلـــى أن هناك أربعة مجالات لكفاية المعلم، وجميعها ضرورية؛ كي يمكننا أن نطلـــق عليه صفة المعلم الكـــفء أو الفاعل في تحقيق النتائج التعليمية، وهذه المجالات هي:

- التمكـــن من المعلومـــات النظرية حول التعلم والسلوك الإنساني.
- التمكن من المعلومـــات في مجال التخصص الذي سيقوم بتدريسه.
- امتلاك الاتجاهات التي تســـهم في إســـراع التعلـــم وإقامة العلاقات الإنســـانية في المدرســـة وتحسينها.
- التمكن من المهارات الخاصة بالتدريس، والتي تسهم بشكل أساسي في تعلم التلاميذ.

وعمومـــاً يمكن القول إن هنـــاك عدة أنواع من الكفايات المهنية، منها:

- الكفايـــات المعرفية - الثقافيـــة: وتدل على المعلومات والترســـانة المعرفية والثقافية الضرورية لأداء المدرس في شـــتى مجالات عمله (التعليمي - التعلُّمي).
- الكفايات الوجدانية - المواقفية: وتشـــير إلى ميولات المدرس واتجاهاته وقيمه ومعتقداته، وهذه الكفايات تُغطي جوانـــب متعددة مثل: اتجاهه نحو المهنة (التعليـــم) وحبه لها يجعل عطاءه عطاء متيناً وقوياً.
- الكفايـــات الإنجازية/ المهارية: وتشـــير إلى كفـــاءات الأداء التـــي يُظهرها المـــدرس وتتضمن المهارات الحس-حركية (حُسن التواصل الفاعل مع المتعلمـــين وتمكّنه من توظيف وســـائل وتكنولوجيا التعليم وانفتاحه على محيط المتعلم).

(١) غازي مفلح: الكفايات التعليمية التي يحتاج معلمو المرحلة الابتدائية إلى إعادة التدريب عليها في دورات اللغة العربية التعزيزية، كلية التربية، دمشق، ١٩٩٨م، ص ٦٠.

(٢) يس عبد الرحمن قنديل: التدريس وإعداد المعلم، ط٣، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ٢٠٠٠م، ص ١٠٠ - ١٠١.

الأدوار الجديدة للمدرس:

ومن أجل تطوير عمل المدرس وُضعت مواصفات عالمية من قبل منظمات دولية، لكن سأركز على ما جاءت به المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم من المبادئ والمهارات التي ينبغي أن يمتلكها المدرس والمواصفات التي تمكّنه من أداء أدواره بالشكل المطلوب، من أبرزها:

- الفهم العميق للبنى والأطر المعرفية في الموضوع الذي يدرســـه واســـتخداماتها وطرائق الاستقصاء التي تم بها توليدها أو إنتاجها، والمعايير والقواعد التي تستخدم في الحكم عليها من حيث صحتها، وتاريخها وكيفية تطورها.
- فهم جيد للتلاميذ الذين يدرّســـهم من حيث خصائصهم التي تؤثر في تعلمهم، ويشـــمل هـــذا الفهم معرفة دوافعهم وأســـاليبهم المتصلة بالتعلم.
- القدرة على اســـتخدام التعلم الفاعل والطرائق والأســـاليب المناسبة لتحويل المحتوى الذي يراد تدريسه إلى صيغ وأشكال قابلة للتعلم.
- فهم أســـاليب وطرائـــق التقويم الملائمة لتشـــخيص قدرات المتعلمين واستعداداتهم لتعلم موضوع ما وقياس ما حققوه من تعلم.
- التفاعـــل مع المتعلمـــين وإتاحة الفرصة للمناقشـــة والحوار، وإقامة علاقات عادلة معهم، والتحرر من الصور التقليدية للمعلم.
- الرغبة في التعليم والقدرة على التعلم الذاتي.
- الاتزان الانفعالي.
- القدرة على تبســـيط المعارف واستخدام التقانات الحديثة في البحث والتدريس.
- القدرة على تطوير ذاته وتحســـين الطرائـــق التي يتبعها في التعليم وفي تحفيز المتعلمين على المبادرة والمشاركة باتخاذ القرار.
- القدرة على تحقيق التواصل الفاعل بين المدرســـة والأســـرة والمجتمع المحلي.
- امتلاك مهارات اســـتخدام الحاسوب في الحياة العملية وفي التعليم كوســـيلة تســـاعد على تطوير طرائق التدريس وتجعلها أكثر تشويقاً وفاعلية[3].

ولعلنا مما ســـبق ذكـــره آنفاً لاحظنـــا أن النظريـــات العلمية والإنســـانية الحديثة ظهرت بوادرهـــا عند علمـــاء التربية العرب والمسلمين منذ مئات السنين، حيث ظهرت إسهاماتهم جلية، بل بذلوا عصارة فكرهم في بيان أصول التربية وفلســـفتها وطرائق تدريسها؛ من خلال بيان أهمية مهنة التدريس بعد أن احتُقرت عند المجتمعات، خاصة العربية، فأضحت مادة دسمة للسخرية والاستهزاء.

(٣) المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، (٢٠٠٠).

شهوة الشباب والتناول السلبي

عـــادل مـنـاع

لا شك أن قضية الشهوة تستحوذ على مساحة عظيمة من اهتمامات الشباب في عصر تموج فيه الفتن، وتشرئب فيه عوامل الفساد.

وهذه الأهمية تنعكس - لا ريب - على حقل الدعوة والتربية، إذ إن جهد المربين ينصرف أكثر ما ينصرف إلى الشباب وتربيتهم على الصلاح والعفة والاستقامة، وذلك بعد أن تأصَّلت القناعات التامة بضرورة التربية الشمولية المتكاملة التي تفرضها متطلبات الإصلاح.

إطلالة على واقع المربين:

غير أن كثيراً من المربين قد سلكوا مسلكاً غير مُرضٍ في تناول هذه القضية مع الشباب، ففي الوقت الذي يهمِّش فيه بعضهم هذه القضية ولا يتعرَّض لها إلا بقدر ضئيل من الاهتمام؛ نرى على الجانب الآخر مِن المربين مَن يبالغ فيها ويضخم ويهول من شأنها بصورة تجعل الشاب يعيش تحت تهديد هواجس الشهوة في فزع، حيث إن المربي قد صوَّر له الشهوة على أنها وحش يصعب التصدي له.

وليس هذا فحسب، لكنه يجنح إلى المغالاة في الحديث عن وسائل التعامل مع الشهوة، فصارت المعالجة وكأنها خرجت من رحم المنهج الصوفي في التزكية بفرض رياضات غير مشروعة من أجل التخلية والتصفية.

هذا المسلك التربوي لا شك أنه يضعف الاستعدادات النفسية للتعامل مع قضية الشهوة، حيث يوهن نفس الشاب، ويفقده الثقة بقدراته على التعامل معها، ويعيش خائفاً مترقباً الوقوع في براثن الزلل بين الفينة والأخرى.

أضف إلى ذلك أن وسائل المواجهة التي يراها المربي على هذا النحو تُثقل كاهل الشاب بتكاليف يرى أنها مع صعوبتها غير كفيلة بالتصدي لذلك الوحش الكاسر، ما يعرِّضه للانفلات بعد أن يعلن استسلامه.

نحو منهج راشد:

ربما كان من الأهمية بمكان طرحُ المنهج الأمثل في تناول قضية الشهوة باعتبارها أهم قضايا الشباب التي تحوز اهتماماتهم، ولسنا بحاجة إلى التأكيد على انفراد المنهج الإسلامي بعمق المعالجة لمثل هذه المسائل؛ لاستنادها إلى شريعة محكمة، ووحي لا يتطرق إليه الخلل، وهذا يعلمه الجميع، إلا أن ترجمته إلى إجراءات هو ما يتلبس بالشطط.

ودعونا نقول: إن هناك بعض المحاور التي يدور عليها تناول هذه القضية تمثل المنهج القرآني والنبوي لمواجهة إلحاح الشهوة، لعل من أهمها:

١ بيان حقيقة الشهوة للشباب دون مغالاة:

فالشـــهوة ليست سُبَّة، ولا هي ممَّا يعاب على المرء؛ بل لا بدَّ من تصويرها للشـــاب على حقيقتها بأنهـــا أمر فطري، وهو ما قرره القرآن الكريم: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّـهَوَاتِ مِنَ النِّسَـاءِ﴾ [آل عمران: ١٤]، وفي ذلك يقول رشـــيد رضا - رحمه الله: "فإن الله تعالى ما فطر الناس على شـــيء قبيح، وكيف يكون حبُّ النساء في أصل الفطرة مذموماً وهو وســـيلة إتمام حكمته في بقاء نوع الإنســـان"[١]، فالفطرة والجبلة لا يحكم عليها، بل يحكم على ما تنصرف إليه من حق أو باطل.

ومن المناسب أن يفقه الشـــاب في محضنه التربوي حقيقة أن السيطرة على الشـــهوة وضبطها ليس بالأمر العسير، فكيف يأمر الله تعالى بالعفة وصون النفس عن تفريغ الشهوة في باطل ويكون ذلك عســـيراً؟ فهذا منافٍ لقول الله تعالى: ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وإنما تتمرد الشهوة على صاحبها وتطوِّعه لها حينما يعرض نفســـه لدواعيها، وينأى بنفســـه عن معالم الطريق الذي رسمه الشارع الحكيم للتعامل معها، فهذا ما يجعل الأمر بالنسبة إليه عسيراً.

٢ تغيير الإدراك:

إدراكنا للأمور عبارة عن تصـــورات ذهنية لها، فكما يقول الدكتور إبراهيم الفقي - رحمه الله: (الخريطة ليســـت هي المنطقة)[٢]، والمعنى أن الخريطـــة التـــي نراها لدولة أو مدينة ما ليســـت هي ذاتها الدولة أو المدينة، وإنما هي تصورنا الذهني لها.

كذلك ينبغي أن يفعل المربي مع الشـــاب في أمر الشـــهوة؛ تغيير إدراكه لها، وربما يُفهم المقصود من خلال حديث عائشـــة رضي الله عنها عندما سألها النبي ﷺ عن الشاة التي ذبحوها: "ما بقي منها"، قالت: "ما بقـــي منها إلا كتفها"، فغيَّر النبي ﷺ إدراكها لأمـــر النفقة قائلاً: "بقي كلها غير كتفها"، فما ظنته قد ذهب هو على الحقيقة ما ينفع.

وإذا ســـلطنا الضوء على المعالجة النبوية لقضية الشـــهوة لدى الشـــباب، نرى أمر تغييـــر الإدراك بوضوح في قصة ذلك الشـــاب الذي اســـتأذن رســـول الله ﷺ في الزِّنى، فبينما أقبل الناس على الشـــاب بالزجر، أدناه النبي ﷺ برفق وأجلسه قريباً منـــه، وقال: "أتحبه لأمك؟ قال: لا والله جعلني الله فداك. قال: ولا النـــاس يحبونه لأمهاتهم.. قال أفتحبه لابنتك؟ قال: لا والله يا رســـول الله ﷺ! جعلني الله فداك. قـــال: ولا الناس يحبونه لبناتهـــم.. قال أتحبه لأختك؟ قـــال: لا والله جعلني الله فداك. قال: ولا الناس يحبونه لأخواتهـــم.. قال أتحبه لعمتك؟ قال: لا والله جعلني الله فـــداك. قال: ولا الناس يحبونه لعماتهم.. قال أتحبـــه لخالتك؟ قال: لا والله جعلني الله فداك. قال: ولا الناس يحبونه لخالاتهم.. فوضع يده عليه وقال: اللهم! اغفر ذنبه وطهِّر قلبه وحصِّن فرجه. فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء"[٣].

فبعـــد أن كان الحل في تصورات الشـــاب الذهنية لقضاء الشهوة هو الزِّنى، تغيَّر إدراكه وتبدلت قناعاته، بماذا؟ (لقد غير النبي ﷺ إدراك الشاب بعد أن كان مركزاً على قضاء شهوته. أرشده النبي ﷺ إلـــى أن ينظر للأمر من زاوية أخرى؛ ألا وهي زاوية الأثر الســـلبي والإيذاء الذي يحدثه الزِّنى، سواء كان على المرأة التي يزني بها أو على أهلها، وبالتالي تغير سلوك الشاب)[٤].

ومما يســـيطر على الشاب حال ثوران شـــهوته الرغبةُ في قضاء وطره بأي وسيلة، فإذا اتضحت في تصوراته زوايا الرؤية الأخرى، فلا شـــك أنه ســـيكون عاملاً حيوياً في مواجهة إلحاح الشهوة، فمن ذلك:

- كل أنثى يريد أن يفجر بها هي بمنزلة الأخت أو الأم.
- قضاء الشهوة بالحرام أياً كانت الوسيلة إنما هو لذة وقتية لا تضاهي ما يعقبها من ألم وحســـرة ونـــدم وضيق صدر وهمٍّ يعتمل في النفس.
- الشـــهوة شيء فطري لم يحل الإسلام بين الإنسان وبينها إلا بما يهذبها ويضعها في إطار من الطهر والنقاء والعفاف.
- ليس قضاء الوطر الوســـيلةَ الوحيدة للتخلص من ضغط الشهوة وإلحاحها، وإنما هناك وسائل أكثر نقاءً وطهراً لا يُتحمَّل بها تبعة.

٣ التركيز على تعلية البناء الإيماني:

إن من ينظر إلى المدرسة الصوفية للسلوك والتربية الإيمانية، يدرك بغير جهد أنها تقوم على مبدأ التحلية قبل التخلية، بمعنى أنها ترشد السالك إلى علاج الآفات أولاً حتى تكون نفسه مهيَّأة لتقبُّل الخيرات وزراعة الإيمان.

وهذه الطريقة (فيها من المشـــقة والعنت ما الله به عليم، إذ متى يستقيم للإنســـان العلم بأنه تخلص من جميع آفات نفسه وأمراضها؟! وهذا عدا أنواع الرياضات البدعية المخالفة لســـنة النبي ﷺ)[٥].

(١) تفسير المنار: (٣/٢٤٦).
(٢) البرمجة اللغوية العصبية وفن الاتصال اللامحدود، إبراهيم الفقي، ص (٢٣).
(٣) السلسلة الصحيحة: (٣٧٠).
(٤) قوة المبادرة، د. محمد العطار، ص (٤٤).
(٥) مصابيح لا شموع، فريد مناع، ص (١٦٣).

وأما مدرسة ابن القيم – رحمه الله – فهي الأقرب والأكثر اتباعاً لمنهاج النبوة، وفيها يكون الاهتمام بالتحلية والاهتمام بالبناء الإيماني، مع اللجوء إلى التخلية في أثناء المسير، فينشغل بقطع الآفة إذا عُرضت له مع استمراره في المسير إلى ربه.

يقول ابن القيم: "وسألت يوماً شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – عن هذه المسألة، وقطع الآفات والاشتغال بتنقية الطريق وتنظيفها، فقال لي جملة كلامه: النفس مثل الباطوس، وهو جب القذر، كلما نبشته ظهر وخرج، ولكن إن أمكنك أن تسقف عليه وتعبره وتجوزه فافعل، ولا تشتغل بنبشه، فإنك لن تصل إلى قراره، وكلما نبشت شيئاً ظهر غيره، فقلت: سألت عن هذه المسألة بعض الشيوخ، فقال لي: مثال آفات النفس مثال الحيات والعقارب التي في طريق المسافر، فإن أقبل على تفتيش الطريق عنها والاشتغال بقتلها؛ انقطع ولم يمكنه السفر قط. ولكن لتكن همتك المسير والإعراض عنها، وعدم الالتفات إليها، فإذا عرض لك فيها ما يعوقك عن المسير، فاقتله ثم امض على سيرك)[1].

وهكذا فإن الاستغراق في علاج تصدع العفة لدى الشاب والوقوف عندها دون اهتمام بتعلية البناء الإيماني؛ غير مجدٍ، فضلاً عن كونه ليس سبيل النبي ﷺ في التربية على العفاف، ونستشف ذلك المعنى من حديث عبد الله بن مسعود أن رجلاً أصاب من امرأة يعني ما دون الفاحشة، فلا أدري ما بلغ غير أنه دون الزِّنى، فأتى النبي ﷺ فذكر ذلك له فأنزل الله سبحانه: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤]، فقال: يا رسول الله. ألي هذه؟ قال: لمن أخذ بها[2].

فوجَّه النبي ﷺ الرجل إلى الاهتمام بالجانب الإيماني، وتعلية ذلك الصرح حتى تقتلع الآفات التي تهتف به، فهكذا نور الطاعة يبدد ظلام المعصية، وفي هذا يقول ابن القيم – رحمه الله:

(اعلم أن أشعة لا إله إلا الله تبدد من ضباب الذنوب وغيومها بقدر قوة ذلك الشعاع وضعفه، فلها نور، وتفاوت أهلها في ذلك النور قوةً وضعفاً لا يحصيه إلا الله تعالى، فمن الناس من نور هذه الكلمة في قلبه كالشمس، ومنهم من نورها في قلبه كالكوكب الدري، ومنهم من نورها في قلبه كالمشعل العظيم، وآخر كالسراج المضيء، وآخر كالسراج الضعيف.

ولهذا تظهر الأنوار يوم القيامة بأيمانهم وبين أيديهم على هذا المقدار بحسب ما في قلوبهم من نور هذه الكلمة علماً وعملاً ومعرفة وحالاً، وكلما عظم نور هذه الكلمة واشتدَّ، أحرق من الشبهات والشهوات بحسب قوته وشدته، حتى إنه ربما وصل إلى حال لا يصادف معها شبهة ولا شهوة ولا ذنباً إلا أحرقه)[3].

ومن أجل ذلك كانت وصية النبي ﷺ للشباب: (يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وِجاء)[4].

ومن أجلِّ العبادات التي تُعلي من صرح الإيمان والتي ينبغي الاهتمام بالتوجيه إليها في المحاضن التربوية: الصلوات الخمس وأداؤها في أوقاتها في بيوت الله، والمحافظة على شروطها وأركانها وواجباتها وخشوعها، فإنها أعظم ما يتعبد به المرء.

ثم يكون التوجيه لقيام الليل، فهو زاد المسلم ليومه، ويقرِّبه من الله تعالى، فيعظم واعظ الإيمان في القلب فتكفُّ الجوارح.

على أنه تجدر الإشارة إلى أن التكاليف التعبدية يراعى فيها التدرج والتوسط، فلا ينبغي أن نثقِل المتربي بالتكاليف التعبدية للتخلص من أسر الشهوة وضغطها، فروح العبادة أهم من جسدها، وربما كان القليل المتقن خير من الكثير المستثقل.

٤ غلق الأبواب:

ويقصد به سدُّ كلِّ باب تأتي منه دواعي الإثارة، ونجملها فيما يلي:

– التوجيه إلى غضِّ البصر، وأهميته، وفوائده، ومغبة إطلاقه في الحرام.

– التوجيه إلى دفع الخاطر وسيلةٌ ناجعة تكفي الشاب شرَّ عبث الخواطر بالنفس.

– الإرشاد إلى أهمية الصحبة الصالحة، والتحذير من تبعات مصاحبة أصدقاء السوء.

– التعامل مع الجنس الآخر وَفق الضوابط الشرعية، والتي منها: عدم المصافحة، وعدم الخلوة، وترك الكلام لغير حاجة.

وفي النهاية، ينبغي التأكيد على عدم التضخيم من أمر الشهوة لدى الشباب، والعناية بسبل مواجهتها وَفق الأطر التي وضعها الشارع الحكيم، فهو الأولى والأصوب، وصلى الله وسلم وبارك على محمد وآله وصحبه.

(١) مدارج السالكين لابن القيم، (٢/٣١٣-٣١٤).
(٢) صحيح سنن ابن ماجه، (٤٢٥٤).
(٣) مدارج السالكين، (١/٣٢٩-٣٣٠).
(٤) أخرجه البخاري ومسلم.

حربُ النُّخب

أحمـــــد فـهـمـي
afahmee@hotmail.com
@ahmdfahmee

يعجز البعض عن تخيُّل حقيقة الصراعات التي تدور حالياً في دول الثـورات العربية، إذ غاية ما يصـل إليه كثيرون أن هناك صراعاً بين نظام قـديم وآخر جديد، وأن القديم يقود ثورة مضادة قد تنجح أو تخفق، كلياً أو جزئياً.

لكن هذه الصورة المبسطة لم تعد كافية لتفسير ما يحدث على السـاحة، وبدلاً مـن ذلك يمكن أن نضـع عنواناً بديلاً لتوصيف وتفسير ما يحدث، وهو «حرب النخب».

إنهـا حروب تكوين نخب الحكم الجديدة تدور في كل بلد عربي أسقط شـعبُه نظامَ حكمه الطاغوتي، فقد سقط رأس النظام وفقدت نخبته قدراً كبيراً من سـطوتها وقوتها، وبدأت عجلة التحول السياسـي بالدوران مسـتخدمة آلية الانتخاب كوسيلة جديدة ورئيسة في تكوين نخبة الحكم الجديدة، وهي آلية لـم تعهدها تلك الدول من قبل، فقـد كان اختيار نخبة الحكم يتم عبر آليات مختلفة تماماً.

يقول الأديب والمفكر الفرنسي إيتيان دو لابويسي: «حينما يتحول أحد الحكام إلى طاغية فإن كل ما في الدولة من شـر ومن حثالة يتجمّعون من حوله ويمدونه بالدعم لينالوا نصيبهم من الغنيمة، ولكي يكونوا فـي ظل الطاغية الأكبر عصبة من الطغاة الصغار»[1].

تكوَّنت نخـب الحكم في أغلب الـدول العربية بادئ ذي بَدء من ضباط الجيش العاملين والمتقاعدين، مع مرور الوقت اتسعت النخبة لتضم فئات جديدة، منها:

- مجموعة من المتخصصين ذوي الخبرات – التكنوقراط – الذين تحولوا إلى أدوات لخدمة النظام.
- المنتفعون والمنافقون والمتحولـون الذي يروجون للنظام ويرسخون لدى الشعب صفات التبعية والخنوع.
- رجـال الأعمال الذين تنفتح شـهيتهم لجمع المزيد من الأموال من خلال تقربهم إلى رموز النظام.
- الأقرباء والمعارف.

كان الولاء والخضوع الشرطَ الأول لقبول الأعضاء الجدد فـي النخبة الحاكمة، وعندما يكـون العضو الجديد متصدراً لمنصـب أو مركز مهم في بنية النظام، كان لا بد أن تكون لديه نقطة ضعف يُخضَع للسـيطرة من خلالها، وإذا لم تكن لديه نقطة ضعف يتم توريطه في أي عمل مخالف للقانون، وقد ذكر ذلك صراحة د. مصطفى الفقي، أحد رموز نظام مبارك، في أحد لقاءاته المتلفزة.

(١) كتاب مقالة العبودية الطوعية، ص١٧٩.

ولا يتوقف الانتمـــاء لهذه النخبة على تقلد العضو منصباً رسمياً، فقد يغادر منصبه، لكنه يبقى في إطار النخبة، فقـــد ارتبطت مصالحه بها وبـــات احتياطياً اســـتراتيجياً يمكن إعادة توظيفه مـــرة أخرى، وكذلك صار مقيـــداً تابعاً لنظامها، فصندوق الأســـرار يضم نقاط ضعف وســـقطات وانحرافات مالية وأخلاقية لا تحصى تجعل من يدخل إلى النخبة لا يستطيع الفكاك منها، حتى إن تحول إلى عضو خامل فاقد للتأثير.

وتقدم نظرية النخبة في تحليل السياسات العامة للدولـــة، تصوراً دقيقاً عن آليـــة الحكم في كثير من الدول العربية، وهذه النظرية تنظر إلى السياســـات العامة كخيارات نخبوية، والنخبة هنا هي: مجموعة الأفراد التي تمتلك مصادر وأدوات القوة السياســـية فـــي المجتمع، وتأتي عملية صنع السياســـات العامة كانعـــكاس لقيم واختيـــارات النخبـــة الحاكمة، ولو استخدمنا هذه النظرية في تحليل الواقع المصري في عهد الرئيس المخلوع مبارك، يمكن أن نلاحظ التالي:

١ انقسم المجتمع المصري إلى فئتين؛ فئة قليلة تملك السلطة والقوة، وغالبية شعبية مجردة منهما، والفئة القليلة هي التي تتولى تخصيص الموارد بمعزل تام عن الغالبية.

٢ الفئـــة الحاكمة تمثل الشـــريحة العليا مـــن الطبقة الاقتصادية والاجتماعية، ونفاذ أفراد الغالبية إلى هذه النخبة عملية بطيئة وصعبة للغاية.

٣ لا تعكس سياسات النخبة مطالب الغالبية.

٤ تؤثر النخبة الحاكمة في الغالبية أكثر مما تتأثر بها.

هذه النخب الحاكمـــة في الدول العربية مع رســـوخها في الحكم، نسجت فيما بينها شبكة علاقات معقدة حفزها تشابه النشأة والسياسة وآلية الحكم، وكذلك المصالح المشـــتركة، وأحياناً المتعارضة، ومع تحول أجهـــزة المخابرات في هذه الدول إلى أدوات لخدمة النظام أو النخبة أو الحاكم، فقد تجمعت وتركزت فيها أسرار هائلة تراكمت عبر السنين عن هـــذه العلاقات وطبيعتها وتعقيداتها، وتراكمت لدى تلك الأجهزة قواعد معلوماتية حول فساد النخب الحاكمة في كثير من الدول العربية، وكانت هذه الأسرار تُستخدم لتحقيق التوازن في العلاقات البينية.

وبالتالي فإن اندلاع ثورة شعبية – خاصة في دولة مركزية مثل مصر – يعني أن صندوق الأسرار المخابراتي سيسقط بين يدي النخبة الجديدة القادمة عبر صناديق الانتخاب ولا يعلم أحد كيف يمكن لهذه النخبة أن توظف هذه الأسرار، خاصة أنها تتعلق بأشخاص– حقيقيين واعتباريين – داخل الدولة وخارجها، وكثير منهم لا يزال في دائرة النفوذ والحكم.

إذن، نحن نتحدث عن نقاط ضعف وســـقطات كثيرة يمكن أن يؤدي كشفها إلى اضطرابات سياسية هائلة.

هذه المخاوف تحرك قوى كثيرة – داخلية وخارجية – للتدخل المباشر وغير المباشـــر للتحكم في عملية بناء نخبـــة الحكم الجديدة، ويزيد من صعوبة الأمر أن الحكام الجدد ليس لديهم نقاط ضعف شخصية يمكن الضغط عليهم من خلالها.

القضية إذن لا تتعلق بتغيير أشـــخاص، أو رؤوس، بل بإعادة تشكيل نخبة الحكم وفـــق معايير لم تعتد عليها أنظمة الحكـــم العربية، وهذا ســـيؤدي – بلا شـــك – عاجلاً أو آجلاً إلى إحداث تغييرات هائلة في معادلـــة التوازن الإقليمية، فهذه الثورات وما أعقبها من تشـــكل لأنظمة جديـــدة أحدثت خللاً واضحاً في المعادلة الحالية، ولا يمكن لهذا الخلل أن يســـتمر طويلاً، لذا الصراع الدائر حالياً هو حرب نخبوية تهدف إلى محاولة الإبقاء – قدر الإمكان – على ملامح المعادلة القديمة، من خلال إيقاف التداعيات السياسية للثورات العربية، وتقليص مساحات التغيير أمامها داخلياً وخارجياً.

والله غالب على أمره..

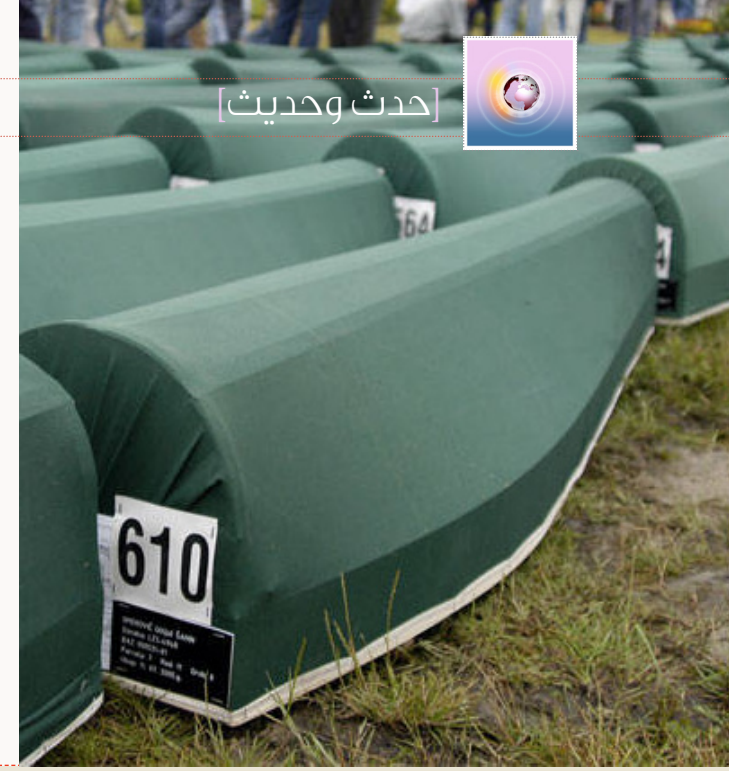

المستضعفون في الأرض

د. يوسف بن صالح الصغير(*)

قبل أيام قليلة أُقيم اجتماع حاشد في سربينستا في البوسنة للتذكير بإبادة أكثر من سبعة آلاف مسلم على يد الصرب أثناء حرب البوسنة وهم تحت حماية قوات الأمم المتحدة. والقصة باختصار أن الصرب حاولوا اقتحام المدينة بقوات متفوقة، لكن المقاومة كانت شديدة، وتدخلت الأمم المتحدة وأرسلت قوات هولندية لوضع المدينة تحت حماية الأمم المتحدة لمنع إبادة السكان، وكان الشرط نزع سلاح المدافعين، وما أن تم تسليم السلاح حتى بدأ هجوم الصرب، وبدلاً من حماية المدنيين العزَّل حرصت الأمم المتحدة على الحياد بدعوى حماية القوات الأممية، وتم تتبع المسلمين في المدينة والأحراش المحيطة بها وقتلهم، وما زالت القبور الجماعية تُكتشف حتى الآن، والذي لا أنساه خبر مقتضب في تلك الفترة عن أن دورية أمريكية قبضت على سبعة مسلمين من أهل سربينستا الذين نجوا من المذبحة في الغابات القريبة وسلمتهم للصرب الذين قتلوهم، وكان العذر خطأ في التقدير، والذي يبدو أقرب للتصديق هو التخلص من الشهود. لقد حوكم رئيس الصرب أمام محكمة لاهاي بسبب المذبحة، لكن لماذا لم يحاكم أحد من مسؤولي الأمم المتحدة أو قائد القوات الهولندية؟ ولماذا لم يرسلوا قوات أخرى لديها دافع للقتال دونهم فهناك قوات أردنية في المناطق الكرواتية؟ الشاهد هنا هو الحذر من تسليم السلاح مقابل وعود ومواثيق لا تسمن ولا تغني من جوع.. إنها رسالة لكل المستضعفين الذين اضطروا لحمل السلاح لحماية أنفسهم وأعراضهم والحصول على حريتهم، سيأتيكم من يعرض الحماية شرط تسليم السلاح، فلا تصدقوه، فلا تصدقوه، فلا تصدقوه.

وللذكرى، فبُعيد حرب غزة الهمجية التي شنتها إسرائيل، كانت التدخلات تتباكى على الضحايا وتَعِدُ بالعمل على تخفيف الحصار، لكنها كانت تحرص على معرفة كيف حصلت المقاومة على السلاح واكتشاف الثغرات التي لم تُسد، ولم يوجّه لوم للقاتل، ولم يُطلب نزع سلاحه، بل طرح وجوب نزع سلاح المقاومة.. وأقرب من ذلك أنه بعد سقوط القذافي كان كلّ الهم تجميع السلاح من المقاتلين حتى قبل أن تستقر الأمور، وبكلمة أخرى: يا أيتها الشعوب المتمردة عودي إلى الحظائر منزوعة الأظافر حتى يُرسل لك سيد جديد من الطبيعي ألا يكون إسلامياً ويفضل أن يكون ليبرالياً. في سورية الآن المهم هو السلاح السوري الذي كان في يد أمينة سيقع بيد مَن؟ وهذا الشعب العظيم الذي انتفض وواجه لأكثر من سنة بالكلمة والشعار ماذا سيفعل إذا امتلك الحرية؟ إنه سؤال مقلق لقاتلي الأنبياء ولاعني الخلفاء سواء بسواء. أما في مصر، فما زال السلاح بأيدٍ أمينة! ولذا فالأكثرية ما زالت مستضعفة حتى مع وجود الرئيس معها، وباختصار أهل السنة أكثريات مستضعفة منتهكة الحقوق، بل يحصل لهم بعض المجازر ومحاولات التهجير من مناطق سكناهم، فقد حصل هذا في إندونيسيا على يد قبائل مختلفة والحكومة تتفرج، ويحصل دائماً في نيجيريا، ومما يخفف الأسى ويبعث الأمل أن الأمة في حالة يقظة ونهوض نتوقع منها أن تغير الأحوال بحيث يكون للشعوب التي كانت مستضعفة القدرة على التأثير في الحكومات بحيث توسع دائرة اهتمامها إلى مصالح الأمة، فحالياً نحن في

(*) أستاذ مشارك في كلية الهندسة – جامعة الملك سعود – الرياض.

مرحلة الغياب أو التغييب للدول الإسلامية عن قضاياها، فهم غائبون عن الفعل المستقل، فالحضور في القضايا الكبيرة مثل فلسطين ودول الربيع العربي هو حتى الآن للأمم المتحدة والناتو والاتحاد الأوروبي وروسيا والصين، أما القضايا الصغيرة مثل هموم ومعاناة الأقليات المسلمة حول العالم فبالكاد تسمع منظمة العفو الدولية أو المؤتمر الإسلامي أو تجمعات للعلماء هنا وهناك تتحدث عنها، إضافة إلى محاولة توصيل القضية للإعلام الذي أصبح قوة ضاغطة كبيرة تؤدي إلى اهتمام عام قد يؤدي إلى مواقف سياسية.

ما يُطلق عليه الأقليات الإسلامية هو نتاج مرحلة تاريخية كانت فيها الأمة غالبة وظاهرة على الأمم، فقد كانت التجمّعات الإسلامية ذات حيوية كبيرة، فقد ذكر الرحالة ابن بطوطة وجود أحياء للمسلمين في المدن الصينية، وهم طبقة التجار وكبار العسكريين والمستشارين، لقد اندثر هذا في الصين مع بقاء بعض الشواهد عليه مثل المساجد القديمة وأقلية الهوي المسلمة، ومثل هذا في دول جنوب آسيا التي تكوَّنت فيها تجمعات إسلامية أصبحت غالبية في كثير من المناطق، لكن تغيَّرت أحوالها مع قدوم الاستعمار الأوروبي الصليبي، فتحولت من أكثرية حاكمة إلى أقلية مضطهدة في الفلبين، وفي تركستان الشرقية التي تحتلها الصين هناك حملة صينية من أجل تحويل المسلمين إلى أقلية عن طريق توطين الصينيين وتهميش المسلمين والقمع الوحشي لأي انتفاضة كما حصل العام الماضي.. إنها دورات اضطهاد متوالية نسمعها في الهند والفلبين وتايلند وإيران من أجل تحجيم المسلمين وتقليل فاعليتهم، وهناك مخططات تصل إلى محاولة التهجير وتفريغ البلد منهم، وهذا حدث أوائل القرن الماضي على نطاق واسع في جزر البحر الأبيض المتوسط واليونان، واذهب إن شئت مثلاً إلى جزيرة كريت حيث تلاحظ الكثير من المساجد القديمة دون مسلمين، حيث تم تهجيرهم بالاتفاق مع حكومة أتاتورك إلى تركيا، إنه اقتلاع حضاري من الجذور تقوم فيه دول غالبة متعصبة بإجبار دولة مهزومة على القبول باستقبال من يتم طردهم ضمن مخطط يطلق عليه حالياً التطهير العرقي، وكان يسمى التهجير القسري، وهو ما تحاوله حالياً دولة ضعيفة محاصرة منذ أن كان اسمها بورما وبعد أن تحول اسمها إلى ماني مار، إنها نفس الفكرة؛ تجمع إسلامي قديم له ظروفه التاريخية أصبح هدفاً لحملة اجتثاث، لكن المشكلة أن الدولة ليست قوية مثل الدول الأوروبية لإجبار دول الجوار على استقبالهم دفعة واحدة، وبالتالي كانت السياسة التضييق المستمر لإجبارهم على الرحيل ومنعهم من الخروج من مناطق سكناهم، وهي كانت سياسة عامة مطبقة في الدول الشيوعية على الجميع لإنجاح مشاريع المجتمع الاشتراكي المزعوم، لكنها استمرت بالنسبة للمسلمين لمنعهم من الانتشار الحر في البلد، وأيضاً يطبق عليهم بصورة انتقائية قانون تحديد النسل بالاقتصار على ولدين وتأخير سن الزواج من أجل تقليل أعدادهم تدريجياً، لكن هذه الأساليب بطيئة في التأثير ويصعب متابعتها في مجتمعات ريفية، فتم إصدار قانون جنسية مفصل لحرمانهم من الجنسية، وبالتالي الحقوق المدنية والتعليم.. نعم صدر القانون عام ١٩٨٢م ويتم بموجبه سحب الجنسية ممن لم يثبت وجود أجداده قبل ١٨٤٢م، وبالتالي يصبح مقيماً بصورة غير مشروعة.

تاريخياً، الروهينجا أو سكان مقاطعة أراكان الحدودية مع بنجلادش من الطبيعي أن يكونوا أقرب ديناً ومظهراً للبنغال المسلمين منهم للبورميين البوذيين، وما أعرفه أن المسلمين كانت أوضاعهم أفضل كثيراً، وأثناء الحرب العالمية الثانية احتل اليابانيون بورما وطردوا الإنجليز منها وخاف الإنجليز سقوط الهند، فحاولوا استمالة المسلمين لقتال اليابانيين وطردهم من بورما، وصدَّق المسلمون وعود الإنجليز وكان لهم دور كبير في طرد اليابانيين وفتح الطريق للصين، وكانت النتيجة الغدر والخيانة وضم أراكان لبورما، ومنذ ذلك التاريخ (١٩٤٨م) بدأت مأساتهم وتعرضوا لدورات متعاقبة من الاضطهاد والتهجير، حيث ينتشرون في الحجاز (البرماوية) وماليزيا وبنجلادش، ومما يؤسَف له أنه نتيجة التعامل معهم كلاجئين ساءت أحوالهم في المهجر وضعف تأثيرهم في الدفاع عن قضيتهم العادلة، ولذا أرى تمكينهم من العيش الكريم وبعث الإحساس بقضيتهم وتشجيعهم على العمل الجاد من أجل حماية البقية الباقية منهم، والذي يمكن حالياً التبنّي الشعبي لقضيتهم والضغط على حكومات ماليزيا وبنجلادش كي تتبنّى القضية سياسياً ولا تنظر إليها كمصدر إزعاج بسبب طوفان اللاجئين الذي لن يتوقف حتى يتم تفريغ المنطقة منهم أو توقَف الحكومة البورمية عند حدها، فمن مصلحة هذه البلدان رفع مستوى تعاملها مع القضية، فهم امتداد لهم، وليعي الحكام أن الشعوب تحب وتتعلق بالحاكم الذي يتبنّى قضاياها ويحدب عليها، وهم الأقدر على رفع الأذى عنهم، بل والعمل على استقلالهم إذا كانت هي الوسيلة الوحيدة للشعور بالأمن، ولا يمكن أن تكون هذه قضية الحكومات ما لم تكن قضية النخب والإعلام وبالتالي الشعوب.

وأخيراً أتساءل: أين ذهبت حركة تحرير أراكان المسلحة، لقد كنت أسمع عنها قبل أكثر من ٣٥ سنة، فهي أحد الحلول.

قصة العلمانية المؤسلمة!

فهد بن صالح العجلان
Fsalehajlan@gmail.com
@alajlan_f

سأستعرض هنا عدداً من الرؤى التجديدية في الفكر السياسي كما يعرضها بعض المعاصرين، وسنفحصها جميعاً من خلال مقارنتها بـ (المضمون العلماني) لنكشف وجه الاختلاف الذي تفترق فيه هذه الرؤى عن المضمون العلماني.

في المقالة السابقة عرضنا لـ (أسلمة العلمانية) وذكرنا أن لها جانبين:

الجانب الأول: علمنة الدين الإسلامي كله وجعله مجرد علاقة روحية بين العبد وربه وليس له أي شأن بالأحكام الدنيوية، وهذه علمانية صلعاء هرب منها كثير من العلمانيين المعاصرين، فلا إمكانية لإعادة أسلمتها من جديد.

الجانب الثاني: العلمانية في جانبها السياسي القائمة على فصل الدين عن النظام السياسي وعدم خضوع الأحكام السياسية الملزمة لأي رؤية دينية، وهذه الرؤية هي ما ذكرنا أنه يمكن أن تؤسلم ويتصالح معها بعض الإسلاميين، ويمكن أن تعبأ في أوعية جديدة كالرؤى التجديدية المعاصرة:

الرؤية الأولى:

أن الإسلام لم يأتِ في الجانب السياسي ونظام الحكم إلا بمبادئ كلية عامة وليس فيه أي تشريعات أو أحكام تفصيلية، فالواجب في الحكم الإسلامي هو الشورى والحرية والعدالة والمساواة ونحوها، وليس ثمَّة أحكام للشريعة في السياسة والحكم سوى هذه المبادئ.

حين نفحص هذا الوعاء نجد أن المبادئ العامة أمور كلية فطرية متفق عليها بين جميع الناس، فلا وجود لمنظومة فكرية ذات بال تقول إنها ترفض الحرية أو العدالة أو المساواة، وإنما الخصومة والنزاع دائماً في التفصيلات والتشريعات الجزئية.

وعندما بحث الأستاذ القانوني د. عبد الحميد متولي الخلاف في مسألة الإسلام دين ودولة وذكر قول علي عبد الرازق في نفي وجود دولة، وقول من يرى وجود دولة بمعنى مبادئ عامة؛ ذكر أنه لا خلاف بينهما على الحقيقة، وأن هذه الرؤية لا تختلف كثيراً عن رؤية علي عبد الرازق، و(لو أن المسألة وضعت هذا الوضع لما كان ثمة موضع للخلاف، لأنه لا يمكن أن يكون ثمة خلاف في أن القرآن جاء بمبادئ الشورى والحرية والمساواة والعدالة وغيرها مما يتعلق بنظام الحكم)[1].

وهذه المبادئ الإسلامية كما يقول أحدهم ساخراً: (ليست هذه القيم سوى المعاني الديمقراطية ذاتها بعد ترجمتها إلى المصطلحات الإسلامية)[2].

(١) مبادئ نظام الحكم في الإسلام للدكتور عبد الحميد متولي، ١٠٥.
(٢) برهان غليون في النظام السياسي في الإسلام، ١٨٤، حوار بين د. برهان غليون ود. محمد سليم العوا، ضمن مطبوعات دار الفكر.

الرؤية الثانية:

أن مهمة الدولة في الإسلام هي حفظ الحقوق ورعاية الحريات وتوفير مناخ آمن للحرية الفكرية والتعددية الثقافية من دون أي تدخل لفرض رؤية معينة، ويساق لذلك عدد من النصوص والأدلة.

معنى هذا أن مهمة الدولة في حفظ الدين هي أن تتيح له حرية الوجود من دون أن يكون أي فرض أو إلزام بشيء منه، ولا تنسَ أن تستحضر أن الحرية هنا ستكون للدين ولما يضاده، فحقيقة هذا الكلام هو إعادة صياغة للفكرة العلمانية بطريقة تكون مقبولة إسلامياً، فالخلاف (الإسلامي/ العلماني) لم يكن عن السماح للدعوة أو منعها، بل حول الإلزام والفرض للأحكام الشرعية.

الرؤية الثالثة:

أنه لا يمكن تصور فصل الدين عن الدولة، لأن الدولة إنما تقوم على الشعب، وهو شعب مسلم، فالإسلام مؤثر في تفكيرهم وسلوكهم بما يظهر أثر ذلك على الدولة.

وهذا تفسير جديد للمفهوم (فصل الدين عن الدولة) الذي كان محور النزاع الإسلامي/ العلماني يراد به زحزحة الخلاف عن مكانه الحقيقي، فلم يكن محل النزاع هو النوازع الذاتية التي تؤثر على تفكير الشخص، إنما كان تحديداً عن أثر الدين على القوانين والنظم من جهة الفرض والإلزام، وهو ما يرفضه مثل هذا التفكير، لكنه أشغل الذهن بتحويله لمسار آخر.

الرؤية الرابعة:

أن الأحكام الشرعية تحتاج إلى شرعية سياسية حتى تكون ملزمة قانوناً، فإذا اختار الناس الحكم بها فتكون لها شرعية لأنها اختيرت من الناس، وإن لم تنل اختيار الأكثرية فلا تحكم.

وهذه الرؤية تسعى للمواءمة بين الإلزام بالشريعة وبين الحداثة السياسية المعاصرة، فتجتهد في تكييف الإلزام الشرعي وإخراجه بشكل مدني بشري قائم على اختيار الناس كأي قانون آخر، فالحكم بالإسلام حينئذٍ لن يكون مبيناً على رؤية دينية ولزوم شرعي، بل لأنه قانون مدني مثل أي قانون آخر جاء بقانون ويمكن أن يذهب بقانون، فله شرعيته واحترامه السياسي ما دام قانوناً، وتذهب هذه الشرعية بذات الطريقة التي جاءت بها، لهذا لا يرفض كثير من العلمانيين تحكيم الشريعة حين يأتي عن طريق اختيار الناس، لأن المشروعية العليا حينها للناس وليس للشريعة.

الرؤية الخامسة:

أن كل جريمة معصية، وليس كل معصية جريمة، فلا يلزم من كون الشيء حراماً أن يكون مجرماً قانوناً، فالمحرم آثم شرعاً ويعاقب عليه في الآخرة، وكذا تارك الواجب، وأما في الدنيا فلا يلزم أن يكون عليه عقاب أو منع.

وحين يكون الأمر مجرد تجريم أخروي فليس لدى العلمانيين أي إشكال مع هذا التفكير، بل هي ذات رؤية علي عبد الرازق، فهو لم يقل إن من حق الشخص أن يفعل المحرمات ويترك الواجبات ولا عقاب عليه في الآخرة! إنما حديثه عن الجانب الدنيوي، فنفي التجريم عن المحرمات الشرعية – إلا عن المحرمات التي تجرم في القانون المعاصر – هو ذات الرؤية العلمانية لكن من مدخل جديد.

الرؤية السادسة:

أن رابطة الدولة في العصر الإسلامي الأول كانت تقوم على الدين نظراً للظرف التاريخي الذي عاصرته، فكان حضور الدين تبعاً لطبيعة الرابطة، بينما الرابطة المعاصرة هي رابطة دنيوية تعاقدية بحتة، وحينها تتوقف كافة الأحكام الشرعية لأنها مرتبطة بظرف معين قد اختلف.

وهذا في الحقيقة هو ذات المضمون العلماني بإعادة صياغة فقط وبالبحث عن سياق إسلامي مناسب يمكن أن تسير عليه العربة العلمانية.

الرؤية السابعة:

أن تصرفات الرسول ﷺ المتعلقة بالإمامة والقضاء كلها قضايا مصلحة دنيوية ليست تشريعاً من السماء، فالشؤون الدستورية والسياسية هي من المصالح المتغيرة، وما جاء فيها من أحكام فهو لأجل الاستفادة منها والبناء على أصولها ومناهجها القائمة على اعتبار المصالح وليس لأجل الالتزام بها.

ومعنى هذا الكلام أنه لا وجود لتشريعات ملزمة في النظام السياسي الإسلامي، وما وجد سابقاً هو مرحلة تاريخية ليس إلا.

هذه ٧ تفسيرات للنظام السياسي صدرت من عدد من المعاصرين لست أريد تقويمها تفصيلاً وبيان ما فيها من قصور، إنما أريد مقارنتها بالنموذج العلماني للنظام السياسي.

السؤال المركزي هنا: في أي شيء تختلف هذه التصورات عن النظام السياسي العلماني؟

سؤال مباشر يحتاج لإجابة واضحة، فإن كان ثمَّة فرق واضح فيجب إظهار هذا (المضمون الإسلامي) المختلف ليكون الناس على بينة.

سأجيب عنه بشكل منفرد، وأرجو من أصحاب هذه التصورات أن يقدموا إجاباتهم.

رأيي بوضوح أن فرق هذه التصورات عن النموذج العلماني فرق ذاتي لا موضوعي، بمعنى أن ثمَّة فروقاً قد تكون ظاهرة لكنها بحسب الاجتهاد الشخصي البحت، فقد يتفق عدد من الأشخاص على إشاعة مثل هذه التصورات، ويكون لدى بعضهم فرق واضح بين رؤيتهم والرؤية العلمانية، بينما لا يستطيع غيرهم أن يوضح ذلك الفرق.

لأن التصور بحد ذاته ليس فيه افتراق ظاهر عن النموذج العلماني، فهذه التصورات السبعة في الحقيقة لا تختلف كثيراً عن التصور السياسي العلماني، وإن جاءت بطريقة مختلفة، وبُحث لها عن مسار إسلامي.

فالنموذج العلماني قائم على إلغاء مبدأ وجود قوانين ملزمة على الجميع استناداً إلى سبب ديني وحكم ديني، وكل التصورات السبعة موصلة لذات النتيجة التي يقوم عليها النموذج العلماني.

لهذا صار من المحرج جداً حضور اسم العلمانية هنا، فالعلمانية مشوهة لأبعد حد، وهذه الرؤى متقاربة جداً مع جانبها السياسي.

لهذا قال بعضهم: يجب إعادة تفسير العلمانية لأنها ظُلمت كثيراً.

وقال آخر: العلمانية فيها جوانب إيجابية، فقد قيدت سلطة رجال الدين ولا إشكال في قبول ما فيها من حق.

وقال ثالث: إن كانت علمانية متطرفة فلا يمكن قبولها، وأما العلمانية المعتدلة فيمكن قبولها والاستفادة منها.

وقال غيره: هناك علمانية تحارب الدين، وعلمانية تتصالح مع الدين.

هذه التقسيمات وغيرها تكشف عن وجود أزمة حقيقية في كيفية التخلص من ورطة اسم العلمانية، فثمَّة شعور بضرورة تحريك العلمانية من مكانها إلى مناطق جديدة حتى يسلم الشخص من تحمُّل تبعة بشاعة اسم العلمانية التي اقترب منها.

وواقع الأمر أن علمانية علي عبد الرازق لم تكن علمانية ملحدة، ولا متطرفة تعادي التدين، بل من يقرأ كتابه (الإسلام وأصول الحكم) سيجد أنه يظهر احترام النصوص ويستدل بالقرآن، فإشكالية الفكر الإسلامي مع العلمانيين لم تكن في الأساس لأنهم لا يؤمنون بالله أو يقتلون من يصلي ونحو هذا، فهؤلاء خلافنا معهم في الإسلام، وأما العلمانية فخلافنا معهم في حكم الإسلام وتفسيرهم للإسلام، فلا معنى لأن يقول بعضهم ثمَّة علمانية ملحدة وغير ملحدة، لأن الخلاف مع الملاحدة في شيء أخطر من الفكرة العلمانية.

يجيب بعضهم عن إشكالية التقارب مع العلمانية فيقول: العلمانية ليست تفسيراً واحداً، فكل نظام له نموذج مختلف، بل حتى الأنظمة العلمانية المتوافقة في الفكر تجد بينها اختلافاً كبيراً.

وهذا جواب يصرف نظر بعض الناس عن الإشكال لكنه لا يقول شيئاً، فمن البديهي أن العلمانيات تختلف، ككل الأفكار والاتجاهات، فلا يوجد في الدنيا اتجاه أو مذهب أو فكر لا يقوم على خلافات ورؤى متباينة، إنما هذه الخلافات ترجع لأصول محددة وتتفق على جذور مشتركة وإلا لما صارت فكرة واحدة ولا كانت منظومة محددة، فحديثنا هنا ليس عن (فروع) تفصيلية في العلمانية، بل عن الأصل العلماني المشترك.

من الملفت للنظر هنا أن مبررات العلمانيين ودوافعهم لرفض الحكم بالإسلام أو التشكيك فيه أصبحت متسربة ومتداولة بين بعض الإسلاميين، فصرتَ تقرأ في أدبيات بعض الإسلاميين مثل هذه العبارات:

(عن أي شريعة تتحدثون؟ لا يمكن فرض رؤية دينية محددة.. نحن لا ننكر أن التحريم والتحليل لله، لكن هذا لا يعني أن يكون حراماً في الدنيا.. هناك فرق بين الشريعة وتطبيق الشريعة، فالشريعة مقدسة، وأما تطبيق الشريعة فاجتهادي.. ونحن نريد تنزيه الدين وجعله مقدساً بعيداً عن ألاعيب السياسة وعبث المستبدين حتى لا يتحمل الدين سوء بعض أتباعه).

ونحو هذه المبررات التي تصاغ بأشكال مختلفة، وهي ذات المبررات والدوافع التي تحرك العلمانيين بالعرب، بل ستصدم حين تجد أن ما يكرره بعض الإسلاميين هنا هو عين ما يقوله العلمانيون!

وحتى تتضح إشكالية هذا النهج الجديد الذي يخطه بعض الإسلاميين، نريد أن نعود بهم قليلاً إلى حيث لحظة (علي عبد الرازق) لنضع أيدينا على مشهد الصراع الإسلامي العلماني على أي شيء كان.. فهل كان (علي عبد الرازق) يريد هدم الإسلام وتدمير المسلمين والانتقام منهم؟ بالتأكيد لا، وإنما كان يقدم تصورات منحرفة في النظام السياسي.

لهذا تجد بعضهم يثني عليه: بأنه إنما أراد استنقاذ الوعي الإصلاحي والمدني بالدولة والشأن العام، وما نجح في ذلك ليس لأن طريقته ما كانت مقنعة، بل بسبب تكالب المستعمرين على ديار المسلمين وتظاهرهم بمعارضة إعادة الخلافة[1].

ويشيد به آخر: بأنه حريص أشد الحرص على أن يجنب الإسلام مزالق السياسة وأن يباعد بينه وبين معارك الحياة وأهواء الحاكمين، بحيث لا يخضع لسلطان أحد ولا يضاف إلى حساب أحد، يخشى أن يتولد نظام من الإسلام فيتحمل الإسلام أوزار هذا النظام[2].

ويقول آخر منافحاً عنه: (جريمة علي عبد الرازق أنه طلب الحرية للدين في مواجهة الملك)[3].

الغاية من هذا كله، أن الرؤية العلمانية لا يجوز – موضوعياً – أن تنقلب رؤية إسلامية بمجرد أن تحوَّل إليها بعض الإسلاميين!

(١) مقدمة د. رضوان السيد لكتاب الإسلام وأصول الحكم، ٢١.
(٢) انظر: الخلافة والإمامة للدكتور عبد الكريم الخطيب، ٢١٨-٢٢٢.
(٣) أفكار ضد الرصاص، محمود عوض، ٨.

[المسلمون.. والعالم]

استشراف آفاق الصراع في سورية
د. سامي الدلال

الثورة السورية.. ربع الساعة الأخير
هيثم محمد الكناني

رئيس بنصف سلطة!
حسن الرشيدي

«ليالي تُركستان» والمسلمون المنسيون!!
صلاح محمد أبو زيد

مرصد الأحداث
جلال سعد الشايب

استشراف آفاق الصراع في سورية(*)

د. سامي الدلال

المنظور والإطار: المستشرف الناجح يعالج الواقع ومستقبله من منظور العقل والنقل في إطار الكتاب والسنة، والمستشرف الفاشل يعالج الواقع ومستقبله من منظور الهوى والأماني في إطار رغبات البشر ومبادئهم الأرضية.

احتمالات نتائج الصراع:

الأول: أن ينتصر النظام الحاكم ويُخمد حركة المعارضة.

الثاني: أن تنتصر المعارضة ويسقط النظام الحاكم.

الثالث: أن يستمر الصراع لفترة طويلة.

عوامل القوة لدى المتصارعين:

أولاً: النظام الحاكم: عوامل القوة لدى النظام الحاكم: الداخلية:

١ – القوة الأمنية، وتضم الجيش والمخابرات والشبيحة وقوة أمنية داعمة كالشرطة والميليشيات العلوية.

٢ – القوى الحزبية، وتضم المنتسبين لحزب البعث.

٣ – دعم أبناء الطائفة النصيرية (العلوية) للنظام.

٤ – سيطرته على الإعلام المسموع والمرئي.

(*) لقراءة البحث كاملاً يراجع قسم البحوث في موقع مجلة البيان:
http://albayan.co.uk/article2.aspx?ID=2181

الخارجية:

١ – الدعم السياسي المعلن والمفتوح من كل من روسيا والصين ومن في فلكهما.

٢ – الدعم السياسي المبطن من قبل كل من الولايات المتحدة وحلف الناتو ودولة الكيان اليهودي الحريصة جداً على بقاء واستمرار النظام وعدم استبداله إلا إذا كان البديل أنفع لها كتقسيم سورية إلى دويلات طائفية.

٣ – الدعم السياسي من قبل جامعة الدول العربية.

٤ – الدعم المادي والعسكري من قبل إيران (عتاداً ورجالاً وأموالاً) ومن قبل روسيا والصين، والدعم الذي يقدمه حزب الله اللبناني، وخاصة بالرجال.

٥ – وقوف جميع شيعة العالم مع النظام الحاكم ودعمه مادياً ومعنوياً وسياسياً.

عوامل الضعف في النظام الحاكم:

يمكن إجمالها بما يلي:

١ – عدم سيطرته الكاملة على قواه الأمنية، حيث لا يزال المنشقون عنها يكثرون يومياً.

٢ – التململ في البنية التحتية للنظام، حيث إن أكثرها يريد الانفكاك عن الحزب لكنه يخشى البطش الأمني.

٣ – بدء الانشقاقات الداخلية في الطائفة النصيرية، وقد أصبح واضحاً ازدياد عزلة عائلة الأسد في الطائفة.

٤ – بدء انفكاك كثير من المستفيدين من النظام الحاكم عنه حفاظاً على مستقبلهم بعد سقوطه.

٥ – انكماش الموارد الاقتصادية الداخلية.

٦ – العبء الثقيل إنسانياً واقتصادياً، معنوياً ومادياً، الذي ألقته على كاهله ما اقترفته يداه من البطش والتنكيل والمجازر الجماعية.

٧ – إبقاء الجيش السوري بأكمله تحت الاستنفار لفترة طويلة فاقت العام، ما أدى ويؤدي إلى إنهاكه واستنزاف روحه المعنوية واستهلاك سلاحه بأنواعه.

ثانياً: المعارضة: عوامل قوة المعارضة:

عوامل داخلية:

١ – الشمولية الجماهيرية، حيث اجتاحت الثورة المدن السورية الكبرى وأريافها وقراها.

٢ – انبعاث المعاني الإيمانية في عموم الحراك الشعبي الثائر، ما أثرى مفاهيم التوكل على الله وانتظار النصر من عنده وعزز معانيَ الصبر والاحتساب وأفاض روح البذل والعطاء والتكافل والتعاون والإنفاق في سبيل الله وكرس اللحمة المعنوية.

٣ – تهديم أسوار التعصب على مستوى القبائل والعوائل والمدن والانتماءات.

٤ – انهيار جدار الخوف من السلطة والوقوف بوجهها.

٥ – الانشقاقات في الجيش والحزب، والتي ترتب عليها إنشاء الجيش السوري الحر.

٦ – اتساع رقعة المعارضة المدنية التي قررت حمل السلاح فحملته.

عوامل خارجية:

١ – التعاطف الجماهيري الإسلامي.

٢ – الدعم العربي والدولي السياسي الظاهري المؤيد للمعارضة.

٣ – الحشد الجماهيري الإسلامي الشعبي لجمع التبرعات المالية والإنسانية لصالح الشعب السوري.

٤ – ما تقوم به بعض القنوات الفضائية من تغطية إعلامية يومية وعلى مدار الساعة.

٥ – انفضاح الدور الباطني الصفوي أمام العالم الإسلامي والمتمثل في وقوفهم صفاً واحداً مع النظام السوري الصفوي ضد أهل السنة.

عوامل الضعف في المعارضة:

١ – عدم اتحاد الدافع لمعارضة النظام، فالدوافع منوعة، منها عقدي، ومنها مادي، ومنها أمني، ومنها انتقامي وثأري، ومنها شخصي.

٢ – عدم وجود قيادة موحدة للمعارضة في الداخل رغم أن الجهود لإيجادها مستمرة.

٣ – عدم وجود مجلس قيادة في الخارج يعبّر حقيقةً عن ثوار الداخل، إذ إن المجلس الوطني الحالي في وادٍ والثوار في وادٍ آخر، وهو يقتات على أخبارهم.

٤ – ضعف الإمداد المادي للثوار وعدم وجود دعم حقيقي للجيش السوري الحر سواء بالسلاح أو المال.

٥ – وجود المنافقين (العواينية) بشكل كبير في صفوف الثوار المعارضين.

٦ – عجز الثوار عن تأمين السلامة للنساء والأطفال والشيوخ في حالة القصف التي تقوم بها قوات النظام.

٧ – عجز الثوار عن تأمين المتطلبات العلاجية والإسعافية للجرحى.

تحليل مكونات الصراع:

أولاً: صراع الإرادات:

تريد سلطة النظام الحاكم:

١ – إخماد الثورة الشعبية والعسكرية، وهذا غير مقدور عليه الآن بحسب المعطيات التي على الأرض.

٢ – جرَّ المعارضة لوضع سياسي جديد لا يكون حزب البعث فيه المسيطر، لكن المعارضة لم تقع في هذا الفخ باعتبار أن هذه التعديلات ما هي إلا تمويهات.

٣ – استعمال أقصى درجات القوة والتصدي باستخدام جميع مكونات آلته الحربية لإخضاع الثورة ولوضع اللبنة الأولى في نواة دولة علوية مستقلة تنفصل عن سورية الحالية. ولا توجد مؤشرات ميدانية تشير إلى احتمال نجاحه في المستقبل.

٤ – يريد النظام الحاكم تطويل أمد الصراع إلى الوقت الذي يشعر فيه أن الكفة قد مالت لصالحه بشدة فيفرض شروطه على الثورة ويجبرها على الخضوع لإملاءاته. هذه الإرادة لها وجهان، إيجابي لصالح النظام، وسلبي ضده، وأرى أن السلبي أقوى بحسب ما هو حاصل على أرض الواقع.

٥ – يريد النظام الحاكم أن يوظف المجتمع الدولي لصالحه وأن يقف في صفه.. إن الولايات المتحدة وأوروبا والكيان اليهودي لهم مصالح مهمة في الشرق الأوسط، وهم يرون أن احتمال سيطرة الإسلاميين على الحكم في سورية واردة بعد سقوط النظام، وهم يخشون من ذلك أشد خشية، فإذا كانت الثورة تمتلك إمكانية الاستمرار وإسقاط النظام، فإن الوضع الأمثل لهم (أي للغرب) هو التقسيم؛ بمعنى أن إسقاط النظام خط أحمر. للوصول إلى هذه الغاية سيتم ترتيب قيام حرب في منطقة الشرق الأوسط يكون أحد أهدافها تقسيم سورية من خلال قيام الكيان اليهودي أو أمريكا باحتلال منطقة حوران والوصول إلى قلب دمشق عبر استغلال حالة التفكك الحالية في جيش النظام. وبالتعاون مع النظام الحاكم، وتحت حجة الأمر الواقع وحقوق الأقليات، ستُقسَّم سورية إلى دويلات أو كيانات ذات طابع استقلال ذاتي أو كامل، وقد لا يتجاوز ذلك الأشهر القليلة القادمة، وبالتالي فإن الإرادة العلوية الحاكمة لسورية ستكون سعيدة جداً إذا تحقق لها ما ذكرته في البند السابق، وهو ممكن بحسب الظروف الدولية المهيأة الآن إذا سلم من المعارضة الشعبية والرفض المطلق له من قبل تركيا.

ماذا تريد المعارضة؟

١ – تريد إيجاد دوافع نفسية وإيمانية تمكن الجماهير من الصمود في حال استمرار الصراع. قوة تأثير تلك الدوافع غير مضمونة بالقدر الكافي إذا طال الصراع إلى أمد غير محدود، لأنه يرتبط بعدد من العوامل المنوعة التي هي خارج هذه الدراسة.

٢ – تريد المعارضة إسقاط النظام بكافة رموزه ومؤسساته العسكرية والأمنية والمدنية والحزبية. إن هذه الإرادة مشروعة ابتداء لأن النظام الحاكم في سورية نظام أقلية طائفي باطني مارس جميع أنواع الظلم على شعبه ووضع المخططات الإعلامية وأوجد المناهج التعليمية التي أراد بها إخراج هذا الشعب المسلم عن دينه وتحويله إلى شعب عَلماني ليبرالي. إن منبع هذه الإرادة له جذور تاريخية تمتد في أول شوطها إلى عمق زمني قدره نحو ١٥ قرناً، أي (بدء البعثة النبوية)، ثم يوالي أشواطه في أعماق زمنية سحيقة تمتد إلى نوح عليه السلام ثم آدم أبي البشر. إن هذه الإرادة لا يمكن للنظام القائم اقتلاعها بحال من الأحوال، لذلك فهي قائمة ومستمرة سواء صمد النظام الحاكم أو سقط.

٣ – تريد المعارضة أن تقف الدول العربية والإسلامية معها، شعوباً وحكومات. إن تنفيذ هذه الإرادة يرتبط بعوامل ومقتضيات وأسباب لا تملك المعارضة السيطرة عليها.

٤ – تريد المعارضة أن تتدخل الدول الأجنبية في الصراع عسكرياً وفق أربع خطوات:

الأولى: تأمين ممرات آمنة.

الثانية: تأمين ملاجئ آمنة على الأرض السورية.

الثالثة: تأمين حظر جوي يمنع مقاتلات وحوامات النظام من قصف الجماهير.

الرابعة: المساهمة عسكرياً في ضرب قطاعات جيش النظام التي تقوم بقصف الجماهير، وذلك على غرار السيناريو الليبي.

هذه الأمور كإرادة ليس مجمعاً عليها من قبل المعارضة، لكن في حال حدوث ذلك فإن عيون الدول الأجنبية المتدخلة عسكرياً ستكون مفتحة في اتجاه التقسيم أو تسليم السلطة للعَلمانيين أو للإسلاميين الذين لا يبتعدون كثيراً عن مسارات العَلمنة، وسيفرضون شروطهم التي هي في الواقع ستكون لصالح استتباب الأمن للكيان اليهودي.

٥ – تأمل المعارضة الشعبية، وأقصد هنا الجماهير الثائرة، أن يأتيها المدد الرباني وأن يتنزل عليها النصر الإلهي، وهذا معنى

مـــا يقوله الثائرون: (ما لنا غيـــرك يا الله) و(لبيك يا الله). إن انفتاح الباب القدري بالنصر يمر في مراحل جمعهـــا قوله تعالى ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ﴾ (أي الفقر) ﴿وَالضَّرَّاءُ﴾ (أي السقم والألم) ﴿وَزُلْزِلُوا﴾ (أي نزلت بهم البلايا نزولاً شديداً وعنيفاً) ﴿حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤]. إن المرحلة الآن هي مرحلة الزلزال الشديد مع استمرارية وجود البأساء والضراء.

٦ – لقد جرت السنن الربانية في نصره لعباده أنهم إذا استنفذوا الأسباب المادية والمعنوية الإيجابية وأخلصوا الدعاء له والاستنجاد به واستغاثته وحده وانقطعت أمالهم عن أسبابهم وتعلقت بما عند الله، فعندها يأتيهم الفرج والنصر بمسارات قدرية تكون في أغلب الأحيان منفكة ومستقلة عن أسبابهم، كما فلق الله البحر لموسى فانتصر بنو إسرائيل على فرعون، وكما بعث الله الريح والملائكة لتهزم المشركين في غزوة الأحزاب، قال تعالى ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦]، وقال تعالى: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧]، ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٩]. وغالباً ما يأتي النصر من حيث لا يحتسب المنتظرون له. إن تطويل فترة انتظار مجيء النصر فيها حِكَم ربانية كثيرة.

لا يأتي النصر المعني إلا إذا كان الثوار يريدون تحكيم الإسلام بعد إسقاط النظام الحاكم، وأن تكون الشريعة الإسلامية هي مصدرهم الوحيد والفريد في جميع التشريعات بلا استثناء. إن من المؤسف أننا لم نرَ ذلك جلياً في شعارات الثوار. ينبغي أن يتطور شعار إسقاط النظام فحسب إلى شعار (نريد إسقاط النظام ونريد تحكيم الإسلام).

الخلاصة في صراع الإرادات: إن حرب الإرادات بين الطرفين: النظام الحاكم والمعارضة ممثلة في الثوار، سجال، غير أن الإرادة المنبعثة من الإيمان بنصر الله يملكها الثائرون ولا يملكها النظام، وهذه الإرادة الإيمانية مع ما يصاحبها من إصرار على تحكيم الشريعة الإسلامية هي التي ستطيح به إن شاء الله تعالى.

ثانياً: صراع الإمكانات:

إمكانات النظام الحاكم:

يمتلك النظام إمكانات دولة تساندها دول، أهمها:

- طائفة عددها نحو ١٠٪ مستعدة للدفاع عن الحكم الذي تسيطر عليه.
- جيش جرار صنعه على عينه.
- إمدادات حربية مكونة من الرجال والعتاد موضوعة تحت تصرفه من قبل إيران وروسيا.
- موارد مالية، حيث إن جميع المدخولات الاقتصادية تحت تصرفه.
- جميع مكونات البنية التحتية بما فيها المستشفيات ومحطات توليد الكهرباء والمياه والوقود.
- قوة داعمة على المستوى العسكري كحزب الله اللبناني.
- يمتلك أيضاً جهازاً أمنياً قمعياً فريداً تتشعب شرايينه لتغطي جميع سورية.

ولا يزال النظام الحاكم يستخدم تلك الإمكانات التي ذكرتها ليمد مساحة المجازر ولنشر الدمار وليتحقق شعار (يا سفاح يا بشار يا بعثي يا جزار).

إمكانات المعارضة (الثوار):

تنقسم إمكانات المعارضة إلى قسمين:

الأول: عسكري، وهو الجيش السوري الحر، ويفتقر إلى السلاح والذخيرة، وإمكاناته المادية ضعيفة للغاية ولا تقوى على مجابهة الآلة العسكرية للنظام. الخلاصة في خانة صراع الإمكانات العسكرية: إن الوضع العسكري الآن هو لصالح النظام، وأما في إطار المستقبل فإننا نسأل الله تعالى أن تحدث انشقاقات جماعية في جيش النظام على مستوى الفرق وهذا وحده هو الذي سيدعم ويثقل كفة الجيش السوري الحر.

الثاني: مدني، وهو الجماهير الثائرة. لقد قدمت هذه الجماهير أعداداً هائلة من القتلى (نحسبهم إن شاء الله أو أكثرهم شهداء عند الله)، وهي لا تزال مستعدة لتقديم المزيد. وبعد مرور نحو سنة ونيف على بدء الثورة، فإن الوقت قد حان الآن لتكون الإمكانات الجماهيرية هي المقابلة للإمكانات العسكرية للنظام الحاكم.

الخلاصة في صراع الإمكانات المادية والعسكرية:

إن الإمكانات المادية والعسكرية والحزبية هي في صالح النظام الحاكم بما يفوق مئات المرات ما لدى المعارضة (الثوار)، لكن يستطيع الثوار موازنة ذلك والتغلب عليه بالثقة بوعد الله الصادق وعملياً بالزحف الجماهيري الهادر على مؤسسات النظام وأركانه ودعائمه. إن الإمكانات المادية والعسكرية لدى النظام الحاكم هي الآن بين يديه يوظفها كيفما يشاء، أما الإمكانات المادية الحاسمة للصراع لدى الثوار فهي مأمولة وليست جميعها بين أيديهم حالياً.

ثالثاً: صراع الحوافز لتحقيق الأهداف:

أهم الحوافز لدى النظام الحاكم:

١ – شعور النظام أن ظهره يستند إلى الطائفة العلوية المسيطرة على الجيش ومفاصل الدولة الأمنية والمدنية بما فيها الحزب.

٢ – الدعم المادي القوي والفاعل الذي يحصل عليه من إيران ثم روسيا والصين.

٣ – الدعم الخفي الذي يحصل عليه النظام من الكيان اليهودي وأوروبا وأمريكا.

٤ – توظيف شرائح من أهل السنة لتكون في صفه، وذلك من خلال تأثيره الإعلامي.

أهم الحوافز لدى المعارضة (الثوار):

١ – الثقة بنصر الله تعالى وازدياد التعلق بحبائل الإيمان.

٢ – الانتقام للقتلى (نحسبهم شهداء والله حسيبهم) والأرامل والأيتام والمشردين والشيوخ والأقرباء والأصدقاء.

٣ – لم يبقَ لدى الثوار ما يخسرونه فقد خسروا إلى الآن كل شيء.

٤ – ترنح النظام الحاكم وبدء تفكك مفاصله، والانشقاقات في صفوفه عسكرياً ومدنياً وحزبياً.

٥ – تواصل ازدياد الكتائب المسلحة في الجيش السوري الحر ووصول بعض الدعم المادي والعتادي له.

٦ – اتساع الرقعة الجماهيرية المشاركة في الثورة.

٧ – الإصرار على إسقاط النظام الحاكم الكافر وإقامة النظام الإسلامي العادل.

الخلاصة في صراع الحوافز:

كلا الطرفين لديه حوافزه الفاعلة، لكن إذا استثنينا حافز الثقة بالله لدى الثوار، فإن باقي الحوافز لدى النظام الحاكم أكثر فاعلية، غير أن الثقة بالله تعالى وبنصره هي المرجحة في نهاية المطاف.

النتيجة:

بناءً على ما سبق بيانه من مكامن القوة والضعف، وكذا ما ذكرناه في صراع الإرادات والإمكانات والحوافز للوصول للأهداف لكلا الطرفين، فإن الاحتمال الثالث يتبوأ مكانة بارزة في ساحة الواقع ما لم تحصل أحداث في إطار المسار القدري الخارج عن الأسباب المُعدَّة من أيٍّ من الطرفين.

الاحتمال الثالث: استمرار الصراع لفترة طويلة:

إذا وصل الطرفان: النظام الحاكم والمعارضة، إلى قناعة بعدم إمكانية الحسم لأيٍّ منهما، ستتم مفاوضات في ظل استعراض كل فريق لقوته على الأرض، وبما أن السلطة الحالية لها اليد الطولى فستكون هي الأقوى في المفاوضات، وستكون الثورة بعيدة عن تحقيق أهدافها إلا ربما إذا كان ذلك على المدى البعيد.. فإذا كان الأمر كذلك فهذا يعني أن على الثوار إعادة النظر في الاستراتيجية الحالية بشكل جذري ليتمكنوا من تحقيق الاحتمال الثاني، وهو الانتصار على النظام الحاكم، وينأوا بأنفسهم عن الاحتمال الثالث لأنه سيضيع جميع المكاسب التي تحققت إلى الآن أو يؤخر استثمارها.

شمس البشائر السننية

رغم كل ما جاء في هذه الدراسة من معوقات أمام احتمال انتصار الثورة السورية، إلا أنها ستنتصر بإذن الله تعالى، وذلك للأسباب السننية التالية:

١ - ادّعاء منازعة الله تعالى في وحدانيته، وقد انفرد طاغوت الشام بذلك من بين جميع الطواغيت المعاصرين. وقد جرت سنة الله تعالى أن من ادّعى هذا الادعاء فإن الله تعالى يقصمه ويأخذه أخذ عزيز مقتدر ويجعله عبرة للمعتبرين وموعظة للمتعظين. وليس طاغوت الشام بأشد بأساً ولا أعظم جنداً من فرعون فتناولته سنة الله في المتألهين والمتكبرين والمتجبرين، قال تعالى: ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾ [النازعات: ٢٥].

٢ - الظلم: لم يستبق طاغوت الشام وزبانيته نوعاً من أنواع الظلم في أحلك سواده وأشد بأسه وأوسع تأثيره في إهدار كرامات الرجال وعفاف النساء وبراءة الأطفال إلا وفعلوه واقترفوه دون أن ترف لهم عين، فما أقسى قلوبهم وأجف أفئدتهم وأحنق صدورهم، إن كان لهم أصلاً قلوب أو أفئدة أو حتى صدور!! وقد جرت سنة الله تعالى في إزهاق ظلم الظالمين وجعلهم تاريخاً في أخبار الغابرين، قال تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٥].

٣ - الحكم بالطاغوت: لقد نحّى طاغوت الشام وحزبه شريعة الله تعالى من حياة الناس وحاربوها أشد محاربة واستعلنوا بالكفر والطغيان وأنزلوا العذاب الشديد والتنكيل والوعيد بكل من دعا إلى تحكيم شريعة الرحمن ورفع راية الإسلام، فستتناولهم سنة الله في إزهاق الكافرين وجعل الغلبة والانتصار لعباده المؤمنين، قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [آل عمران: ٤]، وقال تعالى ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

الخلاصة:

فما ذكرناه من السنن الربانية فيمن تأله وظلم وحكم بالطاغوت جميعها منطبقة انطباقاً كاملاً على طاغوت الشام وطائفته وحزبه، فلو لم تكن ثمة ثورة ضد هذا النظام الحاكم فإنه حريٌّ أن يندثر ذليلاً مهزوماً مدحوراً تحت وطأة إحاقة سنن الله تعالى به وأخذها بتلابيبه وخنقه وتدميره وجعله عبرة للمعتبرين، فكيف وقد ثار الناس بقضهم وقضيضهم عليه بعد أن نالهم من بطشه وظلمه ما نالهم، فإنه حري إن شاء الله أن يقر الله عيونهم ويفرح قلوبهم ويسعد صدورهم، قال تعالى ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ١٤ - ١٥].

شمس البشائر النبوية

أبشروا يا أهل الشام بالنصر المبين والعلو والتمكين بما بشركم به النبي الأمين عليه أفضل السلام وأتم التسليم باستحقاق ديار الشام لبركة رب العالمين. وهذه باقة مختارة من أزاهير الدوحة النبوية أسوقها بشرى للثوار في بلاد الشام من المؤمنين الأبرار.

قال رسول الله ﷺ: (اللهم بارك لنا في شامنا، بارك لنا في يمننا. قالوا يا رسول الله: وفي نجدنا؟ قال: اللهم بارك لنا في شامنا، اللهم بارك لنا في يمننا... الحديث) أخرجه البخاري. وقال رسول الله ﷺ: (إني رأيت عمود الكتاب انتزع من تحت وسادتي، فنظرت فإذا هو نور ساطع عمد به إلى الشام، ألا إن الإيمان إذا وقعت الفتن في الشام) صححه الألباني. وأخرج أحمد وغيره (عُقرُ دار المؤمنين بالشام) صححه الألباني. وقال رسول الله ﷺ: (لا يزال أهل الغرب (هم أهل الشام، قاله الإمام أحمد) ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة) أخرجه مسلم. إن هذه الطائفة من الأحاديث النبوية وغيرها تزف البشرى لأهل الشام بأن منتهى ما يستقر عليه حالها هو هيمنة المؤمنين وارتفاع كلمة المجاهدين وانتصار فئة المسلمين الصادقين.

فإذا نظرنا بشكل عام إلى هذه الدراسة مع ما سقناه فيها من تفاصيل فإن الاحتمال الثالث وإن طال فإن مرده إلى الاحتمال الثاني وهو انتصار الثوار وسقوط النظام الحاكم في سورية الآن، قال تعالى ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، وقال تعالى ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١].

هذه هي النية والهدف الذي ينبغي أن يكون مصاحباً لحركة الجماهير الثائرة في سورية ليتحقق لهم النصر، فعليهم ملازمة الصبر واللجوء إلى الصلاة، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣]، ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

الثورة السورية.. ربع الساعة الأخير

هيثم محمد الكناني

تلقى النظام الأسدي قبيل شهر رمضان المبارك ضربة موجعة طالت كبار قادته الأمنيين المسؤولين عن قمع وإخماد الثورة الشعبية المندلعة منذ ما يقرب من سنة ونصف، وقد كان لانفجار مبنى الأمن القومي الذي أودى بحياة أعضاء ما يسمى خلية إدارة الأزمة؛ كثير من الدلالات والنتائج التي تصب جميعها في مصلحة الثورة والشعب الثائر.

إن من أبرز دلالات هذه العملية أنها تعبّر عن اختراق كبير من قبل الثوار لجسم النظام وبنيته الداخلية، فالعملية لم تتم بواسطة انتحاري فجّر نفسه وسط جمعهم في مكان مكشوف، ولا بسيارة مفخخة وُضعت في الطريق أمام المبنى، لكنها تمت بعبوة ناسفة وُضعت داخل غرفة اجتماعات الخلية وفي عقر دار النظام، وذلك بالتنسيق مع عنصر (أو أكثر) شديد القرب من أفراد الخلية ويحظى بثقتهم.. فهي عملية معقدة بكل المقاييس، وتحتاج إلى كثير من الوقت والتجهيز، بَدءاً من التواصل مع العناصر الداخلية واستقطابها، مروراً بتحديد خط سير أعضاء الخلية وتحديد ساعة الصفر، انتهاءً بإدخال العبوة الناسفة وزرعها ثم تأمين العناصر المنفِّذة، ومما يزيد الأمر أهمية أن هذه العملية لم تكن الاستهداف الأول للخلية، فقد أُعلِن قبل أسابيع قليلة استهداف أفراد الخلية نفسهم بمحاولة اغتيال عن طريق دس السم في الطعام، وفيما ظهر لاحقاً أن تلك العملية لم تؤتِ أكلها فإن المؤكد أن العملية الثانية قد كُلِّلت بالنجاح، وأن الثورة قد حققت اختراقاً في نفس الموقع شديد الحساسية مرتين متتاليتين خلال مدة قصيرة. إن منطق الأشياء يقول إن النظام لا بد أن يكون قد زاد بدرجة كبيرة من احتياطات الأمن – المرتفعة أصلاً – بعد المحاولة الأولى، فمجرد وصول الثورة للمطلوبين مرة أخرى، ومن ثم نجاحها في القضاء على رؤوس الإجرام هؤلاء، لهو دليل كبير على مدى تطور أدوات الثوار ونجاحهم في التغلغل داخل هيكل النظام؛ لذا فإن كل محاولات النظام وأبواقه للتقليل من شأن هذه العملية إلى حد تشبيهها بإرسال قطعة (شوكولا) مفخخة مع طفل لا يدري ماذا يحمل، ليست سوى محاولة يائسة لصرف الأنظار عن هذا الاختراق النوعي.

إن حصـــول هذه العملية مرتين يشـــكِّل بكل تأكيد نوعاً من حرب الرعب للنظـــام بأفراده، فالطعام غير مأمون، وأشـــد المراكز حساســـية وتأميناً مخترقة، ما يعني أن ما هو دونها أكثر عرضة للاختراق، هذا بينما رصـــاص الثوار في الميدان يحصد رؤوســـاً مهمة، من مسؤولي أفرع أمنية، إلى قادة أفواج وألوية وضباط من رتب رفيعة، ناهيك عن اعتقال وأســـر عددٍ من ضباط الأمن برتب مختلفة.. فأين الأمان وأين المفر؟

ومع بَدء توارد أخبار نتائج هذه العملية ومع الإعلان الرســـمي الســـوري عنها، ارتفعت الروح المعنوية لدى الناس في كل مكان بدرجة لم يســـبق لها مثيل، وكثرت التوقعات بسقوط وشيك للنظام خلال ساعات أو أيام، لا ســـيما مع الإعلان عن بدء معركة دمشـــق الكبرى، ومع دخول كتائب الثوار إلى قلب العاصمة وتوغلهم في عدد من أحيائها، لكـــن الأيام اللاحقة للعملية أظهرت أن الانهيار الســـريع والانشـــقاقات الكبيرة المتوقعة لم تحصل، مـــا يعني أن النظام ما زال يتمتع بشـــيء من التماســـك الذي يســـمح بإبقائه على قيد الحياة بعض الوقت.

قد يـــرى بعض الناس أن ثورة المستحيل في أرض الشـــام المباركة قد طالت أكثر من الـــلازم، وهذا إن كان يحمل في طياته شيئاً من الصـــواب، فإنه يحمل كذلـــك كثيراً مـــن الخير للشـــام وأهلها بـــإذن الله؛ ولعل مـــن أعظـــم الخير تمحيص الصفوف وتنقيتها وربط القلوب بالله عز وجل وملؤها بحسن الظن به جل وعلا؛ ولعل مـــن أعظمها كذلـــك انكشـــاف الوجه القبيح لحزب حســـن نصر الله، فبعد طول تخفٍ خلف قناع المقاومة الزائف انكشـــفت طائفية هذا الحزب لعوام الناس الذين كانوا مخدوعين بشنشنته، وشاء الله أن يُتِمَّ فضيحته، حيث خلع «سيد المقاومـــة»، كما يحب أن يلقبه أنصـــاره، برقع الحياء تماماً بعد عملية خلية الأزمة، وترحم على أولئك القتلة، وأســـبغ عليهم أوسمة الشهادة، وأعلنها صريحة أنه وحزبه وولي أمره ونعمته في «قم» باقون مع المجرم في نفس السفينة وسيخوضون معه الحرب حتى النهاية.

عملية خليـــة الأزمة كانت ضربة نوعية بـــكل تأكيد، لكن العالمين ببواطن الأمور يعرفون أنها لم تكن ضمن خطة معدة سلفاً للقضاء على النظام في عقر داره، ولم تكن مقدمة لتحرك سريع نحو العاصمة كما أشـــيع إعلامياً، الوصف الصحيح لها أنهـــا كانت خطوة على الطريق، فمن قاموا بهذا العمل يتمتعون بنفس طويل ويعلمون أن الحرب قاسية وطويلة، ويعلمون كذلك أن حسمها سيكون في دمشق، وهم يعدون لهذا اليوم الآتي قريباً بإذن الله عدته؛ أما معارك دمشق التي تلت العملية، فقد بدأت باجتهاد متسرع من أحد الفصائل، ثم ما لبثت بقية الكتائب والألوية العاملة في دمشـــق وريفها أن استجابت للتحدي وآزرت ذلك الفصيـــل، الأمر الذي حقق كثيراً مـــن الفوائد، مع ما رافقه من محن وآلام، لا سيما في حق المدنيين الذين نُهبت أرزاقهم وانتُهكت حرماتهم وهُجّروا من بيوتهم نتيجة القصف.

إن الأمر المؤكد بإذن الله أن هذا النظام ساقط قريباً، وهذا الأمر إن كان يمثل في الماضـــي نوعاً من الأماني فإن علاماته وأماراتـــه الواقعية صارت بادية للعيان أكثر من أي وقت مضى، ولئن كانت العملية الأخيرة لم تقضِ عليه تماماً، فإنها قد دقت كثيراً من المسامير في نعشه الذي ما زال يجهز له منذ أشهر.

إن المتابع لمجريات الثورة منذ بدايتها لا يملك إلا أن يســـلم أن الثورة ماضية بإذن الله نحو الانتصار، وأن الثورة تكسب كل يوم أرضاً جديدة على حساب النظام الذي يخسرها، ورغم أن التقدم يبـــدو بطيئاً في بعض الأحيان، إلا أن هذا يجعل الثورة أكثر ثباتاً ورسوخاً، ومرد هذا بعد توفيق الله جل وعلا إلى هذا الإصرار والصمود الأســـطوري الذي أبداه الثوار منذ البداية، وإن طالت بنا الحياة فســـيجد من عاصر هذه المرحلة وعاشها من الثوار مـــادة غزيرة وفوائد عظيمة ينقلونها للأجيال المقبلة حين يحدثونهم عن هذه الملحمة الشامية.

لقد قال أحد الثوار في مدينة دوما بريف دمشـــق كلمة لا تنسى في الأسابيع الأولى من عمر الثورة، قال: لو فني منا ألف ألـــف فلن نرجع عن ثورتنا حتى نحقـــق أهدافنا. قالها يوم لم تكن المظاهرات تخرج إلا يـــوم الجمعة، قالها يوم لم يكن عدد من يخرج في كل سورية يصل إلى خمسين أو ستين ألفاً، قالها يوم كانت رقعة المظاهرات محدودة للغاية، بينما كان الســـكون والترقب يلف باقي المناطق، فأي يقين هذا وأي إصرار؟

وبعدها بأســـابيع ومع تمدد رقعة المظاهرات لتشمل أغلب المناطق بما فيها بعض أحياء دمشـــق وحلب، ومع إخراج النظام لمســـيراته المؤيدة «العفوية»، قال ثائر آخر في قلب دمشق: كم عدد أنصار النظام؟ هم عشرة ملايين ونحن عشرة؟ حسن، إنا لن نرجع ولو أفنى بعضنا بعضاً! فأي يقين هذا وأي إصرار؟

لقـــد كان الناس يدعون اللـــه قبل كل جمعة أن تســـتمر «الانتفاضة» وأن تدخل فيها دمشـــق وحلب، وشاء الله عز وجل لحكمة يعلمها جل وعلا أن تصبح الانتفاضة ثورة وتستمر وأن يتأخـــر دخول المدينتين، كان الناس يدعـــون الله وقلوبهم وجلة خشية أن يرجع الناس أو يملوا، لكن يوم الجمعة كان يأتي دوماً بمبشرات الاستمرار مع ما يصاحبه من آلام وجراح، لكن الأمل كان يكبر يوماً بعد يـــوم، وأن من انتفض وثار فلن يرجع، وأنى له أن يرجع وقد صار بينه وبين النظام بحار من دم وأسوار من جماجم وأشلاء!

مع دخول دمشـــق وحلب في ركاب الثورة على غير رغبة من بعض أهلهما، ومع انتقال المعارك إلى قلب كل منهما، فإن الفصل الأخير من عمر هذا النظام بدأ يُكتب، وبدأ الربع الساعة الحاسم والأخير من عمر الثورة عده التنازلي، فالنظام الذي كان يؤكد على أعلى المســـتويات قبل أشهر أن الأزمة «خلصت» وأن الأسوأ صار خلف ظهره، يبدو اليوم أضعف مرات ومرات مما كان عليه، ويبدو عاجزاً عن فرض سيطرته على المناطق التي يتواجد فيها، فضلاً عن اســـتعادة الأرض التي يخسرها كل يوم، ونعني باستعادتها أن يحكم قبضتـــه عليها تماماً ويتخذها قواعد ثابتة، وإلا فإن كثيراً من معارك هذه الحرب إنما هي كر وفر.

النظـــام اليوم يبدو على درجة عالية مـــن الارتباك، وهذا ما يوقعه في مزيد من الأخطاء القاتلة، فمع اســـتباحة جنوده لأحياء دمشـــق وحلب وتدمير بيوتهما ونهب محتوياتها وتهجير أهلهـــا، فإنه يكون قد فقد عملياً كل الرصيد الذي كان يحتفظ به لضمان تحييدهمـــا وإبعادهما عن أتون المعارك الدائرة في أنحاء البلد، فخداع أهل دمشـــق وحلب بـــأن من يقوم بالقتل والنهب والتخريب عصابات مســـلحة وإرهابيون لم يعد ينطلي علـــى أحد بعد ما شـــاهده الناس بأم أعينهم أو ســـمعوه من أقاربهم وأصدقائهم.

وبســـبب هذا الارتباك فإن بعـــض تصرفات النظام تخرج تماماً عـــن حد المنطق والعقل وتصبح أشـــبه ما يكون برقصة المذبوح، فالإعلام الرســـمي الســـاقط لم يخجـــل من زعم أن هناك خطة ســـعودية قطرية تقضي بعمل مجســـمات بحجم جبل قاسيون والمطار الدولي وساحة الأمويين بدمشق لتصوير أنها ســـقطت في أيدي الثوار، ولأن ترددات القنوات الســـورية قد تخترق وتســـرق فلا ينبغي للمواطنـــين أن يصدقوا خروج شخصيات رسمية كبيرة على هذه القنوات تعلن انشقاقها، فكل هذا يمثل - حسب رواية الإعلام الرسمي - فيلماً يتم تصويره في هوليوود! وهذا إن دل على شـــيء فهو يدل على قناعة لدى أركان النظام بأن الثوار سيسيطرون على هذه المناطق وأن عدداً من المسؤولين سينشـــقون بالفعل، وهنا يظهر أن النظام يحفر قبره بيده.

إن المرحلة الأخيرة والحاســـمة تســـتلزم من الثوار حرصاً كبيراً علـــى توحيد الصفوف واتخاذ القـــرارات المصيرية بعد التشاور والاتفاق، ولئن كانت معركة التحرير صعبة ومكلفة، فإن

ما بعد التحرير لا يقل أهمية وخطورة، بل إن ما بعد سقوط النظام هو ما سيحدد مدى نجاح الثورة في تحقيق أهدافها التي يعد سقوط النظام مفتاحاً لها. لقد خاضت الأمة في العقود الماضية كثيراً من المعارك في كثير من البقاع، ولئن تحقق النصر العسكري في كثير من هذه المعارك إلا أن المحصلة في النهاية لم تكن في كثير من الأحيان - للأسف - في صالح الأمة، حيث كان الناس يضحون بأرواحهم وأموالهم ثم يأتي غيرهم ليضيع نصرهم أو ليقطف الثمرة بدلاً عنهم.

إن المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين - هكذا ينبغي أن يكون - فلا بد لأهل الثورة الذين هم أهلها من التعاضد والاجتماع والاتحاد لتكون لهم كلمة مسموعة في مستقبل سورية بعد التحرير، ولئن كانت حناجر الثوار تهتف بأعلى صوت «من يمثلنا هم أبطال الخنادق لا نزلاء الفنادق»، فإن التجارب علمتنا أن مستقبل البلاد يتفاوض عليه في الفنادق، فلا بد للثوار الذين يتفقون في الخطوط الفكرية والمنهجية العريضة أن يسارعوا إلى إيجاد جهة سياسية تعبّر عنهم وتتحدث باسمهم وتتفاوض بالنيابة عنهم، وأحسب أن الثوار سيجدون في بعض الوجوه السياسية في الخارج ضالتهم المنشودة، وعندما يكون هناك اتحاد في التصور وتكامل في الجهد بين الخندق والفندق، وبين البندقية والكلمة، فإن هذا سيكون خيراً للجميع، وللشعب الثائر، ولسورية.

الثورة السورية تدخل هذه الأيام مرحلة ربع الساعة الأخير، وقد يكون هذا أخطر الأوقات منذ تجاوزت الثورة مرحلة الخوف من انحسار المد الثوري والتظاهرات قبل نحو سنة من اليوم، فلا بد من أخذ الحيطة والحذر واستنهاض الهمم، وقد يكون من المناسب في هذه المرحلة أن يسعى المفاوض الممثل للثوار لانتهاج أسلوب «خذ وطالب»، لتحقيق أكبر قدر ممكن من المصالح ودرء أكبر قدر ممكن من المفاسد، وذلك بتقدير واقعي للإمكانات والظروف المحيطة، مع المحافظة على رابطة قوية بين الجناح العسكري والجناح السياسي المأمول، ومع استناد الجميع لدعم شعبي منظم، فإن الشعب الثائر بكل مظاهر الثورة لا يزال هو الرقم الصعب في المعادلة وهو القادر بإذن الله على التغيير وإفشال المؤامرات والمخططات، هذا مع التعويل قبل كل شيء على توفيق الله ومدده وحوله وقوته، ومع التبرؤ من حول النفس وقوتها.

﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف: ٢١].

رئيس بنصف سُلطة!

حسن الرشيدي
https://twitter.com/hass64

«لأول مرة منذ ١٩٥٤ يكون الرئيس المصري شخصية ثانوية تؤدي دوراً وظيفياً وثانوياً».

هذا ما كتبه دانييل بايبس الباحث الأمريكي ومؤسس ومدير منتدى الشرق الأوسط، وهو مركز أبحاث أمريكي، معلقاً على مكانة الرئيس محمد مرسي في النظام السياسي المصري، والتي عبَّرت عن نفسها طوال الأسابيع القليلة الماضية.

ويقول عمران بخاري، نائب رئيس قسم الشرق الأوسط في مؤسسة ستراتفور البحثية الاستخباراتية، متحدثاً عن دور المجلس العسكري في إدارة شؤون مصر: إن العالم الخارجي ما زال ينظر للقيادة العسكرية كشريك في الحكم.

هذه التعليقات وغيرها الكثير توضح بجلاء ما يواجهه الرئيس الجديد لمصر الدكتور محمد مرسي من تحديات داخلية كثيرة لنظام حكمه، أخطرها: السلطة المطلقة للمجلس العسكري الذي يدير شؤون مصر بعد تنحي رئيسها السابق في أعقاب ثورة ٢٥ يناير.

لكن كيف يشكّل المجلس العسكري سداً مانعاً يحول دون حصول الرئيس مرسي على سلطاته الكاملة؟

وما استراتيجيات مرسي للخروج من هذا الشرك الذي نصبه العسكر له؟

وما تقييم تلك الاستراتيجيات ومدى نجاحها وإخفاقها؟

استراتيجيات المجلس العسكري:

يتضح بجلاء بعد انقضاء أكثر من سنة ونصف من عمر الثورة المصرية، أن المجلس العسكري القابع في سدة الحكم يريد أن يحقق هدفين رئيسيين[1]:

١ - استمرار الاستقلال الاقتصادي لمؤسسة الجيش عن الدولة وعدم محاسبتها.

٢ - الدور الحاسم في القرارات المتعلقة بالقضايا التي تمس الأمن القومي المصري.

توصّل المجلس العسكري منذ توليه مقاليد مصر بعد تنحي مبارك، إلى أنه كي يحقق هذين الهدفين لا بد له من ضمان ركيزتين أساسيتين:

أولاً: وضعٌ متميز وثابت ودائم في الدستور المصري وليس تطمينات شفوية من أي جماعة أو فصيل أو قوى سياسية.

ثانياً: وجود رئيس موالٍ على رأس سلطة تنفيذية.

وللوصول إلى الوضع المتميز الدستوري والرئيس الموالي؛ اتبع المجلس سياسة فرّق تسد بتفجير الخلاف العَلماني الإسلامي وتقسيم البلد نتيجة هذا الخلاف إلى قسمين، وحاول اللعب على الحبال والقفز على كل قسم مبدياً تحالفاً معه في الباطن، فعقد عدة مؤتمرات لكتابة الدستور تتشكل في أساسها من النخب العَلمانية مطعمةً ببعض الإسلاميين، لكن قوة التيار الإسلامي أفشلت هذه المحاولة، ثم جرب إصدار وثيقة السلمي، وسرعان ما سقطت، وهنا أيقن المجلس العسكري أن القوة الأساسية التي تحول دون مخططاته هي التيار الإسلامي، فعمد إلى سلوك استراتيجية جديدة تعتمد على الدخول بالقواعد الديمقراطية والقانونية إلى الحلبة السياسية، فأقيمت انتخابات برلمانية اكتسح على أثرها التيار الإسلامي، وظن المجلس أن الإسلاميين سيردون الجميل له ويعترفون بوضعه المميَّز في الدستور ويتركون منصب الرئاسة لمن يختاره.. ولم يفعل الإسلاميون ذلك.

هنا بدأ المجلس العسكري يفعّل استراتيجية مضادة بهدف إسقاط الإسلاميين، وارتكزت هذه الاستراتيجية على عدة أسس، منها:

• التشويه الإعلامي المتعمّد في الفضائيات وبرامج التوك شو التي جذبت إليها كثيراً من الناس، ومحاولة الحط من مكانة الإسلاميين وشخصية الرئيس.

• حرب الشائعات التي تقودها أجهزة استخبارية مصرية محنكة في تغيير اتجاهات الرأي العام ونزول أفراد تابعين لها إلى الشوارع والمقاهي ووسائل النقل المختلفة لتختلق الأخبار والقصص الملفقة حول الإسلاميين.

• تطويع أحكام القضاء لصالح المؤسسة العسكرية، وانظر مثلاً إلى الأحكام القضائية بحل مجلس الشعب عندما بدأ يناقش قانون الحد الأعلى للمرتبات، والذي كان سيمس امتيازات جنرالات الجيش المصري، وإن كان النموذج الصارخ لتسييس القضاء هو في تقديم موعد الحكم الخاص بحل اللجنة التأسيسية التي تكتب الدستور من ٤ سبتمبر إلى ١٧ يوليو، وهو مرتبط برفض أعضاء اللجنة اقتراح اللواء ممدوح شاهين مندوب المجلس الأعلى للقوات المسلحة في اللجنة بوضع قانون الدفاع الوطني بصيغته الراهنة في اللجنة التأسيسية واقتراح قانون بديل يجعل عدد المدنيين مساوياً للعسكريين، وجعل رئيس الجمهورية الصوت المرجّح.

وعندما أيقن المجلس العسكري قبل إجراء الانتخابات بيوم أن الاتجاه قد يسير لصالح مرشح الإخوان وأنه قد يفقد بذلك الركيزة الثانية التي اعتمد عليها لتمرير ما يريد؛ لجأ إلى إصدار حزمة من التشريعات والقوانين التي تتيح له وجوداً قانونياً ودستورياً في حالة إذا تم انتخاب غير مرشحه، وتتيح تكبيل صلاحيات وحركة مرشح الإخوان في حال فوزه.

• استخدام هندسة الانتخابات: وهذا ما فعله المجلس العسكري عندما راهن على أحد المرشحين ليكون مرشحه للرئاسة، وبعد فقد الأمل في تأييد قاعدة الإسلاميين الشعبية التي اتجهت إلى مرسي، لجأ إلى تكثيف الضغوط تجاه

(١) انظر تفصيل ذلك في مقال سابق في عدد البيان: ٢٩٩.

أحمد شفيق بإطلاق الإشاعات ضد مرسي وتسخير الإعلام واستخدام سلاح المال ورشوة الناخبين الفقراء، ويتجلى ذلك كمثال في إحدى مدن الدلتا الكبرى وفي منطقة عشوائية فقيرة، حيث يعيش أهلها على رواتب تدفعها جماعة الإخوان المسلمين منذ عدة سنوات، لكن عندما عُرض عليهم المال ليصوتوا لصالح شفيق استجابوا لذلك في فارقة مذهلة!

كما تم تجميع أنصار النظام السابق ورجال الأعمال المستفيدين منه ليبدأوا حملة لحشد الناس المرتبطة مصالحهم بهذه الفئات.

• تصدير وافتعال أزمات معيشية ونسبها للإسلاميين: كان من المنطقي أن أزمات المعيشة من نقص الخبز والسولار وأزمة المرور والنظافة وتدني الرواتب وانفلات الأمن وغيرها؛ من المشكلات التي تُسأل عنها السلطات التنفيذية وليس التشريعية التي مهمتها الأساسية تتمثل في الرقابة والتشريع، لكننا فوجئنا بأن المحتجين يتجهون إلى مقر المؤسسة التشريعية ومن بعدها مقر الرئاسة قبل أن يشكل الرئيس الحكومة محملين هذه المؤسسات مسؤولية خراب البلد!

استراتيجيات الإخوان:

لا شك أن الاستراتيجية التي يتبعها الرئيس مرسي هي نفسها النهج الذي يرسمه الإخوان كاستراتيجية لمواجهة العسكر، وهي استراتيجية واحدة مهما قيل عن استقلال قرار الرئيس عن الجماعة وما تدعيه كثير من الأبواق في هذا الموضوع، محذرة مما أطلقت عليه حكم المرشد، لكن السواد الأعظم من الذين انتخبوا مرسي إنما انتخبوا الجماعة وليس شخص مرسي، لأن في اعتقادهم أن الجماعة بخبراتها وقدراتها هي الأقدر على مواجهة تجبّر المجلس العسكري من مجرد شخص واحد مهما كانت قدراته.

وفي أعقاب تنحي مبارك ارتكبت جماعة الإخوان العديد من الأخطاء في ممارستها السياسية، وقد حاولت – بعد أن آلت العلاقة مع العسكري إلى صدام سياسي – إصلاح الأخطاء السابقة، فاعتمدت استراتيجية جديدة تدور حول تحجيم المجلس العسكري والحد التدريجي من دوره السياسي، وهذه الاستراتيجية قامت على المبادئ التالية:

• مد جسور التعاون مع كثير من القوى الوطنية: كان من أبرز أخطاء جماعة الإخوان فك تحالفها مع القوى الوطنية التي شاركت معها في الثورة وتقديمها أولوية التعاون مع المجلس العسكري، والذي ثبت مع مرور الوقت أنه يلعب بسياسة فرق تسد، لذلك حاولت الجماعة ترميم هذه العلاقة بعد أن وصلت علاقتها بالمجلس العسكري إلى طريق مسدود ووضحت مخططاته للاستئثار بالسلطة، وحاولت تصدير قيادتها التوافقية، مثل البلتاجي وغيره، والدخول في حوارات مع الشخصيات والقوى والائتلافات المعروفة بوطنيتها حتى إن اختلفت أيديولوجياً مع التوجه الإسلامي، وأثمر هذا التعاون عن تكوين ما يُعرف بالجبهة الوطنية لاستكمال الثورة.

• تمتين قاعدة الجماعة بتوثيق علاقاتها مع التيارات والأحزاب الإسلامية: بعد الانتخابات التشريعية التي حدث فيها احتكاك بين الفصائل الإسلامية المتنافسة على مقاعد البرلمان، عاد الوئام والتوافق والتنسيق بين هذه الكتل مرة أخرى، وظهر هذا جلياً أثناء أزمة الجمعية التأسيسية الأولى، لكن هذا الوئام عاد مجدداً للتصدع في الجولة الأولى لانتخابات الرئاسة، حيث انقسم الإسلاميون في تأييد المرشحين الإسلاميين، لكن في جولة الإعادة عاد الصف للالتئام مرة أخرى خلف مرشح الجماعة، حتى إن من بين ١٣ مليون صوت التي حصل عليها مرسي يقدر البعض أصوات السلفيين فيها بأكثر من سبعة ملايين صوت.

• حشد طاقات الجماعة بأفرادها وشبابها واستنفارهم بأقصى قوة لتحقيق أهداف الجماعة، وتمثل ذلك في عدة مراحل، منها: مرحلة انتخابات الرئاسة، حيث نظم شباب الجماعة حملة طرق الأبواب في محاولة كسر الحملة المضادة التي تشوه صورتهم، وذهبوا للبيوت ليطرقوا أبوابها، وبعض الناس طردوهم، لكنهم قابلوا الإساءة بالصبر، وعند نجاح مرسي واصل أفراد الجماعة النزول إلى الشارع وتنفيذ مشروع مرسي على أرض الواقع.

• سياسة الخطوة خطوة: باكتساب أرض جديدة وتحقيق إنجاز ما يراكم بعضه البعض ويصنع شرعية الإنجاز المطلوبة أمام الجماهير، فأهل مصر وفقاً لقول قيادة كبيرة ومؤثرة في الجماعة، غير أهل غزة الذين يمكن أن يتحملوا شظف العيش والحصار في سبيل قضيتهم، ولذلك فإن الأولية وفقاً لهذا القيادي ستكون لتحقيق إنجاز سريع على المستوى المعيشي والخدماتي يشعر به الفرد العادي.

• تدشين حملة دبلوماسية خارجية: بدأت أولاً في محاولة ترميم العلاقات الإقليمية مع الدول المحيطة مثل دول الخليج، فجاءت زيارة الرئيس مرسي إلى السعودية وتصريحاته التي تتحدث عن زعامة مصر والسعودية للدول السنية، ثم زيارته لإثيوبيا وفتح ملف العلاقات الإفريقية وملف مياه النيل، وأخيراً استقباله مسؤولين أمريكيين وأوروبيين.

ويأمل الرئيس من سفرياته المتكررة انتزاع مزيد من التعاطف والشعبية في معركته مع العسكر وتحييد حلفاء العسكر الإقليميين والدوليين لاستعادة صلاحياته المسلوبة وتبديد مخاوف الجميع من الإسلاميين، كما أن هذه الحملة الدبلوماسية التي دشنها مرسي جعلت من الصعب على الجنرالات أن يصفوه بأنه خطر على سياسات مصر الخارجية.

وتصف صحيفة شيكاغو تريبون الأمريكية جولات الرئيس المصري الجديد محمد مرسي الخارجية بأنها تحركات خارجية هدفها داخلي وهو محاولة استعادة مكانة مصر الخارجية من أجل تحجيم نفوذ المجلس العسكري وانتزاع جزء كبير من صلاحياته.

وقالت الصحيفة الأمريكية إن مرسي يسعى من جولاته المختلفة لتبديد مخاوف الكثيرين من وصول الإسلاميين لسدة الحكم في البلاد التي استلموا خزينتها وهي خاوية واقتصادها وهو بحاجة إلى الإنعاش.

وأشارت الصحيفة إلى أن تلك الحملة سيكون لها أثر كبير في الحد من نفوذ المؤسسة العسكرية في البلاد.

وتابعت «شيكاغو تريبون» بقولها «رغم ذلك فإن السعودية والولايات المتحدة حليفتي مصر الرئيسيتين لن تحاولا تحدي دور الجيش كحام للبلاد، وهو الدور الذي يتذرع به الجنرالات من أجل الإمساك بملفات الأمن القومي والدستور الجديد».

تقييم استراتيجية الإخوان:

يبدو أن التحالف مع القوى الوطنية قد أصابه التصدع، واتهم أعضاء الجبهة الوطنية لاستكمال أهداف الثورة مرسي وجماعته بنقض ما يُعرف باتفاق فيرمونت، والذي يتضمن معايير اختيار مستشاري الرئيس وفريقه الرئاسي ونوابه ومحددات تشكيل أول حكومة عقب الانتخابات الرئاسية.

ويبدو أن الضغط الذي يمارسه هذا الفريق سيضاف إلى جملة الضغوط التي يتعرض لها الرئيس مرسي، مثل: الضغوط القادمة من المجلس العسكري أو الناتجة عن ضغط الشارع، وفي الوقت نفسه لديه مشروع النهضة التابع للإخوان والذي يحوي بعض البنود التي يجب أن تنجز سريعاً كي يشعر بها رجل الشارع العادي.

ولا شك أن أعضاء الجبهة الوطنية لم يثبتوا حتى الآن إدراكهم حجم التحديات التي تواجه الرئيس، وأنهم من غير ما يشعروا باتوا معولاً لهدم الثورة بدلاً من أن يكونوا مساهمين في استكمال أهدافها، وفي نفس الوقت لا أفهم ولا أدرك ما التعهدات التي قطعها مرسي على نفسه بإشراك قوى سياسية في حكومته؟ وما طبيعة هذه القوى التي سيشركها؟ وما دورها ومدى التزامها ببرنامج الرئيس؟ ولماذا بدأ الرئيس يتنصل من تعهداته إن وجدت بتلك الكيفية التي يتحدث عنها المعارضون؟

كذلك يفتقر الفريق الرئاسي إلى المكاشفة ووضع الشعب في صورة الأزمة الخانقة كي يستطيع أن يدرك حجم الأزمات التي تحيط بالرئيس ويستطيع الصبر وتحمل مزيد من الضغوط.

وتمتد سياسة عدم المكاشفة والوضوح في العلاقة مع المجلس العسكري، وقد يتفهم بعض الناس إخفاء ملامح الصراع بين المجلس والرئاسة، لكن إلى وقت محدد، وإلا فإن إخفاء هذا التوتر سيضر في النهاية بالرئاسة وصورتها أمام الجماهير مع عجزها عن تحقيق أي إنجاز ملموس على الأرض مع تقدم الوقت.

ويبقى أن نسخ تجربة أردوغان واستراتيجيته للخروج من شرنقة العسكر لا يصلح في مجملها مع التجربة المصرية، لكن يمكن الاستفادة من جزئيات فيها، فالشعب المصري أكثر التزاماً بقضايا الشرع من الشعب التركي، وبالتالي فإن قواعد اللعبة السياسية في مصر تسمح بمزيد من ممارسة الضغوط لتطبيق الشريعة، كما أن الظرف السياسي الذي تمر به مصر لا يزال يحمل الطابع الثوري، وهذا يمثل بثقله ضغوطاً مضاعفة على المجلس العسكري كي يقدم مزيداً من التنازلات.

«ليالي تُركستان»(*) والمسلم

صلاح محمد أبو زيد

يمتاز إقليم تركستان الشرقية بثرواته الطبيعية الهائلة من الذهب واليورانيوم والفحم، ويُعدُّ ثاني أكبر منتج للنفط في الصين.

عمدت السلطات الصينية إلى محو هوية الإقليم المسلم، فغيَّرت اسمه من تركستان، ومعناها أرض الترك، إلى «شينجيانج»، وتعني «الأرض الجديدة»، كما تم إلغاء اللغة الإيجورية التي كانت تُكتب بالحروف العربية.

تحظر القوانين تلقي التعليم الديني لأقل من ١٨ عاماً، ويُمنع التلاميذ في المدارس والجامعات من تأدية الصلاة وصوم رمضان وحمل المصاحف أو امتلاكها.

تسيطر عِرقيةُ الهان اللادينية على المصانع والشركات والوظائف الإدارية، ما اضطر الإيجور إلى العمل في حِرَف متدنية، مثل: أعمال النظافة، والخدمة في منازل الأثرياء.

الأحداث الدامية التي يشهدها إقليم تركستان الشرقية من آن إلى آخر وتروح ضحيتها أعدادٌ من المسلمين؛ ما هي إلا مؤشرٌ على مأساة يتجاوز عمرها ستة عقود كاملة ولا نعرف عنها إلا أقل القليل.. وهذا التوتر مرشح للتصاعد وربما الانفجار المروع طالما ظلت سياسة العصا الغليظة الوسيلةَ الوحيدة للتعامل مع مسلمي الإيجور.

(*) «ليالي تركستان»، رواية بديعة للأديب الإسلامي الكبير الراحل نجيب الكيلاني يرصد فيها كفاح مسلمي التركستان وجهادهم الرائع عبر الزمن، ولعلها الوحيدة في هذا الباب في أدبنا العربي.

قشغر الإسلامية:

يُعدُّ إقليم تركستان الشرقية أو «شينجيانج»، أكبرَ أقاليم الصين، ويمثل نحو ١٧٪ من مساحتها الحالية، وهو توأم إقليم تركستان الغربية الذي يضم جمهوريات كازاخستان وطاجيكستان وتركمانستان وقيرغيزستان وأوزبكستان، وهي الآن المعبر الاستراتيجي الذي تمرُّ منه أنابيب النفط والغاز المستورد من دول وسط آسيا إلى داخل الصين. يحدُّ هذا الإقليم من الشمال الغربي كازاخستان وقيرغيزستان وطاجيكستان، ومن الجنوب أفغانستان والهند، ومن الشرق أقاليم التبت وكوبنغهاي وكانسو الصينية، ويمتاز الإقليم بثرواته الطبيعية من الذهب واليورانيوم، وهو ثاني أكبر منتج للنفط في الصين، حيث يسد ٨٠٪ من احتياجاتها، أما مخزون الملح الصخري فيقدَّر بما يكفي استهلاك العالم كله لمدة ١٠٠٠ عام. وأهم مدن الإقليم هي: أورومجي العاصمة، وهامي كارامِي، وكاشي أو قشغر، وكانت غالبية السكان في النصف الأول من القرن الماضي من مسلمي الويجور الترك، والويجور تعني الاتحاد أو التضامن.

ويشير المؤرخون إلى أن الإسلام دخل تركستان الشرقية في عهد الوليد بن عبد الملك عام ٩٤هـ/ ٧١٢م عندما عبر القائد قتيبة بن مسلم الباهلي نهر جيحون متوجهاً إلى فرغانة، وأوغل في بلاد ما وراء النهر حتى قارب حدود الصين القديمة، ففتح قشغر ثم جنغاريا وترفان الواقعتين على حدود منغوليا، وخوتن الواقعة شمالي التبت وكشمير، لكن تلك البلاد أصبحت إسلامية حكومةً وشعباً بعدما اعتنق الخان

ـــون المنســـــــيون!!

المغولي «ستاتول بوجرا» الإسلام عام ٣٢٢هـ/ ٩٣٤م. وفي عصر أسرة مينج التي حكمت الصين (١٣٨٦ – ١٦٤٤م)، نال المسلمون امتيازات كبيرة، فازدهرت أحوالهم وازداد عدد مساجدهم، حتى جاءت الأسرة المانشورية في أواسط القرن السابع عشر الميلادي فعملت على اضطهادهم وهدم مساجدهم، فقاموا بعدة ثورات عنيفة تمكَّن خلالها الزعيم المسلم «يعقوب بك» من الاستقلال بتركستان الشرقية عام ١٢٨٢هـ/ ١٨٦٥م، لكن هذه الدولة لم تعش طويلاً، حيث هاجمتها الصين واحتلتها مرة أخرى سنة ١٢٩٠هـ/ ١٨٧٥م، وفي عام ١٣٥٠هـ/ ١٩٣١م اشتعلت الثورة في منطقة تركستان الشرقية كلها، وبعد عامين أُعلن قيام حكومة «قشغر الإسلامية»، ولم يتم إسقاط هذه الدولة إلا بالتحالف العسكري بين الصين وروسيا عام ١٣٥٦هـ/ ١٩٣٧م.

وإلى الآن تزدان مدينة قشغر القديمة ببقية رائعة من المساجد والأبنية ذات الطراز الإسلامي البديع، من أهمها: مجمع أباخ خوجة الإسلامي الذي بُني عام ١٦٤٠م، إلا أن أبرز عمائر المسلمين هو جامع عيد كاه الذي يُعدُّ أكبر مساجد الصين من حيث المساحة ومن أكثرها تعبيراً عن شخصية مسلمي الصين.

ورغم هذا التاريخ الطويل للإسلام في الصين، لا يوجد إحصاء دقيق لعدد مسلميها يستطيع الباحث أن يطمئن إليه، فبينما ترتفع المصادر الإسلامية بالعدد إلى ما فوق حاجز المائة مليون، فإن المصادر الرسمية تشير إلى أن الإسلام ينتشر اليوم بين عشر قوميات يُقدَّر عددها بنحو عشرين مليون نسمة، وهي: الويجور، والهوي، والقازاق، والقرغيز، والتتار، والأزبيك، والطاجيك، ودونغشيانغ، وسالار، وباوآن، ومعظمهم يتوزعون في شينجيانج، بينما البقية الباقية فينتشر بعضها في مدن وقرى سائر المقاطعات والبلديات والمناطق ذاتية الحكم، بما فيها تايوان وهونغ كونغ وماكاو.

الأرض الجديدة:

بعد قيام الثورة الشيوعية عام ١٩٤٩م فرض الصينيون سيطرتهم على المنطقة كلها، وعمدوا إلى محو هوية الإقليم المسلم، فغيَّروا اسمه من تركستان، ومعناها أرض الترك، إلى «شينجيانج»، وتعني «الأرض الجديدة»، ومع أن الحكومة أعلنت أن الإقليم متمتعٌ بالحُكم الذاتي ثقافياً وإثنياً ودينياً ولغوياً، إلا أن ذلك كان مجرد إجراء صوري، فشؤون الحكم يديرها الصينيون من قومية الهان الذين يحتلون ما يوازي ٩٠٪ من الوظائف الإدارية، كما لجأت السلطات إلى تغيير أسماء المدن والشوارع، وجلبت آلاف الأسر من قومية الهان اللادينية إلى تركستان بقصد تغيير التركيبة الديموجرافية، وبعد أن كان المسلمون في تركستان الشرقية يشكِّلون أكثر من ٩٠٪، منهم ٧٨٪ من قومية الويجور التي يبلغ عدد أبنائها ٧,٢ مليون نسمة حالياً، والصينيون من قومية الهان ٦٪ فقط – بحسب إحصاء سنة ١٩٤٢م؛ ارتفعت نسبة الصينيين وباتوا يشكِّلون – بحسب إحصاءات ٢٠٠١م – نحو ٤٠٪ من السكان، وقد أصبح أتباع عرقية الهان يسيطرون على غالبية المصانع والشركات، خاصة بعد اكتشاف آبار البترول بغزارة في المنطقة، فاضطر الإيجوريون إلى امتهان أعمال متدنية، مثل: الخدمة في المنازل، والحِرَف الصغيرة الأخرى.. كذلك قامت السلطات بإنشاء عدد كبير من السجون في المنطقة، وحظرت على من يقضي فترة عقوبته من عتاة المجرمين العودة إلى بلده، وألزمته بالعيش في تركستان، وكان من تداعيات هذه السياسة ارتفاع نسبة الجريمة في تركستان الشرقية بصورة كبيرة.

وخلال سنوات الثورة الثقافية (١٩٦٦ – ١٩٧٦م) تعرَّض المسلمون للتنكيل والتشريد؛ فأُغلقت مساجدهم، وتمَّ تحويل الكثير منها إلى مستودعات للبضائع أو مراكز تجارية، وباتت العبادة تؤدَّى سراً خوفاً من الملاحقة والاضطهاد، وبعد زوال هذه الثورة استردَّ المسلمون مساجدهم ومنشآتهم، ففي شينجيانج وحدها أُعيد فتح أكثر من ١٩٠٠ مسجد، وشهد المسلمون سلاماً نسبياً لم يستمر طويلاً بسبب السياسات الحكومية التي تعمل على محاربة الانتماء الديني لشعب تركستان المسلم، وذلك بالتضييق على أفراده في ممارسة شعائرهم الدينية، حتى إن مجرد بناء مسجد قد يدفع المسلمون ثمناً له عشرات الشهداء والجرحى، ومثال ذلك ما حدث في أبريل ١٩٩٠م في قرية بارين جنوب كاشغر عندما أراد المسلمون بناء مسجد فاعترضتهم السلطات الشيوعية، واشتبكت معهم، وأطلقت

عليهـــم الرصاص، ثم قصفت القرية بالمدافع والطائرات، فبلغ عدد القتلى بضع مئات، واعتُقل أكثر من ١٠٠٠ شـــخص، ولا يـــزال بعض من أُلقي القبض عليهم في الســـجون حتى اليوم. وتشـــير تقارير منظمة العفو الدولية إلى حرمان أفراد الشعب التركستاني من ممارســـة حقوقهم المشروعة؛ كالتعليم، وحرية التعبيـــر والانتقال، إلى جانب الاعتداء البدني عليهم بالمطاردة والاعتقال والقتل أحياناً.

وممَّا يفاقم من أزمة مســـلمي تركستان أن القوانين تحظر تلقـــي التعليم الديني لأقل من ١٨ عامـــاً، فيُمنع التلاميذ في المدارس والجامعات من تأديـــة الصلاة وصوم رمضان وحمل المصاحف أو امتلاكها، فتنشـــأ الأجيال الجديـــدة بعيدةً عن الإسلام ســـوى ما تتلقاه من النزر اليسير في محيط الأسرة، وإمعاناً في طمس الهوية الإســـلامية تم إلغاء اللغة الإيجورية التي تُكتب بالحروف العربية، وكان يستخدمها مسلمو تركستان.

صيغة عادلة:

كانت الحكومـــة الصينية تفرض تعتيمـــاً صارماً على ما يحـــدث في شـــينجيانج حتى تفجَّرت أحـــداث يوليو ٢٠٠٩م، وهي الأعنف من نوعهـــا، حتى إنها اضطرت الرئيس الصيني إلى قطع اجتماعاته في قمة مجموعة الثماني والعودة ســـريعاً إلى بكين لاحتواء الموقف، ورغم تضارب الأنباء حول أســـباب الأحداث التي تزعم المصادر الرسمية أن عناصر الأمن رصدت ثلاثة من الإيجور يحملون ســـكاكين طويلة ويطاردون إيجورياً آخر فقامت بإطلاق النار عليهـــم فقتلت اثنين منهم وأصابت الثالث، وثمة تقارير إخبارية أشـــارت إلى أن الأزمة بدأت من شائعة انطلقت في أحد مصانع مدينة شاوغوان الجنوبية بأن العمال الإيجوريين اغتصبوا فتاتين من قومية الهان تعملان في المصنع، فهجم العمال الهان علـــى زملائهم الإيجوريين فقتلوا اثنين منهم وجرحوا العشـــرات، فثار الإيجور في أورمتشـــي عاصمـــة الإقليـــم وأحرقوا إطـــارات الســـيارات ودخلوا في مصادمات مع الشرطة التي استخدمت الرصاص الحي وقنابل الغاز المســـيل للدموع لتفريق التجمعـــات الغاضبة، وفي اليوم الثالث بدأت حشـــود من عرقية الهان بمهاجمة منازل الإيجور وممتلكاتهم ومســـاجدهم، فأعلنت الســـلطات حظر التجوال، وشددت قبضتها على العاصمة بالآلاف من جنود الجيش.

وأياً كانت الحقيقة وراء نشوب الأزمة ومساراتها المتشعبة، فإن تداعياتها وطريقة معالجتها تمثل أنموذجاً لتعامل السلطات الخشن مع مسلمي تركســـتان، وقد دعت السيدة ربيعة قدير إلى إجراء تحقيق دولي واتهمت الحكومة الصينية باســـتغلال الظرف العالمـــي الذي تجتاحه حمى مواجهة الإرهاب، للتعمية على ما تمارسه بحق المسلمين. وتؤكد ربيعة أن لديها شهادات من أبناء الإيجور بأن حصيلـــة القتلى تصل إلى المئات، وليس ١٨٤ كمـــا تقول إحصاءات الحكومة الصينية. وربيعة قدير لمن لا يعرف، ناشطةٌ مسلمةٌ من شينجيانج تعيش في الخارج منذ ســـنوات، وتتزعم منظمة مؤتمر الإيجـــور العالمية التي تنادي باستقلال التركستان، وتتهمها الصين بالعمالة للغرب.

مـــرة أخرى، وفي أواخر فبراير الماضـــي، تجدد العنف في تركســـتان عندما هاجمت مجموعة مـــن الملثمين الذين يحملون الأســـلحة البيضاء المارةَ في أحد شوارع مقاطعة يتشنج، فقتلت ١٠ أشخاص، ثم تدخلت قوات الشرطة فقتلت ثلاثة من الملثمين، ولم تفصح الســـلطات حتى الآن عن هوية المهاجمين أو أسباب المذبحة التي يضعها المراقبون السياسيون إلى جوار أخواتها في سلسلة الاضطهاد والعنف اللذين يمارسان ضد مسلمي الإقليم منذ سنوات طويلة.

ومن اللافت أن العالم الإســـلامي – باســـتثناء بعض الدول – لا يُظهـــر أي لون من التضامن مع مســـلمي تركســـتان، حتى دول الجوار مثل: كازاخســـتان وقيرغيزســـتان وطاجيكســـتان وأوزبكســـتان وباكســـتان؛ ترفـــض اللاجئين الإيجـــور، ونحن بالطبع لا نطالب العالم الإســـلامي بالتدخل عســـكرياً أو قطع العلاقـــات مع الصين احتجاجاً على ما يحدث في التركســـتان، ولكن على الأقل من الممكن أن تتحرك الدول الإسلامية الفاعلة على المستوى الدبلوماســـي مع الجانب الصيني للتخلي عن تلك الممارســـات العنيفة بحق المســـلمين، وينبغي أن تعمل المؤسسات والهيئات الإسلامية الكبرى لتفعيل القضية على المستوى الدولي للفت الانتباه إلى تلك المأساة الكئيبة التي يعانيها مسلمو الإيجور منذ عشرات السنين.

ويؤكد كثير مـــن المحللين والمراقبين أن مثل هذه الأحداث الدامية مرشَّـــحةٌ للتكرار ربما بعنف أشـــد وقســـوة أعظم ما لم يتم حل أزمة مسلمي الإيجور بشكل نهائي بعيداً عن سياسة العصا الغليظة، والقبضة الحديدية، وعبر مفاوضات وحوار جاد بين السلطات الرسمية ومسلمي تركســـتان؛ للتوافق على صيغة عادلة تحميهم من الممارسات الحكومية العنيفـــة، وتســـمح لهم بالمشـــاركة بفاعلية في إدارة شـــؤون بلادهم، وتحافظ على هويتهم الإسلامية بتخفيف القيود المفروضة عليهم دينياً وثقافياً واجتماعياً، وتعمل على تحسين مستويات المعيشة لأبناء الإقليم المكتظ بثرواته الطبيعية الضخمة.

مرصد الأخبار

جلال سعد الشايب(*)
galal_elshayp@hotmail.com

«بارات رمضان» تثير ضجة في إمارة دبي

تتعرَّض مجلة «تايم أوت» التي تصدر باللغة الإنجليزية في إمارة دبي، لحملة انتقادات إثر إصدارها في نسخة رمضان لائحة بأسماء البارات التي تواصل تقديم المشروبات الكحولية خلال شهر الصوم.

وكانت المجلة، التي تستهدف شريحة المقيمين الأجانب في الإمارة والغربيين تحديداً، قد نشرت قبل بدء رمضان موضوعاً عنوانه: «خمسة للتجربة: بارات في رمضان».

وفجر الموضوع غضب الكثير من الإماراتيين الذين دشنوا حملة # stoptimeoutdubai على «تويتر» الاجتماعي، وحظيت بتفاعل كبير بين المغردين الذين أبدوا عدم رضاهم عن المجلة.

[سي إن إن ٢٠١٢/٧/٢٨]

مرسي يعود من إيطاليا بـ ٢٠٠ مليون دولار استثمارات

في خطوة غير متوقعة لكثيرين؛ تمكّن الرئيس المصري، الدكتور محمد مرسي، من استقطاب ٢٠٠ مليون دولار بعد لقائه وزير الخارجية الإيطالي جوليو تيرسي سانتا جاتا في روما مؤخراً.

وأشار تقرير نُشر على موقع التلفزيون المصري، إلى أن زيارة الرئيس مرسي أدّت إلى الاتفاق على تشكيل مجلس أعمال مشترك بين مصر وإيطاليا وزيادة تدفق السياحة الإيطالية في السوق المصرية وضخ ٢٠٠ مليون دولار في مشروعات تنفذ على أرض مصر في إطار برنامج مبادلة الديون.

[الدستور ٢٠١٢/٧/٢٧]

رومني يصل إسرائيل ضمن جولته الدولية

بعد تصريحاته المثيرة للجدل حول عدم استعداد بريطانيا لاستضافة دورة الألعاب الأولمبية (لندن ٢٠١٢)، وصل ميت رومني المرشح الجمهوري لانتخابات الرئاسة الأمريكية، أمس، إلى إسرائيل، في محاولة لكسب تأييد اليهود الأمريكيين، والمنافسة للفوز في الانتخابات ضد منافسه الديمقراطي باراك أوباما في السادس من نوفمبر (تشرين الثاني).

ويأمل رومني أن توفر هذه الزيارة فرصة لاجتذاب كلٍّ من الناخبين اليهود والإنجيليين المؤيدين لإسرائيل وإظهار التناقض مع الرئيس أوباما الذي تتسم علاقته مع رئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتنياهو بعدم الثبات، علماً أن معظم الناخبين اليهود الأمريكيين يصوتون تقليدياً لصالح المرشح الديمقراطي للرئاسة.

وحمل رومني معه رسالة صارمة بشأن البرنامج النووي الإيراني مع تصريح دان سينور كبير مساعديه لشؤون الأمن القومي بأن رومني يعتقد أن تهديد طهران بصنع سلاح لا بد أن يواجَه بقوة.

وقال سينور في حديثه عن رؤية رومني إنه «لا بد ألا يكون هناك تسامح أبداً إزاء تخصيب اليورانيوم من حيث ارتباطه بإيران»، وهو يعتقد أن التهديد باستخدام القوة يجب أن يكون ذا مصداقية في نظر القيادة الإيرانية.

[أنباء موسكو ٢٠١٢/٧/٢٨]

(*) نرحب بمقترحاتكم البنَّاءة في باب مرصد الأحداث على بريد الكاتب.

توقّعات بزيادة السوق الاستهلاكية في إفريقيا مستقبلاً

توقَّعت شـــركة «ماكينزي» للإحصاء أن يرتفع حجم السوق الاســـتهلاكية في القارة الإفريقية ليبلغ ١,٤ تريليون دولار بحلول عام ٢٠٢٠، الأمر الذي لاقى آذاناً جد صاغية بالنسبة للشركات والمستثمرين الراغبين في الحصول على حصة من الكعكة الإفريقية.

ودفعت هذه الأرقام عديداً من الشـــركات إلى اتباع أســـاليب جديدة في بحثها عن السلع والحاجات الأفضل والمرغوبة لدى المســـتهلك الإفريقي، وفي مقدمة هذه الوسائل إرسال الشركات موظفيها ليقوموا بالاستفسار والاستماع مباشرة إلى المستهلكين من خلال جولات ميدانية في المدن والساحات العامة.

يُذكر أن الأرقام الصادرة عن شـــركة ماكينزي تشير إلى أن مدن جوهانزبيرغ وكايب تاون ولاغوس، إضافة إلى مدينتي الإسكندرية والقاهرة؛ ستكون المدن التي ستتصدر قائمة الأسواق الأكثر استهلاكاً بحلول عام ٢٠٢٠.

وبيَّنت الدراسة أن قطاع الاتصالات والبنوك سينال الحصة الأكبر من حجم إقبال المستهلكين في القارة الإفريقية.

[مواقع ٢٠١٢/٧]

وزير الداخلية الفرنسي يريد تعديل قوانين الجنسية في بلاده

انتقد وزير الداخلية الفرنســـي مانويل فالس في الحكومة اليســـارية، ما أســـماه «المعايير» المعتمدة في الحصول على الجنســـية الفرنسية، والتي جاءت بها الحكومة اليمينية الســـابقة، وتعهد في الوقت نفسه بمراجعتها وفق مقاربة «شريفة وإنسانية»، بحسب ما وصفته جمعية «فرنسا أرض المنفى».

وعبَّر فالس عن ذلك أمام لجنة القوانين في مجلس الشـــيوخ الفرنســـي، الأربعاء، حيث انتقد «المعايير» المعتمدة بهذا الخصوص، واصفاً إياها بـ «التمييزية»، كما أوضح أنه يســـعى لأن يقارب هذا الملف بـ «موضوعية» دون أن يتســـاهل في سياسته تجاه الهجرة.

[فرانس ٢٤ ٢٠١٢/٧/٢٨]

إطلاق اللحى في مصر وحرية التعبير

نشـــرت صحيفة «واشنطن بوست» تقريراً لمراســـلها من القاهرة بشأن إطلاق اللحى، والذي قال فيه إنه أصبح مشهداً عادياً بكل مكان في مصر، حيث كان ممنوعاً في عهد نظام الرئيس المصري المخلوع حسني مبارك.

وأكد مراســـل الصحيفة في تقريره أن المسلمين من الرجال في مراكز الشرطة، والمصارف، والخطوط الجوية، وبرامج التلفزيون الإخبارية، والأماكن الأخرى في جميع أنحاء مصر؛ يطالبون الآن بالســـماح لهم بإطلاق لحاهم، وكما في المقابل تطالب النساء بالحجاب، حيث حُرموا طويلاً من ذلك، إما بالقانون أو بحكم العادة.

ونقل المراسل رأي المتخصص في علم الاجتماع السياسي في مركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية زياد عقل «لقد ذهبت قبضة الدولة في لمح البصر، هناك الكثير من المخاوف ذات الطابع المرضي من الإسلام - الإسلاموفوبيا - في مصر، لأن مبارك لم يكتفِ فقط بالتضييق على المسلمين، بل خلق لهم صوراً كالشياطين». [واشنطن بوست بترجمة الجزيرة ٢٠١٢/٧/١٨]

مرصد الأخبار

«إسرائيل» تبدأ فعلياً ربط البحر الأحمر بـ «المتوسط»

بدأ الكيان الصهيوني فعلياً تنفيذ خطة ربط مدينة إيلات على البحر الأحمر بالبحر الأبيض المتوسط عبر خط سكك حديدية لمنافسة قناة السويس في حركة النقل التي تمر عبر القناة.

فقد كشفت الصحف ووسائل الإعلام الصهيونية عن أن وزير المواصلات الصهيوني «يسرائيل كاتس» حث في العاصمة الصينية بكين خلال زيارته لها مؤخراً المسؤولين الصينيين على المشاركة في أعمال مد السكك الحديدية إلى إيلات، ومن المتوقع وصول خبراء من الصين إلى تل أبيب خلال أسبوعين تمهيداً للمشاركة في العطاء الدولي للمشروع.

وكان نتنياهو قد أكد «إن خط تل أبيب – إيلات سيغيّر في ساعتين وجه البلاد، وإنه يعد قراراً استراتيجياً سيقدم لإسرائيل فرصاً هائلة». [مفكرة الإسلام ٢٠١٢/٧/٥]

(س) و (ج)

س: لماذا يتأخر الغرب في نصرةٍ حقيقيةٍ لسورية؟

ج: كتب روبرت فيسك في مقالة له بصحيفة ذي إندبندنت البريطانية، أن الرئيس بشار الأسد قد يظل في مكانه فترة أطول مما يعتقد خصومه، وبموافقة ضمنية من القادة الغربيين الحريصين على تأمين طرق جديدة للنفط إلى أوروبا عبر سورية قبل سقوط النظام.

ووفقاً لمصدر ملمّ بخطط تتعلق بنقل السلطة من حزب البعث، يسعى الأمريكيون والروس والأوروبيون أيضاً للتوصل معاً إلى اتفاق يسمح للأسد بالبقاء زعيماً لسورية لما لا يقل عن سنتين أخريين، مقابل تأمين النفط والغاز لهم.

وبالنسبة لروسيا، فسيتم طمأنتها باستمرار قاعدتها العسكرية في مدينة طرطوس السورية، والعلاقة مع أيّ حكومة تأتي إلى السلطة بدمشق في نهاية المطاف بدعم من إيران والسعودية.. وتنازُل روسيا في الآونة الأخيرة – بشأن كون الأسد غير أساسي في أي بنية سلطة سورية مقبلة – هو جزء من تفاهم جديد قد يقبل رئاسة الأسد مقابل اتفاق يمنع المزيد من الانحدار إلى حرب أهلية.

والهدف الحقيقي للمحادثات بين القوى العالمية يتمحور حول تصميم الغرب على تأمين النفط والغاز على وجه الخصوص من دول الخليج دون الاعتماد على التموينات من موسكو. ويقول المصدر إن «روسيا يمكن أن تغلق (الحنفية) على أوروبا متى شاءت، وهذا يعطيها قوة سياسية جبارة. ونحن نتحدث عن طريقي نفط أساسيين للغرب: واحد من قطر والسعودية عبر الأردن وسورية والبحر الأبيض المتوسط إلى أوروبا، وآخر من إيران عبر جنوب العراق الشيعي وسورية إلى البحر الأبيض المتوسط ومنه إلى أوروبا، وهذا هو المهم، ولهذا السبب سيكونون مستعدين لترك الأسد يمكث سنتين أخريين إذا لزم الأمر، وسيكونون راضين بذلك تماماً، وسيكون لروسيا مكان في سورية الجديدة».

وأشار فيسك إلى أن الدبلوماسيين الذين ما زالوا يناقشون هذه الخطط ينبغي أن يُعامَلوا ببعض الريبة، فهذا أمر أن تسمع الزعماء السياسيين يدينون بشدة النظام السوري على انتهاكه حقوق الإنسان والمذابح، وذاك أمر آخر مختلف تماماً عندما تدرك أن الدبلوماسيين الغربيين على أتم استعداد لتنحية هذا الأمر جانباً من أجل الصورة الأكبر التي هي كالعادة في الشرق الأوسط تعني إمدادات النفط والغاز. [بتصرف من الجزيرة نقلاً عن صحيفة ذي إندبندنت البريطانية ٢٠١٢/٦/٢٩]

أكدت الأمم المتحدة أن أكثر من ٥,٢ مليون شخص ما زالوا يواجهون الخطر في الصومال بعد عام على المجاعة.

وقال مارك بودين، منسق الأمم المتحدة للشؤون الإنسانية في الصومال، «إن ٢٣٢ ألف طفل أو خُمس الأطفال الذين تقل أعمارهم عن الخمس سنوات ما زالوا يعانون سوء التغذية في هذا البلد الذي شهد حرباً أهلية استمرت عقدين ويواجه موجات جفاف مزمنة وسوء تغذية حاداً». [شبكة البي بي سي ٢٠١٢/٧/١٧]

حذرت منظمة العمل الدولية من أن منطقة اليورو قد تفقد ٤,٥ مليون وظيفة خلال الأربع سنوات القادمة إذا لم تبتعد المنطقة عن سياسات التقشف.

وقد تصل هذه الزيادة بمعدلات البطالة في منطقة اليورو التي تضم ١٧ دولة، إلى ٢٢ مليون شخص، وقد وصلت معدلات البطالة فعلياً في منطقة اليورو إلى ١١,١ في المائة في شهر مايو الماضي، وذلك وفقاً للأرقام الرسمية من منظمة يوروستات الأوروبية، وهو ما أدى إلى رفع إجمالي عدد الأشخاص الذين يعانون البطالة إلى ١٧,٥ مليون شخص، وهي النسبة الأعلى لمعدلات البطالة منذ بدء تسجيلها في عام ١٩٩٥.

وفي إسبانيا، التي تعاني أعلى معدلات للبطالة في منطقة اليورو، يوجد شخص من بين كل أربعة أشخاص دون عمل.

وبلغ معدل البطالة بين الشباب في منطقة اليورو ٢٢,٦ في المائة في مايو الماضي، ما يعني أن هناك ٣,٤ مليون شخص أقل من ٢٥ عاماً بلا عمل. [العربية نت ٢٠١٢/٧/١١]

تراجعت أعداد العاملين من الأجانب في مصر خلال عام الثورة ٢٠١١، ليصل عدد الأجانب العاملين في القطاعين الحكومي والعام وقطاع الأعمال العام إلى ٦٧٥ أجنبياً من مختلف الجنسيات عام ٢٠١١، مقابل ٨٧٠ أجنبياً عام ٢٠١٠، بنسبة انخفاض ٢٢,٤٪.

وقال جهاز الإحصاء: «إن الوافدين من الدول الأوروبية يستحوذون على الجانب الأكبر من الأجانب العاملين، حيث بلغ عددهم ٣٣٧ أجنبياً بنسبة ٤٩,٩٪ من إجمالي عدد الأجانب العاملين في القطاع الحكومي والقطاع العام عام ٢٠١١، تليها مجموعة الدول العربية بعدد ١١٦ أجنبياً بنسبة ١٧,٢٪، ثم مجموعة الدول الآسيوية «غير العربية» بعدد ١٠٠ بنسبة ١٤,٨٪، بينما تمثل مجموعة الدول الإقيانوسية – جزر المحيط الهادي، أقل الأعداد، حيث بلغ العدد ٤ أجانب فقط بنسبة ٠,٦٪. [جريدة المصري اليوم ٢٠١٢/٧/٥]

أكدت تقارير صحفية مصرية نُشرت في وسائل الإعلام مؤخراً، أن هيئة الأمن القومي – التابعة لجهاز المخابرات – أجرت تحرياتها بشأن البلاغات المقدمة ضد الرئيس المصري السابق حسني مبارك، والتي تتهمه بالاتجار في السلاح، وكشفت عن امتلاك مبارك شركة «وايت وينجز» بالشراكة مع رجل الأعمال حسين سالم ومنير ثابت شقيق زوجته.

وبحسب صحيفة «مصراوي» فإن ١٩ بلاغاً تم تقديمها في القضية رقم ١ لسنة ٢٠١١، والذي يباشر التحقيق فيها مكتب النائب العام.

ورصدت التحقيقات من خلال تلك البلاغات مجموعة من التهم في حق الرئيس السابق محمد حسني مبارك تتمثل في بلوغ ثروة مبارك ٧٠ مليار دولار في البنوك السويسرية والبريطانية والأمريكية، وأنه قام بتهريب معظم أمواله عن طريق مجموعة أيكوترايد المصرفية في سويسرا.

وثبت بما لم يدع مجالاً للشك أن مبارك حوّل مبلغاً مالياً يقدر بنحو ٥٠ مليار جنيه مصري في ٢٥ يناير ٢٠١١ بأسماء مستعارة، بخلاف امتلاكه ثروة عقارية في مصر تقدر بمبلغ ٣٥ مليار جنيه تم جمعها نظير استغلال نفوذه هو وأسرته.

وذكرت التحقيقات وجود حسابات سرية له في البنك الأهلي، فرع مصر الجديدة، على النحو التالي: «٤٥,٧٣ مليون جنيه على حساب رقم ١٠٠٠٨٢١١١٣، ٤١,٨٥٦,٦٧ مليون جنيه على حساب رقم ٥٠٠١٨٢١١١٩، ١٠,٤٩٦,٧٨٦ مليون جنيه على حساب رقم ٥٠٠٠٠٨٢١١١».

[الإسلام اليوم ٢٠١٢/٧/٢٨]

أكد الناشط البورمي محمد نصر في اتصال هاتفي مع «العربية. نت»، أن الحصيلة الأولية لحرب الإبادة التي تشنها مجموعة «ماغ» البوذية المتطرفة على المسلمين بلغت ٢٥٠ قتيلاً وأكثر من ٥٠٠ جريح وقرابة ٣٠٠ مخطوف.

وأضاف أن ميليشيات الماغ البوذية المتطرفة دمرت أكثر من ٢٠ قرية و١٦٠٠ منزل، وأن آلاف الأشخاص فروا من القرى التي أُحرقت على مرأى من قوى الأمن العاجز.

وأكد أن المسلمين في إقليم أراكان ذي الغالبية المسلمة، شرعوا في تنفيذ أكبر عملية فرار جماعي إلى دولة بنغلاديش المجاورة عبر السفن، لكن السلطات ردت بعضهم بعدما وصل عدد اللاجئين فيها إلى نحو ٣٠٠ ألف ينتمون إلى قومية الروهينجيا المسلمة. [شاشة العربية ٢٠١٢/٦/٢٩]

المسلمون في ميانمار وتخاذل العالم الإسلامي

د. أحمد محمود السيد
mr.ah54@hotmail.com

تقع دولة ميانمار في الجنوب الشرقي لقارة آسيا، ويحدُّها من الشمال الصين والهند، ومن الجنوب خليج البنغال والهند وبنغلاديش، ويبلغ عدد سكانها أكثر من ٥٠ مليون نسمة، وتُقدَّر نسبة المسلمين بـ ١٥ ٪ من مجموع السكان (نحو ٧ ملايين مسلم).

دخل الإسلام هذه الدولة عن طريق (أراكان) – ولاية ضمن جمهورية بورما، والتي تضم أكبر تجمّع لأهل هذا البلد – في القرن الأول الهجري عن طريق الصحابي الجليل وقّاص بن مالك رضي الله عنه، وهناك مؤرخون يقولون إنّ الإسلام وصل إليها عبر (أراكان) في عهد الخليفة العباسي هارون الرشيد – رحمه الله – في القرن السابع الميلادي عن طريق التجار العرب، حيث أُعجب أهل بورما بأخلاقهم فدانوا بدينهم، وعملوا في الزراعة في البدء، ثم هيمنوا على التجارة واستوطنوا في كثير من البقاع، حتى أصبحت بعد ذلك دولة إسلامية حكمها ٤٨ ملكاً مسلماً على التوالي ما بين عامي ١٤٣٠ – ١٧٨٤م، وكان لهم عملات نقدية تتضمن شعارات إسلامية مثل كلمة التوحيد.

تعتبر أراكان ركناً من بورما، وتمثّل أكبر تجمّع إسلامي فيها، كما يوجد تجمّعات أخرى للمسلمين في كل من: (ماندلي وديفيو وشاه ومكاياه والعاصمة رانجون) وغيرها، حيث يقع على تلك التجمّعات أعظم ضغط جماعي مِن قِبل حكومة بورما العسكرية. أما العنصران الأساسيان من سكانها والموجودان فيها حالياً هما: (الروهنجيا) الذين يدينون بالإسلام ويتحدّرون من جذور عربية وفارسية وهندية وتركية، أما لغتهم فخليط من البنغالية والفارسية والعربية؛ و(الماغو) الذين يؤمنون بالبوذية، إضافة إلى أقليات عرقية متعددة. احتُلت أراكان من قِبَل الملك البوذي (بوداباي) عام ١٧٨٤م الذي قام بضم الإقليم إلى بورما خوفاً من انتشار الإسلام في المنطقة، واستمر البوذيون البورميون في اضطهاد المسلمين ونهب خيراتهم وتشجيع البوذيين الماغ على ذلك طِوال فترة احتلالهم.

في عام ١٩٣٧م جعلت بريطانيا بورما مع (أراكان) مستعمرة مستقلة عن حكومة الهند البريطانية الاستعمارية كباقي مستعمراتها في الإمبراطورية آنذاك، وعُرفت بحكومة بورما البريطانية.

وفي عام ١٩٤٨م، منحت بريطانيا الاستقلال لبورما شريطة أن تمنح لكل العرقيات الاستقلال عنها بعد عشر سنوات إذا رغبت في ذلك، لكن البورمان نكثوا عهدهم.

جانب من مآسي المسلمين في الوقت الحاضر:

– يطوف الجنود البورماويون وهيئات التنفيذ القضائي وسفاحو (الماغ) البوذيون بأنحاء القرى المسلمة، حيث يقومون بإذلال كبار السن وضرب الشباب المسلم ودخول المنازل وسلب الممتلكات.

– حرمان أبناء المسلمين من مواصلة التعلُّم والتنقل من مكان إلى آخر دون تصريح الذي يَصعُب الحصول عليه.

– فرض الضرائب، ومصادرة الأراضي وقوارب الصيد، ومنع بيع المحاصيل إلا للعسكر أو من يُمثّلهم بسعر زهيد، ولا تسمح الحكومة بطباعة الكتب الدينية وإصدار المطبوعات الإسلامية، كما تقوم بإرغام المسلمين من النساء والرجال والعلماء على العمل في معسكرات الاعتقال.

المراجع:

- **محمد بن ناصر العبودي، بورما.. الخبر والعيان.**
- **موقع شباب أراكان.**
- **تقرير منظمة العفو الدولية عن وضع المسلمين في ميانمار وعن المذبحة الأخيرة يوليو ٢٠١٢.**

تنبُّؤات صهيونية سوداوية بشأن اتفاقات التسوية

د. عدنان أبو عامر(*)
adnanaa74@hotmail.com

كان للثورات السلمية في العالم العربي تأثيرات عديدة تتعلق بأنها ضربت العديد من المسلَّمات التي سادت الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، وأحدثت تغييراً سياسياً عميقاً، ولها قدرة كامنة على تغيير وجه المنطقة، ومن بينها: علاقات «إسرائيل» مع جيرانها العرب، والاتفاقات الرسمية بينهما، وبقيت صامدة سنوات عديدة.

ويوجد بين «إسرائيل» وجيرانها العرب ٤ اتفاقات قائمة حتى اليوم، وهي:

١- اتفاق فصل القوات مع سورية منذ عام ١٩٧٤.

٢- معاهدة «كامب ديفيد» مع مصر منذ عام ١٩٧٩.

٣- اتفاق أوسلو مع الفلسطينيين منذ عام ١٩٩٣.

٤- معاهدة «وادي عربة» مع الأردن منذ عام ١٩٩٤.

وقد طرحت الثورات في العالم العربي علامات استفهام حول فرص بقاء واستمرار هذه الاتفاقات، والقدرة على الصمود في وجه ضغوط القوى السياسية التي عارضتها في الماضي، بل ورفضت الاعتراف بـ «إسرائيل».

● مصير «كامب ديفيد»:

يرى الصهاينة أن معاهدة السلام مع مصر كفيلة بأن تكون حالة اختبار أولي لتأثير الثورات في العالم العربي، وتعمل كورقة فحص لباقي الاتفاقات، انطلاقاً من الافتراض بأن هناك حكومات عربية أخرى ستسير في أعقاب سلوك النظام الجديد في مصر على نفس النهج، خاصة أن الاتفاقية محاولة للتوازن بحذر بين مطالب ومصالح الطرفين.

ويتساءلون: هل تحتاج مصر في ظل وجود نظام حكم إسلامي لأن تغير معاهدات السلام مع «إسرائيل» لقطع علاقاتها معها؟ معتبرين أي خطوة مصرية أحادية الجانب لإلغاء العلاقات الدبلوماسية خرقاً واضحاً للمعاهدة، وتوجد احتمالية عالية بأن يتخذ الكونجرس الأمريكي عدة خطوات ضد مصر.

هنا يمكن الحديث عن تقييد القوات المصرية في سيناء التي تطرح مسائل أكثر تعقيداً، فقد كان لـ «إسرائيل» مصلحة حيوية ألا تكون في سيناء قوات مصرية ذات قدرة هجومية ترابط على مسافة قريبة من الحدود معها، مع منح إذن للمصريين بأن يحتفظوا بقوة مهمة في غربي سيناء، بما فيها فرقة واحدة من سلاح المشاة، و٢٢ ألف جندي، وعدد من المدرعات والمدفعية والصواريخ المضادة للطائرات، وعدد معين من وحدات حرس الحدود وسط سيناء، وفي المناطق القريبة من الحدود مع «إسرائيل»، وعدد غير محدود من الشرطة المدنية.

وقد أتاح هذا الأمر إعادة شبه جزيرة سيناء للسيادة المصرية الكاملة، وتشكلت فيها قوة متعددة الجنسيات من المراقبين مهمتها المراقبة والإشراف على القوات دون امتلاك

(*) كاتب فلسطيني.

صلاحيات عملية تنفيذية.

وقد أفـرزت الانتخابات الأخيرة في مصـر التي انتهت بانتصـار جارف للإسـلاميين، توتراً بين الميـل الأيديولوجي للإسـلاميين بتحرير مصر من التزامات المعاهدة، وبين الآثار السياسـية والاقتصادية لهذه الخطوة، وسيجدون أنفسهم وراء مقـود الحكم والمشـاكل الاقتصادية الهائلـة لمصر تضاعفت وتفاقمت.

ومع ذلك، فإن الاستنتاج المحتم أن على «إسرائيل» أن تُعد نفسـها لطلب مصري لمفاوضات معادة على الملحق العسكري للمعاهدة، وإذا كانت مطالبها معقولة، فسـتتصرف بحكمة إذا ما وافقت عليها.

كمـا أن الحصول على مصادقة متجددة لمعاهدة السـلام من حكومة الإخوان المسـلمين سيحقق مكاسب سياسية كثيرة تتجاوز علاقات مصر بـ «إسرائيل» في كل الأحوال.

وهنا تعتقد إسرائيل أن واجب الولايات المتحدة أن تواصل جهودهـا للحفاظ على المعاهدة، ومنع المس بها، والحيلولة دون تدهور العلاقات الصهيونيـة – المصرية كنتيجة لمطالب مبالغ فيهـا لتغييرها، فالمسـاعدات الأمنية السـنوية من الولايات المتحـدة لمصر بمليـاري دولار، والدور العظيـم لنفوذها في المؤسسـات المالية الدولية؛ سـيؤثران بلا شـك على موقف القاهرة من «كامب ديفيد».

● العلاقات مع الأردن:

بالحديث عن معاهدة السـلام الصهيونية – الأردنية، فقد أوجدت قيوداً على نشـر القوات، وتسويات إقليمية في منطقة وادي عربـة، وهي تواجه معارضة قوية في الأردن منذ أن وقّع عليها، بمشاركة أجزاء واسعة من الفلسطينيين، ومحافل دينية واتحادات مهنية.

لكـن الاحتجاجات الحالية ضد الحكومة منذ بداية ٢٠١١ لـم تجعل المعاهدة مسـألة مركزية فـي مطالبها، لأن موقف الأردن من المعاهدة سـتُمليه بقدر كبير مصالح اسـتراتيجية حيويـة، ونظرة أمنية بعيدة المدى، ومسـائل المياه، والعلاقات مع الولايات المتحدة، والدور الذي يراه لنفسـه في القدس، ما يُملي عليه الحفاظ على المعاهدة، وإن جرى تطبيقها بمسـتوى منخفض فقط.

كما أن نجاح الملك الأردني في صد الضغوط لإلغاء المعاهدة سـيكون منوطاً ببعض التطورات المتعلقة بالمسـيرة السياسية الصهيونية – الفلسـطينية، ومساهمة «إسرائيل» في الاقتصاد الأردني، والتعاون الثنائـي في مواضيع المياه، والطاقة، والبنى التحتية، ومشاريع اقتصادية مشتركة، ما سيشكل حاجزاً يحمي المعاهدة في وجه الضغوط التي تُمارس عليها.

● مصير السلطة الفلسطينية:

كان للانتفاضـات في العالم العربـي أن تعقّد أكثر فأكثر الأمور في سـاحة المفاوضات الصهيونية – الفلسطينية، فقد شرعت في فترة طويلة من عدم الاستقرار وعدم اليقين، خاصة أن محاولات حركتي فتح وحماس للوصول لمصالحة تلقت زخماً في أعقاب الثورات، ما يشكل تهديداً جدياً لاتفاقات أوسلو.

وهنـاك حاجة للحفاظ على أسـاس قانوني وإطار لإدارة التعايش الصهيوني – الفلسـطيني وشـكله، من خلال اتفاق انتقالـي جديد بين الجانبين كخطـوة في خريطة طريق متفق عليها وصولاً إلى حل الدولتين.

مع العلم أن غياب اتفاقات أوسـلو سيخدم من يعارضونه في الجانبـين، ويضيف انعداماً آخر للاسـتقرار في المنطقة التي تختبر على أي حال ظروفاً جديدة وحساسـة، محذراً من خيار حل السلطة الفلسطينية الذي من شأنه أن يُدخل المنطقة بأسرها في وضع جديد من الفوضى.

● فصل القوات مع سورية:

يـرى الصهاينـة أن ذلك الاتفاق مع سـورية صمد لفترة زمنية طويلة للغاية مع كل دولة عربية مجاورة أخرى، حتى في ظل التوتر مع لبنان وحربي ١٩٨٢ و٢٠٠٦ لم يمسـه الطرفان، وامتنعا عـن خرقه، وعن مواجهة مباشـرة بينهما في هضبة الجولان.

وفي ظل أن النظام السوري يقاتل حالياً ضد المعارضة في بلاده، ورغم أكثر من ٢٢ ألـف قتيل وعدد أكبر من الجرحى، لا يبدي أي مؤشـر على التنـازل، ولو حصل أمر سـقوطه، فسيستغرق النظام الجديد زمناً طويلاً لتستقر الدولة السورية، وتوجـد احتماليـة عاليـة أن تتنازل الحكومـة الجديدة عن العلاقات الخاصة مع إيران، وربمـا تقطعها تماماً، ويمكن أن تتخذ موقفاً مشابهاً من «حزب الله».

وهنا قد تتبنى حكومة «إسـرائيل» نهجـاً ديناميكياً تجاه الثـورات في العالم العربـي، وأن تبحث فيها عن الفرص، وإن كانت اليوم افتراضية فقط.

الانتظار المخيف

جميلة بحر

نظر حمزة حوله علَّه يستطيع أن يميِّز شيئاً ما في غرفتهم الغارقة في الظلام الدامس الذي يغرق فيه حي بابا عمرو!! فجأة شقَّ وهج ناري ساطع حلكة الظلام واقتلعه من أفكاره، ثم تلاه صوت انفجار هزَّ المكان.. صرخ مازن بالقرب منه هلعاً - من قوة الانفجار.. فأسرع حمزة وكمَّم فمه هامساً: لا تصرخ فيسمعك جنود الأسد ثم يأتوا ويقتلونا.. تهدج صوت مازن - ذي الثلاث سنين - ينتحب بشهقات مخنوقة ملؤها الفزع.

وضعت الأم الشابة صغيرتها الرضيعة في مهدها بالقرب منها وقربت صغيريها إليها.. وهمست: لا تخافا إن الله معنا ولن يتركنا وسينجينا من بطشهم وظلمهم.. ازداد دوي الانفجارات تحت وطأة المدافع التي تضرب بعشوائية وبصورة متلاحقة هنا وهناك.. يعززه هدير الرصاص مغتصباً من السكون سمته ومبدداً الشعور بالأمان.. لقد توالت الليالي المخيفة منذ أكثر من عام، لكن هذه الليلة تبدو الأطول والأسوأ.

اندفع صوت الجدة المقعَدَة الطاعنة في السن: عاصم.. عاصم.. أين عاصم؟ ألم يعد عاصم؟

أشفقت الأم الشابة على والدة زوجها القلقة التي لم تكف عن تكرار السؤال نفسه منذ حلول الظلام.. أخذت الأم الشابة تُدافع أفكارها المتلاطمة المضطربة: لا يا أماه لم يعد بعد!! اسألي الله له السلامة ولا تجزعي، فلا بد أن يكون بالقرب من هنا.. في مكان ما، لكن هذا القصف العنيف حال بينه وبين القدوم إلينا!!

ردت الجدة بلوم على زوجة ابنها: أنت التي تدفعينه للمخاطرة بحياته عوضاً عن المكوث بين أبنائه يطمئنون بوجوده ويستأنس هو معهم، ثم أردفت بإصرار الأم الحرة وحرقة العاجز: والله لو كنت أستطيع المشي على قدمي هاتين لخرجت أبحث عنه وأحضرته يجلس بيننا أو أموت دونه.

تشتت أفكار الزوجة وتفطر قلبها حزناً، ثم قالت: أنت تعرفين ابنك أكثر مني، لا شيء يثنيه عن أداء واجبه مهما كانت الظروف.

همس حمزة متسائلاً: يا جدة.. من يداوي المصابين والجرحى الذين يتألمون وينزفون حتى الموت إن جلس أبي بيننا؟.. من يساعدهم إن لم يساعدهم أبي وقد أخبرنا أنه لا يوجد دواء كافٍ لهم في المستشفى الميداني.. فكيف إن لم يوجد هناك طبيب أيضاً؟!

نظرت الأم إلى صغيرها الذي التصق بها وقد تشرَّب أفكار أبيه، فازداد قلبها خفقاناً.. ضمّت ابنيها إلى صدرها وقد انفلت زمام دموعها فتساقطت على وجه حمزة.. مسحت جبينه المبلل بيدها وقبّلته.. بادرها حمزة بالسؤال: أمي.. لماذا تبكين؟ أبي بطل وسيعود إلينا بعد أن يداوي الجرحى ويطمئن على المصابين.. لعقت الأم شفتيها ثم بلعت ريقها المملح من دموعها وقالت: نعم يا بني إن أباك بطل وأنت كأبيك - بطل مثله.. تمتمت: إن غاب أبوك عنا فأنت هنا رجل البيت!!

تأوّهت الجدة من جديد وقالت: يا رب احمِ لي ابني.. يا رب خذ عمري وأعطه حتى يرجع لأبنائه.. يا رب.. غابت دعوات الأم العاجزة مع دوي المدافع الذي أمسى قريباً منهم.. تخبطت الأم الشابة في أفكارها واعتراها الخوف فضمت ابنيها.. التصقت بركن الغرفة أكثر، فالقصف بات على مقربة منهم.. سمعت بعض الصرخات تبدو وكأنها من بيت أبي لؤي أو منزل الحاج مصطفى في بداية الشارع المؤدي لمنزلهم!! تراءت صورة الحاج وبناته الست وشعورهم بالفزع يمزق وجدانها.. شعرت بالرعب، لا سيما أنه لا يوجد سوى الحاج مصطفى لحماية بناته إن هجم عليهن أوباش الأسد!!.. اعتصر فؤادها كمداً وغماً ودعت: يا رب سلمنا واحفظ أعراضنا وصن كرامتنا يا أرحم الراحمين.

صوت القصف كان مخيفاً!! فما أن تسقط قذيفة حتى يعلو الصراخ، ثم يختفي، وكأن القاطنين في الدار قضوا نحبهم!! أدنت طفليها منها أكثر ومدت يديها تنتشل رضيعتها التي انفجرت بالصراخ.. لكنها فجأة غابت عن الوجود وطواها الصمت.

فتحت الأم الشابة عينيها فإذا بالشمس قد توسطت كبد السماء وسطعت في عينيها.. أغمضتهما من الوهج المفاجئ، ثم فتحتهما من جديد وهي تشعر بإعياء شديد لعلها تدرك أين هي الآن!! فإذا بمنزلهم بلا سقف وقد تلاشت معالم غرفتهم إثر الدمار الذي لحق بها.. أغمضت عينيها وتدحرجت دمعات ساخنة.. امتدت يد قد ألفتها تمسح الدمع المتساقط.. فتحت عينيها فإذا بزوجها ينظر إليها بحنو وإشفاق ويزيح التراب المتراكم عن جسدها النحيل.. غمرت السعادة قلبها وابتسمت رغم الألم الذي كان يعتريها.. استشعرت الأمان رغم الدمار حولها.. حاولت النهوض لكن الألم كان أعظم من قواها الخائرة وجسدها المتهالك.

همس الزوج بحنان ممزوج بالألم: الحمد لله أنت بخير، لكن حاولي تحريك قدميك.. أخذ يساعدها على مد وثني قدميها الواحدة تلو الأخرى ليحدد مدى الإصابة التي لحقت بها وهي تتأوه من الألم.. نظر إليها وقال يطمئنها: الحمد لله أنت بخير، مجرد رضوض.

قاطعته وسألت باضطراب: أين أطفالي؟ هل هم بخير؟ أجاب بهدوء: الحمد لله.. نعم.. إنهم بخير.. واستطرد يقول: هل تستطيعين النهوض؟ شعرت أن مكروهاً ما قد حلَّ بأطفالها.. تراجعت بوهن للخلف وسألت بقلق: عاصم.. أين هم؟ هل حدث لهم أي مكروه؟ أجبني.. نظر إليها بإشفاق وقال: الحمد لله.. حمزة ومازن بخير وقد أصيبا ببعض الرضوض، لكنهما بخير.. حاولت أن تستشف الحقيقة من وجهه المنهك المجهد.. سألت بسرعة: ودعاء؟! تجاهل سؤالها وقام بتحريك قدميها.. أرخت قدميها وأبت تحريكهما حتى يجاوبها.. رددت من جديد: هل دعاء بخير؟ أجابها وقد أعياه التعب والإرهاق: الحمد لله هي بخير، ولا بد أن تكون بخير، فقد اصطفاها الرحمن عنده وترك لنا حمزة ومازن.. الحمد لله على كل حال.

تمتمت الزوجة وقد بدأ الدمع ينهمر منها مجدداً: الحمد لله.. جالت بنظرها من جديد في الغرفة المدمرة.. السرير الذي أمامها كان مليئاً بالقطع الأسمنتية المتناثرة!! فتسألت: أين والدتك؟ هل هي بخير؟

أجاب بإيمان وثبات: أسأل الله تعالى أن تكون بخير، ويوسع مدخلها، ويكرم نزلها، ويتقبلها عنده من الشهداء الأبرار.. أخذ يمد قدميها ويثنيهما من جديد.. شعرت بالتأنيب والألم لإلحاحها بالسؤال عن أطفالها ونسيانها الاطمئنان على والدته.. نظرت إليه بإكبار.. مدَّ يديه نحوها ثم أمسك بها ينتشلها من بين الركام.. وهي تتحامل على نفسها - من شدة الألم - للوقوف.. ثم همست له: كم أنت عظيم يا عاصم!!

الموقف من الإعلام

د. عطية عدلان

مَن المسؤول عن هذه الحالة من الانقسام والفوضى الفكرية والحمى الكلامية التي يعيشها الآن الشارع المصري؟ مَن الذي وراء زعزعة الثوابت وزلزلة القناعات وإشاعة الشكوك وزراعة الظنون إلى حدٍ يبلغ عند بعضهم مرتبة الكفر بالثورة والردة عن مبادئها، وعند آخرين يصل إلى التسوية بين من شهد التاريخ لهم بأنهم أول وأكبر من ناضل الفساد والاستبداد وبين رموز الفساد وأنصاره ومعاونيه؟

لا يختلف اثنان على أن الإعلام الرديء هو المسؤول الأول عن كل هذه الكوارث غير الطبيعية، وأقول: الإعلام الرديء؛ لأخرج من التعميم الذي قد يظلم فئة من الإعلاميين أحسبها نادرة ندرة الحنفاء في أزمان الفترة.

الإعلام الذي يتعمَّد الكذب والتضليل، ويحترف نشر الأكاذيب والأباطيل، ويجتهد في تدمير العقول والمشاعر والأخلاق والضمائر اجتهاد الجيوش الغازية في تدمير العمران وسفك الدماء وإزهاق الأرواح.. ما موقفنا من هذا الإعلام، وكيف نتعامل معه؟

لا بد أن نستدعي الماضي الذي شهد معركة كان للإعلام فيها دور مشابه للدور الذي يقوم به الآن، الماضي الذي يجب أن نأخذ من أحداثه العبرة والمثل في كل ما نأتي ونذر، وهو زمن النبوة.

أكان في زمن النبوة إعلام؟!

أجل، كان هناك إعلام، وكان يمضي على المحاور ذاتها التي يمضي عليها الإعلام الآن، وإلى الغاية ذاتها التي يتغياها، لكن الاختلاف – فقط – في الآليات والأدوات والأمور التقنية الفنية، فلا شك أنها كانت بسيطة ببساطة الحياة آنذاك، وسأضرب مثالاً واحداً لإحدى أدوات الإعلام الجاهليّ القرشيّ، وهي التي نزل فيها – على أحد وجوه التفسير – قول الله تعالى من سورة الحجر: ﴿كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ۝٩٠ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ [الحجر: ٩٠ – ٩١]، هؤلاء المقتسمون تقاسموا الأدوار لممارسة الضغط الإعلامي على الدعوة الإسلامية وصاحبها، فقد روى المفسرون في سبب نزول الآية أن الوليد بن المغيرة وزَّع ستة عشر رجلاً على أعقاب مكة وأنقابها وفجاجها ليستقبلوا الوافدين عليها في موسم الحج من شتى جهات الجزيرة العربية، وتقاسموا القول في القرآن وجعلوه عِضين، فهؤلاء يقولون: سحر، وهؤلاء يقولون: كهانة، وهؤلاء يقولون: شعر يؤثَر، وهؤلاء يقولون: أساطير الأولين، كلٌّ حسب مزاج الوافدين من جهته من قبائل العرب وبطونها، فإذا ما انتهى الناس إلى الكعبة وجدوا على بابها شيخاً كبيراً هو الوليد بن المغيرة، فسألوه عما يقول هؤلاء فيجيب – بالطبع – قائلاً: صدق هؤلاء[1].

ولقد بلغ الأمر بالطفيل بن عمرو الدوسي أن حشا أذنيه بالكرسف (القطن) حتى لا يسمع محمداً ﷺ[2].

وعليه؛ فقد وجدنا ضالتنا: ما مدى تأثير الإعلام في دعوة الحق وأهل الحق؟ وما المحاور التي مضى عليها الإعلام آنذاك؟ وكيف واجه النبي وصحابته والخلفاء الراشدون من بعده خطر هذا الجهاز الخطير؟

من تأمل القرآن الكريم وهو يواجه الحرب الضروس التي شنتها الجاهلية ضد النبي ﷺ ودعوته، علم كم كان خطر الإعلام يومها، وكم كانت ضراوته، فمنذ اللحظة الأولى للجهر بالدعوة تناول القصف الإعلامي شخص رسول الله ﷺ ودعوته بالتجريح والتشكيك والطعن والافتراء، فقالوا عن النبي ﷺ الذي نشأ فيهم وعرفوا صدقه وأمانته؛ قالوا عنه: ساحر، شاعر، كذاب، ومجنون، وقالوا عن القرآن: سحر يؤثَر، شعر، وأساطير الأولين.. واستجابة وتجوباً مع صيحة الملأ: ﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ [ص: ٦]، انطلقت الآلة الإعلامية تفتري الكذب وتنشره في الآفاق: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَـذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْماً وَزُوراً ۝٤ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ [الفرقان: ٤ – ٥]، ﴿وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٧]، ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾ [الطور: ٣٠]، ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾ [الطور: ٣٣]، ﴿وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

ومن الأمثلة الصارخة على تأثير الحملات الإعلامية في تثبيت المفتريات وغرسها في المجتمعات، أن فرية الغرانيق العلا تسللت إلى كتب التفسير، ووصلت إلينا، وراجت عند بعضهم حتى راحوا يلتمسون التأويلات لها، وما كان هذا ليحدث لولا أن الإعلام الجاهلي نجح في إدخالها وتثبيتها في عقليات لم تستطع أن تتخلص من سلطانها، مع أنها فرية لا أساس لها، فالذي حدث ورواه الثقات أن رسول الله ﷺ لما نزلت عليه سورة النجم تلاها على مسامع الملأ من قريش بالمسجد الحرام، وسورة النجم لها سلطان على القلوب والمشاعر، فلم يستطع القوم لهذا السلطان دفعاً، ولم يتمالكوا أنفسهم لدى ختمها بآية السجدة أن خروا ساجدين، فلما أفاقوا أُسقط في أيديهم وخافوا أن يكون هذا الصنيع فتنة للسفهاء منهم، فاختلقوا هذه الفرية، وأذاعوا عبر وسائل إعلامهم التي بلغ بثها المهاجرين إلى الحبشة؛ أن محمداً ذكر آلهتهم بخير، لتقع مصالحة بذلك بين الإسلام والجاهلية، فقرأ: «أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتهن لترتجى».

ولما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة، وصارت له دولة وقوة، لم يسلم أيضاً من كيد الإعلام، بل إن الواقع يشهد بأن القصف الإعلامي تضاعف بسبب انضمام إعلام يهود وإعلام ابن سلول لإعلام قريش، وانطلق الإعلام يمارس دوره على المحاور ذاتها التي يمارس عليها الإعلام المعاصر الدور ذاته، فلم يقتصر دور الإعلام على التشكيك والافتراء والطعن والتجريح وخلخلة الثوابت، بل تعداها إلى الإرجاف وإشاعة الفاحشة وتمزيق المجتمع.

لذلك – وعلى أثر إرجافهم في غزوة الأحزاب وقولهم: ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً – أنزل الله قوله محذراً من قرار حاسم يمكن أن يتخذ ضدهم من القيادة السياسية: ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلا قَلِيلاً ۝٦٠﴾ [الأحزاب: ٦٠].

ولدى عودة الجيش الإسلامي من غزوة المريسيع وقعت

(١) انظر تفسير القرطبي ١٠/٥٨.

(٢) راجع السيرة النبوية لابن كثير ٢/٧٢.

حادثة أســـاء إعلام ابن أبيّ استغلالها، وذلك حين تنـــازع اثنان من المســـلمين علـــى الماء، أحدهما من المهاجريـــن والآخر من الأنصار، حتـــى علا صوتهمـــا بصيحـــة الجاهلية: يا للمهاجريـــن يـــا للأنصار، فلعـــب إعلام ابن ســـلول على وتر العصبية وأراد غرس الفتنة والفرقـــة، وراح يذيع في الأنصار: أنتم الذين أسكنتموهم دياركم وقاسمتموهم أموالكم، ما نحسبنا وإياهم إلا كما قال الأول: سمّن كلبك يأكلك، والله لئن أمســـكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم[1]، ما كان سبباً لنزول الآيات: ﴿هُـــمُ الَّذِينَ يَقُولُـــونَ لا تُنفِقُـــوا عَلَى مَنْ عِندَ رَسُـــولِ اللَّهِ حَتَّى يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِـــينَ لا يَفْقَهُونَ ۝٧ يَقُولُونَ لَئِـــن رَّجَعْنَا إِلَـــى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَـــزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُـــولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِـــنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٧ – ٨].

ولـــم يكن حديث الإفك الـــذي زلزل بيت النبـــوة وكاد أن يقـــوّض الكيـــان الاجتماعي للمدينـــة؛ إلا أثـــراً من آثار إعـــلام ابن أبيّ، ما اســـتدعى نزول ســـورة تبرِّئ فراش النبوة مما نســـب إليه كذباً، وتضع جملة من الآداب الاجتماعيـــة العاليـــة، كان منهـــا: أدب يعدُّ تحصينـــاً للمجتمع من كيد الإعلام، وهو أدب حسن الظن وعدم اتباع الأكاذيب أو ترويجها على من عُرفوا بالفضل: ﴿لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِـــينٌ﴾ [النور: ١٢]، ﴿وَلَوْلا إِذْ سَـــمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٦].

(١) أخرجه البخاري ومسلم.

والسؤال الأهم هنا: ما الوسائل التي نقاوم بها خطر الإعلام؟

والإجابة عن هذا الســـؤال غاية في السهولة إذا ما عدنا إلى الكتاب والسنة وعمل النبي ﷺ وصحابته وخلفائه الراشدين.

الوســـيلة الأولى لمواجهة الخطر الإعلامي هي أن يتربى المسلم على ألا يكون ســـمّاعاً، أي يسمع الفرية فيبتلعها ويركن إليها وتتسلل إلى نخاع عقلـــه ولبّ قلبه دون نظر أو تدبر، وعلى أن يتعود رد الأمر إلى أهله بدلاً من إذاعته وإشـــاعته، وعلى عدم ترديد ما يقال في وســـائل الإعلام، قال تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُـــم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُـــمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَـــمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [التوبـــة: ٤٧]، ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُـــولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [النساء: ٨٣]، ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٥]، ﴿وَلَوْلا إِذْ سَـــمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٦].

وقصـــة الصحابي الجليل الطفيل بن عمرو الدوســـي مثلٌ بارزٌ، فقد استمر التأثير الإعلامي لقريش يلح عليه حتى حشا أذنيه بالكرسف، لكنه عندما ســـمع بعض ما يقرأ رسول الله ﷺ في المسجد الحرام قال لنفسه: واثكل أمي، إني لرجل شـــاعر لبيب لا يخفى عليّ الحســـن من القبيح من الكلام، ونزع الكرسف وانطلق إلى رسول الله ﷺ فاستمع منه وأسلم على يديه[2].

وفي عهد عمر وبينما كان يحج بالناس جاءه بمنى من أخبره أن رجلاً يقـــول: لو مات عمر لبايعت فلاناً، فوالله مـــا كانت بيعة أبي بكر إلا فلتة فتمت، فأراد عمر أن يخطب في الناس ليبيِّن الأمر ويدفع الشبهة، فقال له عبد الرحمن بن عوف: «يا أمير المؤمنين لا تفعل؛ فإن الموســـم يجمع رعاع الناس وغوغاءهم، وإنهم هم الذين يغلبون على قربك إذا قمت في الناس، وإني أخشى أن تقوم فتقول مقالة فيطيرها عنك كل مطير، وألا يعوها وألا يضعوها على مواضعها»[3]، وقد صدع عمر بمشورة ابن عوف لما فيها من الحكمة في التعامل مع الرأي العام الذي قد يكدره الإعلام بقلب الحقائق التي لا يصح أن تُطرح على العامة.

الوسيلة الثانية: ردّ الشبهات ودحض المفتريات، لا سيما ما له رواج على الناس وتأثير في العامة، ومن أبرز الأمثلة على ذلك ما وقع من سرية عبـــد الله بن جحش حين قتلوا رجلاً من المشـــركين في الشـــهر الحرام، فاســـتغل إعلام قريش هذا الحدث واســـتثمره في تشويه صورة الإسلام والمســـلمين لدى قبائـــل العرب، قائلين: كيف يدَّعـــي محمد أنه على دين إبراهيـــم ثم يقتل في الشـــهر الحرام مخالفاً بذلك ديـــن إبراهيم، فنزل

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد (٤/ ٢٣٧).
(٣) أخرجه البخاري.

القرآن للردّ ولتعليم المسلمين كيف يكون الرد على مثل هذه الشبهات التي لها أصل تم تضخيمه وإذاعته، فقال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ٢١٧]، فالقتل في الشهر الحرام كبيرة بلا جدال ولا لجاج، ويجب أن نعترف بذلك، لكن على الجانب الآخر نجد أن هذا الخطأ الاجتهادي من المسلمين قابله خطايا من المشركين تمثلت في الكفر بالله والصد عن سبيله وعن المسجد الحرام، وهذه أكبر بكثير.

ولما نزل الأمر بتحويل القبلة تحرَّكت الآلة الإعلامية لليهود مثيرة للجدل والشكوك: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾ [البقرة: ١٤٢]، وراحت تسفسط حول الحدث بما يشبه التحليل العلمي – وما هو من العلم في شيء – بإثارة هذه الإشكاليات: لئن كانت صلاتكم بالأمس إلى بيت المقدس هي الصحيحة فصلاتكم اليوم إلى المسجد الحرام باطلة، وإن كانت صلاتكم إلى المسجد الحرام هي الصحيحة فصلاتكم من قبل إلى بيت المقدس باطلة، وكان جواب القرآن على هذه التحكمات المفتعلة حاسماً وصريحاً: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٥].

وإذا كان أثر الإعلام قد تعدى العقول والأفكار إلى القلوب والمشاعر، فعلى أهل الشأن أن يزيلوا تلك الآثار، ومن أمثلة ذلك ما فعله النبي ﷺ عندما نجح الإعلام في شحن قلوب الأنصار بشيء من الحفيظة والغضب عندما أعطى غنائم حنين لرجال من قريش تأليفاً لقلوبهم ولم يعطِ منها الأنصار شيئاً، فاستدعاهم رسول الله ﷺ وقال لهم: «أوجدتم في أنفسكم يا معشر الأنصار في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم؟! أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعون برسول الله ﷺ في رحالكم.. فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم وقالوا رضينا برسول الله قسماً وحظاً»[١].

الوسيلة الثالثة: ألّا نقف موقفاً يعطي الإعلام فرصة للنيل من الحق وأهله، ومن أمثلة ذلك أن النبي ﷺ رفض أن يقتل عبد الله بن أبيّ عندما قال ما قال في أثناء العودة من المريسيع، وبيّن لعمر – الذي انبرى لقتله وأراد استصدار أمر من النبي بذلك – أن الإعلام سيذيع عنه أنه بدأ يقتل في أصحابه، وقال: «دعه؛ لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه»[٢].

(١) أخرجه أحمد وصححه الألباني.
(٢) أخرجه البخاري ومسلم.

وبعد أن فتح مكة ودانت له القبائل وأسلست له بطون مكة قيادها، أراد أن يهدم الكعبة ويعيد بناءها على قواعد إبراهيم فيُدخل فيها حجر إسماعيل ويوسعها ويجعل لها بابين، لكنه بعد أن همّ تراجع خشية أن يكدر عليه الإعلام الرأي العام في بيئة حديثة عهد بجاهلية، وقال لعائشة: «لولا أن قومك حديثو عهد بجاهلية لنقضت الكعبة وأقمتها على قواعد إبراهيم»[٣].

الوسيلة الرابعة: أن نحسن استغلال الإعلام في توجيه ضربة عكسية للمعارضين المستخدمين له، وهذا عمل احترافي لا يحسنه إلا الحُذاق من الساسة الكبار، ولنضرب مثلاً لذلك بسيد الأحابيش عندما جاء ساعياً بين قريش ومحمد في الحديبية، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «إن هذا من قوم يتألهون، فابعثوا الهدي في وجهه»[٤]، فلما فعلوا ذلك ورأى الرجل الهدي معكوفاً أن يبلغ محله، تأثَّر جداً وانطلق – وهو بوق إعلامي – إلى قريش موبِّخاً وناشراً لمساوئها.

وهناك مثل آخر: وهو خروج أبي بكر للهجرة إلى الحبشة، فمن الصعب أن نتصور خروجه – وهو غير مضطر لذلك بما له من شرف ووجاهة – وتركه رسول الله – وهو الصديق الحميم – إلا في إطار ما كشفت عنه كلمات ابن الدغنة الذي لقيه في الطريق ورده قائلاً: «إن مثلك يا أبا بكر لا يَخرج ولا يُخرج، وإن خروجك عارٌ على العرب؛ فإنك رجل تُقري الضيف وتحمل الكَلَّ وتكسب المعدوم وتعين على نوائب الحق»[٥]، وهذه ضربة إعلامية مسددة في كبد قريش التي هي قلب العرب، إذ كيف يصل بها الظلم والعدوان إلى حد أن يضطر شريف ذو فضل هو وأهله على قبائل العرب، أن يخرج مهاجراً تاركاً جزيرة العرب كلها؟!

وأخيراً؛ أحب أن أزفَّ البشرى لأهل الحق الذين ظلمهم الإعلام الرديء، بأن واقعنا يثبت أن منتج الإعلام الذي تناول رسول الله ﷺ لو كان نال منه ما وصل إلينا الإسلام ولا بلغنا شيء من الحق؛ بل ذهب كله إلى (مزبلة التاريخ) التي سيذهب إليها – إن شاء الله – المنتج الإعلامي الحالي كله، ليبقى الحق كما بقي من قبل ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧]، لكن هذا مشروط بمدافعة أهل الحق حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

(٣) أخرجه مسلم.
(٤) أخرجه أحمد وصححه الألباني.
(٥) أخرجه البخاري.

نقل المصطلحات السياسية الغربية

إلى البيئة العربية

تـامـر بكـر

الأصـل فـي أصحـاب الفكـرة الإسـلامية أن يكون خطابهـم الدعـوي للآخريـن مبنيـاً علـى المصطلـح الإسـلامي، وأعنـي به المصطلـح الشـرعي أو المصطلح الـذي درج علـى اسـتخدامه المسـلمون عبـر العصـور؛ لأنـه مصطلح غيـر ذي عوج. أما المصطلح المعاصر فهو أمام المصطلح الشـرعي قد يكـون غامضاً في مقصوده، فضفاضاً في عباراته وشعاراته.

وفـي القرآن الكـريم نُهي المسـلمون عن اسـتخدام المصطلح الذي قد يوهم معنىً باطلاً ويكون فيه مدعاة لسخرية واستهزاء الكفار بالمسلمين، ولو كان هذا المعنى الباطـل غير مرادف لهذا المصطلح أصلاً، بل لم يخطر ببـال المتكلم، فكيف بما هو فـوق ذلك من المصطلحات المتضمنة بعض المعاني الباطلة في أصل وضعها؟

يقول الشـــيخ عبد الرحمن الســـعدي – رحمه الله – في تفسير قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْـمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٠٤]: (كان المســلمون يقولون حين خطابهم للرسول عند تعلمهم أمر الدين: «راعنا»، أي: راع أحوالنـــا، فيقصدون بها معنىً صحيحاً، وكان اليهود يريدون بها معنىً فاسداً، فانتهزوا الفرصة، فصاروا يخاطبون الرســـول بذلك ويقصدون المعنى الفاسد، فنهى الله المؤمنين عن هذه الكلمة سداً لهذا الباب) انتهى.

ومثله قوله ﷺ: «لاَ تُسَمُّوا الْعِنَبَ الْكَرْمَ فَإِنَّ الْكَرْمَ الرَّجُلُ الْمُسْلِمُ»[1]: (إنما نهاهم عليه السلام عن تسمية هذه الشجرة كرماً لأن هذا الاســـم مشتق عندهم من الكرم، والعرب تقول رجـــل كرم بمعنى كريم وقوم كرم أي كرام... فأشـــفق ﷺ أن يدعوهم حُسن أسمائها إلى شرب الخمر المتخذة من ثمرها، فسلبها هذا الاســـم وجعله صفةً للمسلم الذي يتوقى شربها ويمنع نفسه الشهوة فيها عزّةً وتكرّماً) انتهى.

وقال ابن القيم في تعليقه على ذلك الحديث في حاشيته على ســـنن أبي داود – ط٢/ دار الكتـــب العلمية في بيروت ١٤١٥هـ: (ومن عرف ســـر تأثير الأسماء في مسمياتها نُفرةً وميلاً عرف هذا، فسلبها النبي ﷺ هذا الاسم الحسن وأعطاه ما هو أحق به منها وهو قلب المؤمن) انتهى.

ويقول ابن تيميـــة – كما في الفتاوى الكبرى (١٢/ ٤٥٢) – عـــن أهمية فهم ما قد يوجَد من اشـــتراك فـــي الألفاظ: (وَنَظِيرُ هَذَا كَثِيرٌ يُوجَدُ فِي كَلَامِ أَهْلِ الْعِلْمِ وَأَهْلِ السُّـــنَّةِ مِنْ النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ وَيَكُونُ النِّزَاعُ فِي مَعْنَيَيْنِ مُتَنَوِّعَيْنِ نِزَاعاً لَفْظِيّاً اعْتِبَارِيّـــاً، وَقَدْ قَالَ بَعْضُ الْفُضَلَاءِ: أَكْثَرُ اخْتِلَافِ الْعُقَلَاءِ مِنْ جِهَةِ اشْتِرَاكِ الْأَسْـــمَاءِ، لَكِنْ وُقُوعُ الِاشْتِرَاكِ وَالْإِجْمَالِ يَضِلُّ بِهِ كَثِيرٌ مِنْ الْخَلْقِ كَمَا يَهْتَدِي بِهِ كَثِيرٌ مِنْ الْخَلْقِ، وَهُوَ سَـــبَبُ ضَلَالِ هَؤُلَاءِ الْجُهَّالِ الْمَسْؤُولِ عَنْهُمْ) انتهى.

ويقول ابن القيم في كتابه الصواعق المرســـلة (٣/ ٩٢٧) – طبعـــة دار العاصمة ١٤١٢هـ: (فأصـــل ضلال بني آدم من الألفاظ المجملة والمعاني المشتبهة، لا سيما إذا صادفت أذهاناً مخبطة، فكيف إذا انضاف إلى ذلك هوى وتعصب) انتهى.

ولـــم يقف الأمر على المتقدمين فقط، بل إن بعض الكتَّاب المعاصريـــن رفض نقل المصطلحات من منظومة حضارية إلى أخرى، فهناك من الكتَّاب الإسلاميين المعاصرين[2] من خشي من نقل الإسلاميين بعض المصطلحات الغربية – ولو بمفاهيم إسلامية – لسببين:

أولهما: خشـــيةً من اتهام هؤلاء الإسلاميين المعاصرين – الذين «أســـلموا» تلك المصطلحات – من إسلاميي المستقبل بالمراوغة[3].

وثانيهما: أن تلـــك المصطلحات هي نتاجٌ غربيٌ وجزءٌ من السياق الاجتماعي والسياســـي الغربي الذي يحرص الغرب على فرضه علينا، ويحرص دعاة الحضارة الإســـلامية على رفضه وعلى تحرير المصطلح كجزء من الصراع الحضاري مع الغرب الذي يَفرض علينـــا معركته لاحتلالنا ونهبنا والقضاء علينا.

يقول الأســـتاذ صالح ســـميع في كتابـــه: (أزمة الحرية السياســـية في الوطن العربي) – ط١، مركز الزهراء للإعلام العربي في القاهرة ١٤٠٩هـ، ١٩٨٨م، (ص ٥٨): (إن المصطلح الحضاري ينبغي أن يؤخذ في ســـياق منظومته الحضارية، إذ هو يعبِّـــر تمام التعبير عنها، وإن محاولة إخراج المصطلح من ســـياقه الحضاري لاستخدامه في ســـياق منظومة حضارية أخرى، يؤدي إلى التداخل في المفهومات، وإلى زعزعة المنطق الداخلي فيها، وبذلك فليس من المنهج في شـــيء إغفال تطور المصطلح الحضاري في إطار منظومته الحضارية) انتهى.

وهنـــاك من الباحثين الإســـلاميين[4] مـــن رأى أن الأمم الأخرى لا تتحلى بما يتوافر للمســـلمين من العلم والعدل، ما يجعل كثيراً من مصطلحاتهم غير منضبطة وملتبســـة، وتنقل بدورها إلى مجتمعاتنا المسلمة ما يعلق بتلك المصطلحات من معانٍ لا تتناسب وثقافتنا الإســـلامية، بما يجعلها تعدُّ معبراً لبعض المفاهيم الفاسدة التي تتسلل ثقافياً إلى مجتمعاتنا.

وقد دعاه ذلك إلى أمرين:

أولهمـــا: التنبيه إلـــى حجم الخطر الـــذي يمثله تمرير المصطلحات على الهوية الإسلامية.

وثانيهمـــا: تبيان موقف علماء المســـلمين مـــن الألفاظ

(١) (أخرجه مسلم ٦٠٠٦)، والتتمة للخطابي في معالم السنن (٤/ ١٣٠) – ط١/ المطبعة العلمية في حلب ١٩٣٢م.

(٢) هو الدكتور محمد مورو، رئيس تحرير مجلة المختار الإسلامي.

(٣) استمعتُ إلى ذلك القول من الدكتور مورو في حوار معه أذيع في شهر مايو ٢٠١١م على قناة النيل للأخبار.

(٤) انظر كتاب «المصطلحات الوافدة وأثرها على الهوية الإسلامية، مع إشارة تحليلية لأبرز مصطلحات الحقيبة العولمية»، للباحث الأستاذ الهيثم زعفان، عن مركز الرسالة للدراسات والبحوث الإنسانية في القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩م.

والمصطلحات الوافدة واستعمالاتها، والتي تضمنت عدة شروط منها:

- تباحث المعنى وتفهّم المضمون.
- التفصيل في الألفاظ المحتملة للحق والباطل.
- الأعاجم والموقف من اصطلاحهم.
- عدم الاستهانة بإضفاء الصبغة الشرعية على المصطلحات الوافدة.
- قبول الاصطلاح من حيث الاستعمال والمردود.

لعل كل الكلام السابق عن استخدام مصطلحات مشتركة المعنى يُوحي بأنه يجب على أصحاب الفكرة الإسلامية عدم استخدام مصطلحات منقولة من عند غير المسلمين؛ لأنها قد تكون موهمة؛ كما أنه ربما يوحي أيضاً بأن علماء المسلمين على مرِّ العصور لم يحدث بينهم أي نزاع حول مفاهيم بعض الألفاظ! وتلك مسألة تحتاج إلى إلقاء الضوء عليها.

فأستعين بالله وأقول: رغم ما نقلته آنفاً من أدلة تدل على الاهتمام الكبير من المسلمين بوضوح مصطلحاتهم ومقاصدها والتركيز كذلك على استخدام ما جاء به القرآن وجاءت به السنة، إلا أننا نجد كتب التراث – في العقيدة وغيرها – قد حَفلت بكثير من أمثلة التمازج الحضاري، خاصة في نقل المصطلحات غير العربية ولا الإسلامية من عند غير العرب أو المسلمين – فمنها ما كان أعجمياً فعُرِّب، كما عُرِّبت ألفاظ اليونان والهند والفرس وغيرهم، ومنها ما تُرجم إلى العربية، وقد تكون الترجمة صحيحة، وقد لا تكون – وقد لجأ العرب إلى ذلك حسب ظروف الدعوة وثقافة الناس في كل عصر، ففي زمن يكون غرض استخدام هذه المصطلحات الرد على أعداء الدين بطريقتهم وبأسلوبهم، وتارة يكون الغرض دعوة شعوب وأقوام إلى دين الإسلام بما يفهموه من ألفاظ وعلوم عصرية.

كما أن الألفاظ المحدَثة المحتملة لمعاني الحق والباطل معاً، والتي تنازَع الناس فيها؛ لا يمكن أن تكون من الألفاظ التي يحتاج إليها الناس في أصول دينهم، كما قال بذلك شيخ الإسلام ابن تيمية في درء التناقض (ص ١٣٣) – طبعة دار الكنوز الأدبية ١٣٩١هـ: (وأيضاً فإن المناظرة بالألفاظ المحدثة المجملة المبتدعة المحتملة للحق والباطل إذا أثبتها أحد المتناظرين ونفاها الآخر كان كلاهما مخطئاً.. فنحن نعلم أن كل حق يحتاج الناس إليه في أصول دينهم لا بد أن يكون مما بيَّنه الرسول؛ إذ كانت فروع الدين لا تقوم إلا بأصوله، فكيف يجوز أن يترك الرسول أصول الدين التي لا يتم الإيمان إلا بها لا يبيّنها للناس؟) انتهى.

ويرى ابن تيمية – كما في الفتاوى الكبرى (٦/ ٣٩١)، أن حدوث أي نزاع لفظي حول الألفاظ لا يكون ضاراً إلا إذا خولفت الشريعة، فيقول: (وَإِنْ أُطْلِقَ ذَلِكَ فَالنِّزَاعُ اللَّفْظِيُّ لَا يَضُرُّ إلَّا إذَا خُولِفَتْ أَلْفَاظُ الشَّرِيعَة) انتهى.

ولكي يُتعرَّف هل خولفت الشريعة أم لا؟ يُلجأ في نظر الإمام ابن تيمية إلى الاستفسار والاستفصال فيما لم ينطق به الكتاب والسنة.

ويقول ابن تيمية في درء تناقض العقل والنقل (ص ١٧٣) طبعة دار الكنوز الأدبية ١٣٩١هـ: (فمن تكلم بلفظ يحتمل معانيَ لم يُقبل قوله ولم يُرد حتى نستفسره ونستفصله حتى يتبيَّن المعنى المراد، ويبقى الكلام في المعاني العقلية لا في المنازعات اللفظية، فقد قيل: أكثر اختلاف العقلاء من جهة اشتراك الأسماء، ومن كان متكلماً بالمعقول الصرف لم يتقيد بلفظ، بل يجرد بأي عبارة دلت عليه) انتهى.

ونتيجة هذا الاستفصال هي كما يقول الإمام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٦٦٤/٧) أيضاً: (فَإِذَا حَصَلَ الِاسْتِفْسَارُ وَالتَّفْصِيلُ ظَهَرَ الْهُدَى وَبَانَ السَّبِيلُ) انتهى.

وعلى كل حال.. إننا إذا أردنا أن نوصف الواقع الذي نعيشه – بعيداً عن قبولنا له من عدمه – لنعرف كيف نتعامل معه من باب فقه الواقع؛ نجد أننا أمام سُنَّة تاريخية تحدث دائماً مع دوران التاريخ وصعود أمم وهبوط أخرى، وهي أن الحضارات المنتصرة تفرض إدارتها وفكرها ومصطلحاتها على الحضارات والشعوب المهزومة أو الأضعف.

ولذلك، فإن الحضارة الغربية في طور انتصارها وسيادتها وإمساكها بزمام العلم والتقدم والغلبة العسكرية، تفرض مصطلحاتها وفكرها بشكل مباشر وغير مباشر على الشعوب الإسلامية الحالية وعلى غيرها من الشعوب.

ولأن المصطلح الغربي إذا شاع واستخدمه الناس – في مثل تلك الحالة التي وصفتها – فلن نستطيع أن نُصمَّ سمعنا عنه، فأرى أنه يجب علينا أن نتصدى له على مرحلتين:

المرحلة الأولى: وتكون في زمن ما قبل بداية النهضة،

فتحدث محاولة لامتصاص المصطلح وأسلمته، بمعنى تغيير حقيقته لا مجرد تغيير اسمه أو مسمياته، ولا يضيرنا في تلك الحالة أن اللفظ جاء من عند غيرنا، فإن مدار الحكم ليس على الأسماء والعناوين، بل على المسمّيات والمضامين، أما إن كان الأمر مجرد تغيير للأسماء فقط؛ فذلك في حقيقته تكييف للمصطلح الإسلامي بما يتفق والرؤية الغربية.

المرحلة الثانية: وتكون في زمن بداية النهضة، فنبدأ باستبدال المصطلح المنقول بالمصطلح الإسلامي إن كان موجوداً، أو إيجاد المصطلح البديل، وذلك رويداً رويداً.

فمَنْ استخدَم في زمن المرحلة الأولى لفظاً مُحْدَثاً في تسيير أمور الدولة – معتبراً ذلك مرحلة مؤقتة، بعد قياسه المصالح والمفاسد – وكان غير مخالف لما جاء في القرآن والسنة، أو كان مقصده منه عدم مخالفة الكتاب والسنة؛ قبلناه، شرط تباحث المعنى وتفهّم المضمون أولاً، ثم يجب بعد ذلك التفصيل في المعاني المحتملة للحق والباطل في هذه الألفاظ وتوضيحها وتبيانها.

كما يجب ألا يكون مشتهراً عن اللفظ المنقول أنه مضاد للإسلام، ومثال ذلك محاولة نقل «العَلمانية» كمصطلح للبيئة العربية، فهو مصطلح مختَلف عليه حالياً بين بعض – وليس كل – المثقفين المعاصرين في البيئة العربية أو الإسلامية – أما البيئة الأوروبية فلا اختلاف على معانيه هناك حتى الآن.. والذين يحاولون نقله من بعض المثقفين المعاصرين للعربية يقولون صراحة إنهم لا يقصدون به (اللادينية)، لكن ذلك لا يعني نفي الإشكالية في المصطلح؛ لأنه بذلك يصبح معقداً في فهمه ومن ثم لا يعبِّر صراحةً عما يحتويه من معانٍ، فما الداعي لأن يلتف بعضهم ويضيف إلى الإسلام فكرةً وُضعت في أصلها لتضاده، ثم تزاد الأمور تعقيداً بأن تفسر هذه الفكرة (أعني: العَلمانية) بعد ذلك بتفسير لا يتعارض مع الإسلام حتى لا يصبح الكلام متناقضاً، فلِمَ كل هذا الطريق الطويل ولِمَ العناء؟!

وعلى أي حال فمصطلح (العَلمانية) لسنا مضطرين إلى امتصاصه كمرحلة مؤقتة، ومن ثمّ استبداله؛ لأنه لم يصبح مصطلحاً شائعاً مقبولاً يتعامل الناس معه بشكل طبيعي كما يتعامل الناس مثلاً مع مصطلح (الديمقراطية)[1] في بيئتنا العربية بالجملة.

وخلاصة القول: هناك مستويان متوازيان لاستخدام المصطلحات الجديدة:

– المستوى الأول، مستوى الشرح والتوضيح: فالمصطلح الجديد – إن كان ليس مما يحتاج إليه الناس في أصول دينهم – قد يلجأ إليه الإسلاميون لشرح وبيان وتوضيح الأفكار والمفاهيم لمن يفتقدون الفكرة والثقافة الإسلامية من باب مخاطبة القوم بلسانهم ولغتهم من أجل الدعوة للخير، وقد يتعدى هذا الشرح والبيان والتوضيح اللفظي إلى الناحية العملية، فيصبح مرحلة دعوية مطلوبة في مدة زمنية في عصر ما ذي ظروف معينة – وذلك طبعاً بشروط نقلتها قبل قليل، ويجب على الإسلاميين توضيح طبيعة تلك المرحلة الدعوية للدعاة أنفسهم؛ لأن ذلك سيقيهم من اتهامهم مستقبلاً – في حالة عودة سيادة الحضارة الإسلامية بإذن الله – بالمراوغة أو التخاذل عن نصرة الحضارة الإسلامية.

– المستوى الثاني، مستوى التقنين والتشريع: وهو ما قد يحدث من استخدام بعض الألفاظ الجديدة في كتابة الدساتير أو قوانين الحكم، وفي هذا المستوى يجب ألّا نستخدم من تلك المصطلحات إلا ما أصبح واضحاً مفهوماً بطريقة علمية أكاديمية متفق عليها وليست مُفسَّرة من أحد بتفسير خاص له؛ لأن احتمالية حدوث اختلافات حول تفسير مواد الدساتير أو القوانين يُحدِث بلبلة وتفرقاً كبيراً، وإذا كان لا بد من استخدام بعض تلك الألفاظ التي تحتمل أكثر من معنى – كلفظ مَدَنيّة – فاليُنص على المعنى المقصود بها صراحة ولا تترك لتصارع الأفهام.

وفي هذا الإطار في مصر رفض كلٌّ من الإخوان المسلمين والدعوة السلفية ما حاول الدكتور علي السلمي – نائب رئيس مجلس الوزراء المصري في حكومة الدكتور عصام شرف الثانية بعد ثورة ٢٥ يناير – تمريره من مبادئ حاكمة للدستور المصري المنتظر، وخصَّصوا بالرفض نصَّ تعريف الدولة بأنها «دولة مدنية ديمقراطية»، وكذلك رفضوا تعديل ذلك النص إلى «دولة ديمقراطية موحدة نظامها مدني».

(١) أصبح بعض السلفيين المعاصرين، مثل الدعوة السلفية في الإسكندرية، يقبلون استخدام هذا اللفظ للتعبير عن آلية نقل السلطة من دون قبول فلسفته، وهناك من العلماء الفضلاء من يرفض ذلك، مثل الشيخ محمد بن شاكر الشريف، وغيره.

خارطة التنوير

من التنوير الغربي إلى التنوير الإسلامي

أحمد سالم فهر

١ - ليس سهلاً لكنه ضروري:

ليس سهلاً أن تسعى لتلخيص المعلومات الأساسية عن تيار فكري وتأريخ محوري وتصور معرفي بحجم (التنوير)، فضلاً عن أن يكون هذا التلخيص لتلك المعلومات الأساسية كافياً كي يدرك القارئ حقيقة التنوير؛ إلا أنه لا بد مما ليس منه بد، ولا مفر من أن أسعى لهذا الهدف ولو كان عسراً؛ لأن تحقيقه يُعد ضرورة معرفية من دونها لا يحصل الفرقان بين الحق والباطل، فكانت السطور القادمة خطوطاً عريضة لا غير.

٢ - تعدَّدت الأسماء:

تعددت الأسماء التي يُعبَّر بها عن المفهوم محل التحليل ها هنا، ولا بأس من أن نُشير إليها إشارة سريعة؛ رجاء ألا يشتبه على القارئ هذا المفهوم إذا عُبِّر عنه بأحد هذه الأسماء.

(النور)، و(التنوير)، و(الأنوار)، و(الاستنارة)؛ جميعها أسماء يُعبَّر بها عن هذا المفهوم، وربما تم التعبير عن الحقبة التاريخية التي استوت فيها المكونات الأساسية لهذا المفهوم بـ (عصر التنوير)، أو (عصر الأنوار)، أو (عصر الاستنارة).

(والنور في الوجدان الإنساني هو عكس الظلام تماماً، كما أن الخير هو عكس الشر، ومن ثم فإن كلمة (الاستنارة) بمعنى الفكر الشبيه بالنور الذي يُبدد الجهل الشبيه بالظلام)[١].

٣ - قسمة أساسية:

قسمة أساسية لا بد من الابتداء ببيانها كي لا نقع في اشتباك الألفاظ والدلالات الذي طالما أضل عن الحق وأوقع في الباطل، وكي لا نظلم أقوالاً ورجالاً بأن نضمهم في حزمة واحدة مع أقوال ورجال ليسوا منهم ولا يرضون هم عنهم؛ لذلك فنحن في سعينا هنا لعرض المعلومات الأساسية عن التنوير لا نرى محيصاً من قسمة التنوير إلى ثلاثة أقسام، وإفراد كل قسم بما يتعلق به تاريخاً وفكراً ورجالاً.

وهذه الأقسام الثلاثة هي:

أولاً: التنوير العَلماني الغربي.

ثانياً: التنوير العَلماني الشرقي[٢].

ثالثاً: التنوير الإسلامي.

فالقسمان الأول والثاني إنما تم تقسيمهما باعتبار التنوع الجغرافي لا الفكري، بعكس القسم الثالث، والذي كان اختلافه الفكري عن القسمين الأولين هو ما جعله قسماً ثالثاً على نحو ما سيتضح في باقي المقال وقابل المقالات.

---

(١) (فكرة حركة الاستنارة وتناقضاته)، عبد الوهاب المسيري، (ص/٩)، نشر: دار نهضة مصر.

(٢) والمقصود بالشرقي في هذا المقال: الشرق العربي والإسلامي.

أولاً: التنوير العَلماني الغربي:

١ – التنوير العلماني، وبحسب المركزية الغربية التي جعلت أوروبا تاريخاً وفكـراً هي محور الأفكار في العالم؛ هو ظاهرة أوروبية في المقـام الأول، وكل حركة فكرية غير أوروبية توجد فيها مكونـات الفكر التنويري فهي ممـا أفاضته أوروبا على العالم؛ ولا شـك أن هذا واقع في صـور كثيرة كما في التنوير الشـرقي (بفرعيه العلماني والإسـلامي)، وإن حاولت بعض النخـب التنويرية العربية رد التنوير لمكونـات تراثية؛ إما نُفرة من المركزية الغربية، وإما تبيئة للتنوير الغربي وعبوراً به للعقل الشرقي على جسـر من التراث، وسنزيد هذه الفكرة إيضاحاً في مقالات قادمة.

٢ – يُقصـد بالتنوير من الناحيـة التاريخية: الحقبة التي تمتد من نهاية القرن السـابع عشـر حتى نهاية القرن الثامن عشـر[١]، وفي هذه الحقبة كان مخاض منظومة الأفكار والقيم التي عاشت مدة حمل بدأت من عصر النهضة في القرن الرابع عشر والخامس عشر ومرت بعصر الإصلاح الديني في القرن السادس عشـر، ثم القرن السابع عشر، والذي يسميه بعضهم عصـر العقل، وانتهت بعد هذا إلـى ولادة تطبيقها العملي في الثورات الثلاث، الإنجليزيـة (١٦٨٨م)، والأمريكية (١٧٧٦م)، والفرنسية (١٧٨٩م)، ودساتيرها، وما مرت به أوروبا بعد ذلك من مد وجذر، وصولاً إلى حداثة القرنين الأخيرين.

٣ – فـي بداية عصـر النهضة شـهدت أوروبا موجة من موجات الصراع بين الإنسـان النـازع للفرار من قبضة الوحي وبين الوحي الذي كان متجسـداً وقتها في المسيحية، وهي وإن كانت مسـيحية محرفة، إلا أن الذي نُحب تقريره هنا؛ لنصحح به صورة نمطية من صور تنـاول التيارات الفكرية الغربية: أن النزوع للهوى وإرادة نزع قدسـية الوحي وإلزاميته والتي يُعبر عنها بالعلمانية، هي حالة شيطانية لا يزال الشيطان منذ اجتال بني آدم عن دينهم يؤزهم إليها، سـواء كان هذا الوحي سـليماً أو محرفاً، ولا شـك أن لتحريف الوحي أثراً في تسارع ودعم حصـول هذا النزوع؛ لكن الذي نؤكده أنه نزوع يقع من بني آدم بأز الشيطان لهم وتلبيسه عليهم ولو لم يكن الوحي محرفاً.

٤ – وكان مـن أهم دعائم هذا النزوع للفكاك من سـلطة الكنيسـة ووحيها الصحيح منه والمحـرف؛ الرجوع إلى الآداب والفلسفات الإغريقية، والتي كانت هي نفسها ضرباً من أشهر ضروب العلمنة فـي تاريخ الأمم وأفكارهـا، حيث يُعد الفكر الإغريقي من أشـهر النماذج الفكرية العلمانية التي أعرضت عن الوحي[٢]، وبنت نماذجها التصورية للإله والطبيعة والإنسان مع ما يسـتتبعه هذا من تصـورات قِيمية = بنت كل ذلك عبر العمليات العقلية التي قام بها فلاسـفتها دون الاهتداء المباشر بنور الوحي، بل بنتها من خليط عظيم من الفلسـفات الشرقية وشـذرات من الوحـي، إضافة للنظر العقلي المسـتقل لهؤلاء الفلاسفة.

٥ – فـكان هذا التراث الإغريقي، مع التراث الإسـلامي المنتقـل لأوروبا، مع ما حصّلـه الرحالة الغربيـون من تراث وثقافـات الأمم المعاصرة لهم مع المسـيحية نفسـها التي لا يسـتطيعون الفكاك منها تماماً؛ هي المدخـلات الثقافية التي عمـل عليها العقـل الأوروبي في حقبتـي النهضة والإصلاح حتى بزوغ الأسـماء الرئيسـية التي شـكلت البذور الفكرية للحداثة الغربية وأسسـت الأعمدة الرئيسـة للفكر التنويري، وأذكر منهم: فرنسـيس بيكون (١٦٢٦م) وإسهاماته التجريبية، وتوماس هوبز (١٦٧٩م) بماديته ونظريته في السيادة، وعقلانية ديكارت (١٦٥٠م)، وباروخ اسـبينوزا (١٦٧٧م) وتأسيسه لنقد الكتب المقدسـة برسالته في اللاهوت والسياسة، ثم جون لوك (١٧٠٤) وتطويره لعقلانية ديكارت ومسـاهمته الأساسية في الفكر السياسـي التنويري برسالتيه في الحكومة ورسالته في التسامح، ثم فيزياء إسحاق نيوتن (١٧٢٦م) ودعم النظرة المادية الآلية للكون، ثم التنويريان الفرنسيان جان جاك روسو (١٧٧٨) وعقده الاجتماعي، وفولتير (١٧٧٨) ورسـالته في التسـامح وكتابه المهم: رسـائل فلسفية، ثم مونتسـكيو (١٧٥٥م) وكتابه روح القوانين، وصاحب الموسـوعة دينس ديديرو (١٧٨٤م)، ثم الألماني لسنج (١٧٨١م) وكتابه المهم: تربية الجنس البشري، ثم فيلسوف ألمانيا الأعظم عمانوئيل كانط (١٨٠٤) وكتبه النقدية الثلاثة، وفلاسفة إنجلترا جريمي بنتام (١٨٣٢م)، وآدم سميث (١٧٩٠م) واضـع النظرية الاقتصاديـة الليبرالية، وفي أمريكا توماس بين (١٨٠٩)، وتوماس جيفرسـون (١٨٢٦م)، وبنجامين

(١) انظر في تعليل هذا التحديد: (أزمة الوعي الأوروبي) لبول هازار، نشر المنظمة العربية للترجمة، وترجمة المستكاوي التي بعنوان: (أزمة الضمير الأوروبي)، والتي قدم لها الدكتور طه حسين = أحسن من هذه الترجمة في نظري.

(٢) نعم أعرضت؛ وما من أمة إلا خلا فيه رسول.

فرانكلين (١٧٩٠)[١].

٦ – ما أهم الأسس الفكرية للتنوير العلماني؟

الكتب التي تؤرخ للفكر والفلسفة الغربية تختلف في تكثير أو تقليل هذه الأسس الفكرية، والسبب الرئيسي للتكثير هو أن يضم الكاتب للأسس ما هو ناتج من أحد الأسس وليس أساساً مستقلاً، وإذا راعينا ألا نقع في هذا الإشكال فإننا سنقتصر على أساسين فقط، هما:

١ – العقلانية:

و(الفكر الاستناري فكر عقلاني يؤكد المرجعية الإنسانية ومركزية العقل الإنساني، فمصدر المعرفة الوحيد هو العقل (الذي لا يقبل إلا البديهيات الواضحة وما يتفق مع قواعد المنطق)، والحواس (التي لا تقبل إلا ما يُقاس)، والتجريب (الذي تخضع له كل الموجودات). وكل ما هو مطلوب من الإنسان العاقل (المزوّد بالعقل وبالحواس وبالمنطق والمعرفة المتراكمة التاريخية والعلمية)، أن يقوم عقله برفض أي حقائق متجاوزة للواقع المادي المحسوس، مثل الأساطير والأوهام والغيبيات والتخيلات والحجج التقليدية والعقائد والمسلمات)[٢].

وتتجلى مركزية العقلانية في التنوير من جواب كانط على السؤال الذي وجهته إحدى الصحف الألمانية لقرائها ولمجموعة من النخب الألمانية في الوقت نفسه: (ما هو التنوير؟).

فكان جواب كانط: (التنوير هو خروج الإنسان من قصوره الذي يرجع الذنب فيه إليه، وهذا القصور هو عدم المقدرة على استخدام العقل إلا بتوجيه من إنسان آخر، والذنب في هذا القصور يرجع إلى صاحبه، إذ لم يكن سببه هو نقص في العقل، بل كان نقصاً فيما ينبغي من عزم وشجاعة لاستخدام العقل دونما توجيه من إنسان آخر.

لتكن لديك الشجاعة لتستخدم عقلك هذا هو شعار التنوير، وإن الكسل والجبن هما السببان اللذان يرجع إليهما رضاء نسبة كبيرة من الناس بالقصور طوال حياتهم بعد أن خلصتهم الطبيعة من توجيه الآخرين.

وهما كذلك السببان اللذان يرجع إليهما سهولة استئثار الآخرين بالوصاية عليهم، وإن في القصور لراحة، فهناك الكتاب الذي له في نظري العقل والكاهن الذي له في نظري الضمير والذي يقرر لي ما أتناوله[٣]، وهكذا فليست بي حاجة لأن أجهد نفسي، لست بحاجة إلى التفكير ما دام يمكنني الدفع، وهناك من يقومون من أجلي بهذه المهمة الثقيلة.. وليس هناك شيء يتطلبه التنوير قدر ما يتطلب حرية الاستخدام العلني للعقل في كل الأمور)[٤].

٢ – الطبيعية:

(آمن دعاة الاستنارة بأن الطبيعة لها قوانينها الثابتة المطردة المعقولة، وأنها كل مادي ثابت متجاوز للأجزاء له غرض وهدف، ولذا فهي مستودع القوانين المعرفية والأخلاقية والجمالية، وما دام الإنسان مرتبطاً بالطبيعة مهتدياً بهديها، فإنه سيصل إلى الطريق المستقيم ويصل إلى المنظومات المعرفية والأخلاقية التي تخدم صالحه وتحقق التقدم اللانهائي وتعمل على ضبط المجتمع وترشيد السلوك الإنساني، فظهر الإنسان الطبيعي والحقوق الطبيعية، والدين الطبيعي والأخلاق الطبيعية)[٥].

وعن هذين المحورين: نتجت باقي النظريات والقيم التي يجعلها مؤرخو الفكر أعمدة التنوير الفكرية وهي: العلمانية، الحرية، المساواة، الديمقراطية، التقدم، التاريخية، الوضعية، واللادينية[٦].

٧ – يقول تودوروف في عرضه لأسس التنوير الفكرية: (إن أول سمة تكوينية لفكر الأنوار تتمثل في جعلنا نفضل ما نختاره ونقرره بأنفسنا على ما تفرضه علينا سلطة خارجة عن إرادتنا، ومن ناحية أخرى ينبغي الانقياد طوعاً للقوانين والقيم والقواعد التي يرغب فيها بالذات أولئك الذين هي موجهة إليهم.. ليس لأي سلطة مهما كانت راسخة أو محترمة أن تبقى في مأمن من النقد، وأن ليس للمعرفة سوى مصدرين هما العقل والتجربة.. وأفضى مبدأ الاستقلالية إلى مبدأين، أولهما يتعلق بالسيادة بحيث صار الشعب مصدر كل سلطة ولم يعد

---

(١) وليس خفياً على الباحث أن بين هذه الاتجاهات التنويرية، سواء من حيث تنوعها الجغرافي أو تطورها التاريخي أو حتى بتعدد أفرادها؛ ألواناً من الخلاف ربما تبلغ بنا أن نرى أن الدقة إنما تستدعي الحديث عن استنارات وليس استنارة واحدة، لكن يضطرنا لهذا الإجمال الطبيعة المدرسية لهذا التلخيص مع اتفاق هذه الاتجاهات في الأصول الفارقة بينها وبين الإسلام.

(٢) (فكرة حركة الاستنارة وتناقضاته) (ص/١٣).

(٣) أحد العلمانيين العرب لما نقل نص كانط حذف مثال الطبيب، بينما نبه آخر على أن مثال الطبيب هو أضعف أمثلة كانط، ولو تدبر هؤلاء جميعاً هذا المثال وضعفه لعلموا أن ضعفه دال على ضعف المثالين قبله، ودال على الخلل الكبير في التصور التنويري للعقل، ولبسط هذا موضع آخر إن شاء الله.

(٤) انظر ترجمة نص كانط كاملة في: (صفحات خالدة من الأدب الألماني)، ترجمة وتقديم مصطفى ماهر (ص/٧٩–٨٧)، نشر: المركز القومي للترجمة بمصر.

(٥) (فكرة حركة الاستنارة وتناقضاته) (ص/١٦–١٧).

(٦) مع التنبه للطبيعة الطيفية لعلاقة هذه المفاهيم بفكر كل فيلسوف على حدة، فلا يلزم اجتماعها في واحد منهم ولا يلزم وجودها في كل واحد منهم أو وجودها بنفس القوة.

ثمة شـــيء أعلى من الإرادة العامة، وثانيهما مبـــدأ حرية الفرد في حدود دائرته الخاصة)[1].

٨ – وإذاً فقد تبلورت في حقبة التنوير الأوروبي حزمة من المفاهيم والنظريـــات المعرفية والدينية والأخلاقية والاجتماعية والسياســـية كانـــت هي الوقود الفكري والفلســـفي لعربة الحداثـــة الغربية، وما أنتجته بعد ذلك من مذاهب فلســـفية وسياسية واقتصادية ونفسية واجتماعية، فيمكننا بشيء من التجوز أن نقول إن علاقة أفكار التنوير وقيمه بالمذاهب الفلســـفية والأدبية والاجتماعية والسياسية الغربية الحديثـــة؛ هي علاقة المنهج والرؤية بالقضايا والمســـائل، فالعقلانية العلمانية نازعة القداســـة والسحر عن العالم هي الإطار الذي تعمل داخله المذاهب الفكرية الغربية كلها.

٩ – وقد تعرضت هذه الحداثة نفسها بوقودها الفكري التنويري لنقد غربي لاذع لا يبدأ بنيتشـــه وهايدجر[2] ولا ينتهي بأطوار ما بعد الحداثة[3]، مروراً بمدرسة فرانكفورت[4]، وقد قوبل هذا النقد بموجة دفاعيـــة[5] أخرى تعترف ببعض أخطاء التنوير، لكن مع التنبه إلى أن نقاط الاختلاف بـــين نقاد التنوير الغربيين والمدافعين عنه كثير منها في جهات تختلف عن النقد الإسلامي له.

١٠ – وكانـــت هي الثقافـــة العالِمة التي حملتها جيـــوش أوروبا في اصطدامها بالشرق العربي والإسلامي على الخصوص، وعملية الاصطدام هذه هي التـــي ولّدت نوعي التنوير الموجودين في الشـــرق، وهما: التنوير الشـــرقي العلماني، والتنوير الشـــرقي الإســـلامي، وهما القسمان الثاني والثالث من القسمة التي ذكرناها في بداية المقال، وهذا أوان بيانهما:

ثانياً: التنوير العلماني الشرقي:

١ – يُعطي أكثر مؤرخي الفكر العربي أهمية اســـتثنائية للحملة الفرنســـية على مصر (١٧٩٨م) وما حملته معها من أدوات التحديث وقيـــم الحداثة، ويعدونهـــا لحظة اصطدام الشـــرق والغرب، وهو الاصطدام الـــذي أحدث تصدعاً فكرياً فـــي الأبنية الفكرية العربية نقلهـــا من مرحلة العقائد والمذاهب الفكرية التراثية إلى مرحلة تشـــكيل المواقف من المنظومة الفكرية الغربية تشكيلاً فتح المجال لنشأة تيـــارات فكرية لم تكن موجودة فـــي المنطقة قبل هذه الحملة، فكانت هذه الحملة الشـــرط التاريخي لبروز تيار التغريب وتيار التنوير الإسلامي[6] على ما سيأتي بيانـــه، ويبقى الحديـــث الآن معقوداً للتيـــار التنويري العلماني، والذي يسميه بعضهم تيار التغريب أو التيار الحداثي.

٢ – إذا تتبعنا التنوير العلماني الشرقي منذ تاريخ الحملة الفرنسية، ســـنجد رموزه هم المجموعة التالية من المفكرين: بطرس البســـتاني (١٨٨٣م)، وفرنسيس مراش (١٧٨٣م)، وشـــبلي الشـــميل (١٩١٧م)، وفرح أنطون (١٩٢٢م)، وقاسم أمين (١٩٠٨م)، وأحمد لطفي الســـيد (١٩٦٣م)، وطه حســـين (١٩٧٣م)، وعلي عبد الرازق (١٩٦٦م)، وســـلامة موسى (١٩٥٩م)، وأنطون سعادة (١٩٤٩م)، وســـاطع الحصري (١٩٦٨م)، وزكي نجيب محمود (١٩٩٣)، وصـــادق جلال العظم، وعبد الله العروي، ومحمد عابد الجابري (٢٠١٠م)، ومحمد أركون (٢٠١٠م)، ونصر حامد أبو زيد (٢٠١٠م)، وفؤاد زكريا (٢٠١٠م)، وحسن حنفي[7]، وعبد الكريم سروش.

ثالثاً: التنوير الإسلامي:

١ – ينبغـــي أن يكـــون واضحاً منـــذ البداية أني اخترتُ استخدام هذا المصطلح لأعبِّر به عن هذا التيار مفضلاً له عن مصطلـــح (العصرانيين) وعن مصطلح

(١) (روح الأنوار)، ص/١٠–٢٣، وقد اقتطعنا من هذا السياق الطويل الجمل التي سقناها في هذا المقطع.

(٢) انظر: كتابا المفكر المغربي محمد الشيخ: (نقد الحداثة في فكر نيتشه)، و(نقد الحداثة في فكر هايدجر)، من منشورات الشبكة العربية للأبحاث.

(٣) راجع مثلاً: (نقد الحداثة) لآلان تورين، ترجمة أنور مغيث، نشر المركز القومي للترجمة؛ و(المدخل الفلسفي للحداثة) لابن داود عبد النور، نشر: الدار العربية للعلوم.

(٤) خاصة كتاب أدورنو وهوركهايمر: (جدل التنوير)، نشر دار الكتاب الجديد، وكتاب هوركهايمر: (نقد العقل الأداتي)، وكتاب آدورنو: (الجدل السالب)، ولم أطلع عليهما كاملين مترجمين، وإنما نقولات مترجمة عنهما، وقد اتكأ عليهما المسيري كثيراً في نقده للتنوير والحداثة الغربية، ووجّه إليه النقد بسبب ما اعتبره نقاده غفلة منه عن أثر التجربة التاريخية والمجتمعية والسياسية لرواد مدرسة فرانكفورت في منهجها النقدي، وانظر نموذجاً عربياً آخر لنقد التنوير يصدر من علماني عربي ذي خلفية اشتراكية هو الدكتور جلال أمين في كتابه: (التنوير الزائف)، نشر دار العين.

(٥) راجع مثلاً: (القول الفلسفي للحداثة) ليورجن هابرماس، نشر: وزارة الثقافة السورية؛ و(روح الأنوار) لتزفيتان تودوروف، نشر: دار الفارابي.

(٦) ومن أقدم التصورات للتيارات الفكرية على هذا النحو ما كتبه محمد رشيد رضا في رسالته الخلافة كما تجد نصها ضمن كتاب الدولة والخلافة في الخطاب العربي (ص/٩١–٩٤)، وانظر منها (ص/١١٩)، و(١٢٧) كمثال على ما سنقوله بعد من سلوك علماء ومفكري هذه الطبقة لمسالك الشذوذ الفقهي أثناء عملية المواءمة بين الحداثة الغربية والشريعة نصاً وتراثاً.

(٧) وليس خفياً على الباحث ما وجهه حسن حنفي (مثلاً) لبعض قيم التنوير من نقد، لكن الشأن كما قلنا في موارد الاشتراك بينه وبين فكر التنوير ومدى استيفائها لشرط الأصالة والمركزية المؤذنين بإدراجه ضمن نفس السلك وإن لم يقل بكل مكوناته.

(الإصلاحيين)؛ لأني أراه أدق في التعبير عن المراد(١)؛ لأنه يحتفظ لهذا التيار بالمكونين الرئيسين اللذين أوجبا اعتباره تياراً فكرياً مستقلاً، مع التنبيه إلى أن بعض رموزه قد استعملوا هذا التعبير بالفعل لتمييز تيارهم، لكن كان المراد به عندهم أن للإسلام تنويره المستقل المختلف عن التنوير الغربي، وأن هذا التنوير الذي جاء به الإسلام ينبغي أن يكون هو مقصد ومحور العمل والدعوة وليس التنوير الغربي(٢). وبلا شك فليس هذا هو مقصدي باستعمال المصطلح، وإنما مقصدي تمييز هذا التيار نفسه بهذين الركنين (التنوير - الإسلامي)، ولكل منهما دلالة معرفية في التصنيف تتضح في النقاط التالية.

٢ - النموذج التحليلي الذي أعتمده في نظرتي للتيارات الفكرية الشرقية وعلاقتها بالتنوير يجعل من الإيمان بمرجعية الوحي وقدسية سلطته معياراً فاصلاً بين التنوير العلماني والإسلامي، فالعقلانية العلمانية التي تعزل الوحي عن أي منطقة من مناطق نفوذه هي المكون الرئيس الذي يكفي توفره في تيار فكري عربي ليتم إدراج هذا التيار في نطاق التنوير العلماني، وليكون بذلك لاحقاً وتابعاً للتنوير العلماني الغربي وتبدياته في المجتمعات الشرقية العربية والإسلامية، مع تسليمي بأن من قواعد التنوير وأصوله ما قد يُضيعه بعض من يتوافر فيهم المكون العلماني، وأرى أن أي عملية تصنيف فكري لا بد لها من الارتكاز على أصول عضوية يكفي توفرها للدخول تحت حيز الصنف الفكري وإن وقع بعد ذلك نقص أو استثناء في استيفاء المكونات الفكرية للتيار، لكن المهم أن يكون المكون الذي عددناه أصلاً ومركزياً تقوم الحجة على صلاحيته للقيام بهذه الوظيفة المهمة في عملية التصنيف، ويكفيني من الحجة على عدم العقلانية العلمانية مثالاً جيداً على هذا الأصل أن من يُسَلِّم بسلطة الوحي على العقل ومرجعيته المتجاوزة وكونه معياراً للممارسات الفردية والاجتماعية والسياسية معاً؛ أنه بهذا خرج يقيناً من التنوير الغربي العلماني(٣)، وبريء منه مفكروه لو عرفوه، وأن من أثبت الوحي كمرجعية متجاوزة لم يستطع استيفاء باقي مكونات التنوير الغربي إلا بعد أن يستثني ويقص منها كل ما يتعارض مع هذه المرجعية التي سلم بتجاوزها؛ فالعقلانية العلمانية هي المكون العضوي الذي إذا اختل أو تغيَّر اختلت بتغيُّره المنظومة الفكرية التنويرية الغربية كلها.

٣ - إذا اتضح هذا ظهر جلياً أن الشق الثاني من عبارة التنوير الإسلامي المقصود بها في تحليل الباحث هو احتفاظ هذا التيار الفكري ومفكريه بالمرجعية المتجاوزة الملزمة للوحي، وعدم قبولهم المكون العلماني للفكر التنويري؛ ولذلك تجد كثيراً من رموز التنوير الإسلامي من أكثر من يتناولون العلمانية والتنوير الشرقي العلماني بالرد والنقد(٤).

٤ - فما الذي استحقوا به الشق الأول من المصطلح إذاً؟

الجواب: أنهم استحقوا هذا الاسم بسبب قيامهم بعملية توفيق بين الإسلام (نصاً وتراثاً) وبين مفاهيم التنوير، فقبلوا منها ما رأوه حقاً، وردوا منها ما رأوه باطلاً.

إلى هنا فلا تثريب ولا إشكال(٥)، فهذا هو واجب العدل مع الناس مؤمنهم وكافرهم، وهو المنهجية العلمية الصحيحة في التعامل مع المفاهيم والمصطلحات أياً كان مصدرها.

ولكن الخلل الذي دخل على هذا التيار الفكري أثناء قيامه بعملية المواءمة والتوفيق هذه، والتي استحق بها تصنيفه كتيار فكري نراه مضيعاً لحق وواقعاً في باطل واستوجب تمييزه بهذا الاسم (التنوير الإسلامي)؛ هو: أنهم في عملية التوفيق هذه أضاعوا قطعيات من الشريعة وخالفوها إما بقبول باطل وإما برد حق، فكانت مخالفة القطعي، بقبول ما هو باطل من المفاهيم الغربية، ورد ما هو ثابت قطعي من الدين؛ هو الموجب لتصنيفهم على الصورة السابق ذكرها(٦)، ومن أمثلة

---

(١) فقد رفضت مصطلح العقلانيين (مثلاً) لأن مجرد رد الحق اعتماداً على العقل هو أعم من محل البحث؛ فلا ينطبق على التيار محل البحث ما لم يكن من مكونات هذا العقل الرافض: التأثر بمفاهيم ومنتجات التنوير الغربي، فإنكار العلو مثلاً عقلانية وليس تنويراً، والتسامح مع نشر الإلحاد تنوير، وإنكار تلبس الجني تتنازعه الجهتان فيقع وليس تنويراً كما وقع من المعتزلة قديماً، ويقع ويكون تنويراً كما في صور منه في زماننا هذا، ويمكن القول أن كل تنوير عقلانية بلا عكس.

(٢) انظر: (فكر التنوير بين العلمانيين والإسلاميين)، الدكتور محمد عمارة، (ص/١٦-١٨)، نشر: (دار نهضة مصر)؛ وانظر مقارنة الدكتور عمارة بين مقومات التنوير الغربي ومقومات التنوير الإسلامي في رسالته: (التقدم والإصلاح بالتنوير الغربي أم بالتجديد الإسلامي)، (ص/٢٠-٢٢)، نشر: دار نهضة مصر.

(٣) مع إقراري بإمكان تأثره بالمضامين العلمانية لكنه تأثرٌ لا يكفي لإدراجه ضمن سلك العلمانيين.

(٤) مع تفاوت بينهم في هذا؛ فطبقة الغزالي والقرضاوي ومحمد عمارة أعنف وأشد وأصرح في المصاولة الفكرية مع العلمانية من طبقة التنويريين السعوديين على سبيل المثال، ولهذا مدلوله السيئ عندي في نظرتي للتطور الفكري لهذا التيار.

(٥) فالتحسّس من التوفيق والعمليات التوفيقية بين الإسلام وغيره من المنظومات الفكرية ليس حسناً؛ لأن التوفيق الذي هو تفكيك المفاهيم وقبول الحق منها ورفض الباطل، هو مقتضى العدل وألا يُبخس الناس أشياءهم، وإنما يأتي الخلل دائماً من منهجية التوفيق وما يقع فيها من تطفيف في الميزان لصالح المنظومات غير الإسلامية.

(٦) وبيّن جداً أننا من حيث الجملة نحمل مخالفة القطعي منهم تقع على سبيل التأويل والخطأ في فقه الشريعة وليس العمد.

القطعيـــات التي ضيعها بعـــض أولئك المفكريـــن أثناء عملية المواءمة هـــذه: قصر مفهوم الجهاد في الإســـلام على الدفع، وإنكار شـــيء من المعجزات الثابتة بالأدلـــة القطعية، وتحريف بعـــض نصوص الوحي تحت ضغط العلوم الحديثة مثل تحريف مفهوم (الطير الأبابيل)، وإطلاق القول بعدم العقوبة على الآراء الباطلة، والقول بجواز تولي غير المسلم منصب حاكم المسلمين وولـــي أمرهم، والقول بإبدال المواطنة محل الذمة وإلغاء الذمة كصورة للعلاقة بين المسلم وغير المسلم، والقول بعدم جواز إلزام المسلمين بالشريعة رغم وجود الاستطاعة مراعاةً لحريتهم في الاختيار[1].

٥ – وأكثر هذه المســـائل التي ضيّعوا فيها القطعيات، هي من المســـائل التي أنتجتها العقلانية العلمانية، لكنهم لا ينتبهون للأســـاس العقلاني العلماني لها ويظنون هذه المسألة من الحق المشـــترك بين الوحي وبين الفكر الغربي، والحال ليس كذلك، والوحي منها براء، وهي مصادمة له، وما أنتجها سوى العلمانية التي تنزع الوحي عن القيم وتطبيقاتها.

٦– ويمكننا ذكر مسرد سريع برموز هذا التيار وهم: رفاعة الطهطاوي (١٨٧٣م)، وخير الدين التونســـي (١٨٩٠م)، وجمال الدين الأفغاني (١٨٩٧م)، ومحمد عبده (١٩٠٥م)، وعبد الرحمن الكواكبي (١٩٠٢م)، ومحمد رشـــيد رضا (١٩٣٥م)، ومصطفى عبد الرازق (١٩٤٧م)، وعبد المتعال الصعيدي، ومحمد الغزالي (١٩٩٨م)، ويوسف القرضاوي، وأحمد كمال أبو المجد، ومحمد عمارة، وفهمي هويدي، ومحمد ســـليم العوا، وحسن الترابي، وراشـــد الغنوشـــي، وطه جابر العلواني، ومحمد مهدي شمس الديـــن، وعبد المنعم أبو الفتوح، وســـعد الدين العثماني، وزكي الميلاد، ومحمد الأحمري.

٧ – والصورة اليقينية التي تكفي في تصنيف الرجل تحت هـــذا التيار الفكري هي أن يرد شـــيئاً مما ثبت بنص قاطع أو كان فيـــه إجماع قديم أو أن يقول قولاً مما فيه خلاف ســـائغ، لكنه في الحالتين يبني قوله على قيمة تنويرية وإن توســـل لها بالوحي، ولكـــن مجرد بنائه عليها وظهورهـــا في كلامه يكفي لتصنيفـــه ضمن هذا التيار، وذلك كأن يبني قوله بتولي الكافر حكم المسلمين على المساواة والإنسانية وعدم التفريق بين الناس على أساس الدين.

٨ – فإن لم يظهر الأساس التنويري في حججه تكون عندنا صورتان:

(١) الأولـــى: أن من الأقـــوال ما خالف نصـــاً قاطعاً، أو الإجماع القديم، وكان من نتاج ثقافة التنوير الغربي، إلا أنه قد تقدم فيه خلاف فقهي بين المســـلمين أو شبهة خلاف أو شبهة دليل، كقصر الجهاد على الدفع، فالإشـــكال حينها ليس في رد هـــذا القول ولا في نقد القائل به، وإنمـــا في صلاحية اعتبار الرجل تنويرياً بهذا القول بينمـــا قد يكون مبناه في قوله على النظر الفقهي دون أدنى تأثر بمفاهيم التنوير الغربي، ولم يظهر الأساس التنويري في كلامه ولم يعرف في سيرته.

والذي نراه أن العمدة في هذا أن يُنظر في ســـائر أحواله العلميـــة واختياراته الفقهية، فإن عُلم من مجموع قرائنها تأثره بضغط الثقافة الغربية كأن يكون هذا اختياره في جهاد الغزو، مع اجتهادات فقهية مُختلة أبـــواب الولاء والبراء؛ فإن مجموع القرائن قد يؤدي لتصحيح إلحاقه بهذا التيار الفكري.

وعلى العكس من ذلك، لا يمكنك أن تنســـب لهذا التيار من تراه يقصر الجهاد على الدفع لكن مجموع أقواله الأخرى فيها مصادمة للثقافة الغربية، خاصة في مواطن الاشتباه هذه.

مع وجوب رعاية إحســـان الظن وجعل الوســـم بذلك بعد مزيد التحري والاطمئنان للقرائن.

وهذا النهج أقرب لطريقة الفقهاء، فلا يُتوسع في تصنيف النـــاس بناء على أقوال مجردة لا بيّنة على ارتباطها بأســـاس فكري معين، ومن تضييقها بصورة مثالية تخالف قرائن الحال.

الصورة الثانية: ما يتنازع المسلمون هل فيه مخالفة للوحي أم لا؟ أو يتنازعـــون هل مصلحته هي الراجحة أم مفســـدته؟

---

(١) يمكن الوقوف على أمثلة كثيرة في الكتب التي تعرضت لنقض التيار العقلاني التنويري مع التنبه إلى أني قد لا أقر كل مثال في هذه الكتب، وأن بعض هذه الكتب قد تتناول اتجاهات التجديد التنويري منها والعلماني، وأن بعض هذه الكتب قد يتناول مطلق الاتجاه العقلاني فيتقاطع أحياناً مع التنويري وأحياناً أخرى يفارقه، ومن هذه الكتب:

١ – الاتجاهات العقلانية الحديثة، ناصر العقل، دار الفضيلة.
٢ – اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، فهد الرومي، مؤسسة الرسالة.
٣ – نهج الاعتزال، ظافر شرقة، مركز الفكر المعاصر.
٤ – التنويريون والموقف من الآخر، ظافر شرقة، مركز الفكر المعاصر.
٥ – موقف الاتجاه العقلاني الإسلامي من النص الشرعي، سعد بن بجاد العتيبي، مركز الفكر المعاصر.
٦ – موقف الاتجاه العقلي الإسلامي المعاصر من قضايا الولاء والبراء، دار الفضيلة.
٧ – التجديد في الفكر الإسلامي، عدنان أمامة، دار ابن الجوزي.
٨ – تجديد الدين لدى الاتجاه العقلاني الإسلامي المعاصر، أحمد اللهيب، مركز البيان للبحوث والدراسات.
٩ – مناهج الاستدلال على مسائل العقيدة الإسلامية في العصر الحديث، أحمد قوشتي، مركز التأصيل للدراسات والبحوث.
١٠ – الردود على كتاب السنة النبوية للشيخ محمد الغزالي – رحمه الله.

وليس في المسألة لا نص قاطع ولا إجماع قديم = لا يصلح هذا النوع من الخلاف الفقهي لإلحاق القائل به بالتنويريين، ومن أمثلته: الوسائل الإجرائية للديمقراطية، وتحديد مدد بقاء الحاكم في السلطة.

وحكم هذا النوع من الأقوال أنه من الخلاف السائغ المعتبر، وهو من جنس النظر الفقهي في أحكام الأقوال والأفعال، ومجرد كون القول هنا من نتاج عصر التنوير ونظرياته السياسية والاجتماعية لا يكفي لإلحاق الرجل بهذا التيار الفكري؛ لأن مصادمة الوحي القطعي هي الوصف المؤثر في رفض ما نرفضه من نظريات التنوير الغربي، وليس مجرد المصدرية، وعليه فإن مصادمة الوحي ها هنا ليست بينة ولا قطعية فامتنع عد القول باطلاً قطعاً أو إلحاق القائل به بالتنويريين، ولو كثرت المسائل التي من هذا النوع عند فقيه واحد، بخلاف الصورة الأولى التي تعد كثرة المسائل فيها دليلاً علمياً يلحقه بتيار التنوير الإسلامي وإن لم يُصرح بالأساس التنويري، أما في نوعنا هذا فكثرة المسائل لا تؤثر.

فإن قبول ما لا يخالف قطعيات الوحي ولا بينة على بطلانه من المنتجات الفكرية لعصر التنوير؛ هو مقتضى العدل في التعامل مع أقوال الناس، مع التنبيه على أنه لو ظهر الأساس التنويري في كلامه في هذه المسألة (كالذي يبيح كشف الوجه للمرأة بناء على حرية المرأة في لباسها)، أُلحق بها بالتنويريين بسبب منزعه الاستدلالي وليس مجرد قوله بهذا الرأي.

تنبيه: هل يكون الإلحاق التصنيفي مما تكفي فيه المسألة والمسألتان؟

الجواب: ليس لذلك حد محدود، فقد تكفي مسألة في إلحاق القائل بها بالتنوير الإسلامي إن كانت من المسائل المركزية في المنظومة الفكرية للتنوير الإسلامي وكان الأساس التنويري لاستدلال القائل بها ظاهراً، وقد نحتاج إلى حزمة من المسائل لإلحاقه بهذا التيار، ولا شك أن تقليل التصنيف أحسن وطلب كثرة المسائل والدلائل قبل التصنيف أولى، وكلما قيل في الرجل وافق مدرسة التنوير الإسلامي في هذه وتلك، كان أفضل من المسارعة لإلحاقه بالتيار إلحاقاً تصنيفياً.

وأخيراً: فليس سراً أن هذه مقالة تصنيفية بامتياز، والغرض منها فصل ما بين أقوال الناس حقها وباطلها، والفصل ما بين رتب هذا الباطل نفسها وتمييز الفقهاء وخلافهم الذي وإن وقع فيه شذوذ فهو نظر في الوحي وفقهه ومصادر فهمه دون مصدر فلسفي أجنبي، وبين من كان سبب شذوذه إدخاله فكرة أجنبية عن الشريعة على عمليات تعقله للمسألة أدت لاختلال نظره؛ فالتصنيف ها هنا ضرورة معرفية، وإلا لزمتنا التسوية بين من يكفّر تارك الصلاة لدلالة الأخبار وبين من يكفّره لأنه يرى أن مرتكب الكبيرة كافر!

أو التسوية بين من ينفي صفة من صفات الله لضعف الخبر الوارد فيها عنده، وبين من ينفيها لنفيه إمكان تعلق الصفات الخبرية بالله سبحانه.

ولا ينبغي أن يقودنا غلو أقوام وبغيهم ووضعهم التصنيف في غير مواضعه إلى تضييع التصنيف، وإهدار أهميته المعرفية في نقد العقائد والأقوال والأفكار والرجال، فلا حرج في التصنيف شرعاً ما دام قد بُني على أساسين:

الأول: العلم، فلا يقام تصنيف على غير أساس معرفي، ولا ينسب رجل لصنف إلا ببيّنة على الاشتراك العلمي والفكري بينه وبين أفكار هذا الصنف اشتراكاً يكفي للتصنيف.

الثاني: العدل، فلا يُبنى على هذا التصنيف بغي ولا جور ولا رفع للإعذار عمن لا بيّنة على عدم إعذاره.

فالتنويريون (وهم متى أطلقناهم بعد هذا المقال فمرادنا بهم التنويريين الإسلاميين)، ليسوا علمانيين، وتهمتهم بهذا أو رفع إمكانية إعذارهم أو نفي كون الواحد منهم يمكن أن يكون مجتهداً متأولاً معذوراً؛ ليست من مقتضيات العدل مع الناس، بل هم من جنس النظار في الشريعة والوحي وفقهه متى كانوا أهلاً للاجتهاد أمكن إعذارهم كسائر أصحاب الأقوال الشاذة والمبتدَعة، مع احتفاظنا بالتفريق بين شذوذهم وشذوذ الفقهاء لزيادة عند التنويريين متعلقها الثقافة الغربية وأثر اختلاطها بنظرهم العلمي.

الرضيع

طفلي الرضيع

خصائصة ـ صحته ـ تربيتة

مشروعنا
وظف مختلف
المتخصصين

مشروعنا:

- بناء علمي منهجي.
- تنويع في شكل المعلومات.
- توظيف المتخصصين بكافة مجالاتهم في مراحل المشروع.
- توسيع دائرة المشرفين في منتجات المشروع.
- تنويع بيئات المشاركين وتجاربهم.

www.albayan.co.uk

الرياض: ـ هاتف: ٤٥٤٦٨٦٨ تحويلة: ٥٠٠ و ٥٠٢ فاكس: ٤٥٣٢١٢١

التوزيع والمبيعات: ٠٥٠٤٤٧٨٩٣٢ ٠٥٠٢٢١٠٩٢٠ـ ٠٥٠٣٤٠٩٨١٦ـ ٠٥٠٣٨٩٦٣٦٥ـ ٠٥٠٦٤٦١٠٦٥

جدة: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٧ مكة والمدينة: ٠٥٠٧٢٦٦١٢٠ المنطقة الجنوبية: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٨

المنطقة الشرقية: ٠٥٠٦٢٩٢٦٨٩ منطقة القصيم: ٠٥٠٢٢٢٠٦١٦

تاريخ تطور الفكر التربوي الإسلامي

علي عفيفي علي غازي(*)

الفكر الإسلامي فكرٌ شموليٌ يقوم على أساس من العقيدة الربانية، وتأثيره في السلوك كبيرٌ، وهو من أعظم حاجات الإنسان المسلم في مراحل نموه كافة، من هنا لا بد من الاهتمام بتثقيف الطالب المتلقي للتعليم وتربيته على أساس هذا الفكر في المراحل الدراسيّة المختلفة، بما فيها المرحلة الجامعيّة، بما يتلاءم مع مستوى نضج الطالب وحاجاته وخبراته.

تبدأ صلة المسلم بالفكر الإسلامي من طفولته، وتستمر في التصاعد بنمو وعيه وإدراكه، وهو بحاجة دائمة إلى ما يُلبي شغفه للعلم والمعرفة، وشوقه للصلة بربه، ورغبته في تطوير سلوكه، وهو يتوقع أن يجد في كل مرحلة ما لا يجده في المراحل السابقة، لذا لا بُد من مراعاة ذلك عند قيادة العمليّة التعليميّة، بما في ذلك الكتاب الذي يشكِّل، مع المحاضرات، المرجعيّة الأولى للطالب.

وقد حاول علماء التربية إعطاء مفهوم للفكر التربوي، فقال بعضهم إنه «مجموعة المسلمات والأفكار التي تؤلف النظرية الواحدة أو النظريات المتقاربة، والتي بدورها تعدُّ المرجعية والأساس لواضعي الاستراتيجيات والبرامج العملية في ميدان التّعليم». وعلى هذا الأساس فهي جهود في الجانب النظري يتوقع أن يكون لها تأثير وفاعليّة في الجانب العملي للتعليم.. والفكر التربوي باعتباره إحدى صور الفكر على وجه العموم، هو وليد حركة المجتمع في بنيته الأساسية، وإفرازها؛ فعلى صفحاته تنعكس الظروف الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، وتشكِّل اتجاهاته ومساراته بما تتخذه هذه الظروف من مسارات واتجاهات.

وإذا كان الفكر انعكاساً صادقاً لحياة الجماعة الإنسانية، فإن نوعه يتحدد بنوع هذه الحياة، وبالإطار العقائدي الذي يوجِّه مسارها، وطالما أننا نعيش في مجتمع إسلامي، فإن الفكر الذي يعكس حياتنا الثقافية في المجال التعليمي هو الفكر التربوي الإسلامي؛ بكل أصوله وركائزه ومحدداته ومقوماته وأساليبه النابعة من شريعتنا الإسلامية، وواقعنا الإسلامي، وتطلعاتنا المستقبلية.. وأصالة هذا الفكر تبدو في قدرته على تفسير الظواهر التربوية، والعلاقات الإنسانية، وتتبُّع نتائجها، والتنبؤ على أساسها، وتتمثل أصالته كذلك في شجبه أنماط الفكر الأخرى القائمة على المساومات الهامشية، والحلول الوسطية، والنزاعات الخرافية، والاتجاهات الميتافيزيقية، كما أن أغراض هذا الفكر تستهدف المحافظة على تراثنا الروحي، ودعم مبادئ وأهداف المجتمع الإسلامي، واستيعاب روح العصر ومطالبه في القدرة على التغيير والتجديد والابتكار والارتقاء.

(*) صحفي وأكاديمي مصري.

أما «الفكر التربوي الإسلامي» فهو «إسهامات قدِّمت من مفكرين إسلاميين لخدمة التربية والتعليم على مر العصور الإسلامية إلى اليوم».. هذه الإسهامات أصبح تأثيرها محدوداً نتيجة التحدي الذي أوجده دخول التغريب الثقافي، والعلوم الاجتماعيّة الغربية، في ثقافات البلاد الإسلاميّة، وجمود هذه الإسهامات عن إحداث «التجديد» في ميدان التّربية في المجتمعات الإسلاميّة، وتوجيه العملية التربوية فيها لتكون مؤدية دورها في المجتمع، قادرة على إحياء القيم الإسلاميّة فيه، بعيدة عن تأثير القيم المتعارضة مع الإسلام، ليكون الإسلام ديناً ومنهجاً للحياة، والعاملَ الأساس في بناء هذه المجتمعات وحركتها، ليحقق في هذه المجتمعات انتماءها للإسلام، وتنتهي حالة اغترابها عن دينها وحضارتها وقيمها.

وقد كثر نتاج المفكّرين التربويين الإسلاميين في بداية تشكّل الفكر التربوي الإسلامي، للتأكيد على فرضيّات أساسيّة قد تعدُّ بمنزلة المرتكزات الأساسيّة لنظرية أو نظريّات إسلاميّة تربويّة، لذلك قد تعدُّ عموميّات أو مسلّمات لجهد فكري مستقبلي أكثر تخصّصاً وملاءمة، وكثير من هذه الفرضيّات مقتبس من التصور الإسلامي العام عن الوجود والكون والحياة والمجتمع، ولا يتصل بالتّربية وحدها.

ويمكن أن نذكر من هذه الأسس العامة: مفهوم ربانية المجتمع الإسلامي، تكامل خلق الإنسان وجوانب شخصيته، تناسق الخلق في آيات الكون، تكامل الأنظمة الإسلاميّة ومبادئ الشّريعة، كمال الدّين الإسلامي وختمه لرسالات الأنبياء، شمول مفهوم الإيمان وعمق تأثيره في النفس والمجتمع، مفهوم العبادة الشّامل، تجديد أمر الدّين بتجدد متغيرات الحياة، شمول الرّسالة وصلاحيتها المستمرة بتغيرات الزمان والمكان، وتغيّر ما في الواقع بتغيير ما في الأنفس.

ومن الفرضيات التي بُني عليها الفكر التربوي الإسلامي ما هو متعلّق بالنظرة للواقع والمجتمع في الحقبة الأخيرة، مثل: ضرورة بناء نهضة أمة الإسلام على أساس قوي من دينها، وأن تعيد صياغة ثقافتها بما يوافق أسس بنائها ويمنحها القدرة على الانطلاق من حضارتها.. ومعظم مفكّري الإسلام لا يرون أن الثقافة الغربية تصلح أساساً للنهضة قبل أن تتمكن المجتمعات الإسلاميّة من نقدها وتعديلها حسب ثقافتها الإسلاميّة الأصيلة.

وخلال عقود من الزمن قدَّم الفكر التربوي الإسلامي إسهامات واسعة، ربما إلى درجة يصعب معها الإحاطة بمعالمه وأساسياته الرئيسة، ويزيد من هذه الصعوبة أن هذا الفكر بعد أن أُقرت مسلماته أو معظمها، لم تكن الإسهامات التي بُنيت عليها متجهة في اتجاه واحد، على كثرة ما فيها من اجتهاد وإبداع.

ويمكن أن نلاحظ في إسهامات الفكر التربوي الإسلامي الواسعة أربعة محاور تركّزت حولها المعالجات، المحور الأول: تركز حول نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية في سبيل معرفة ما تؤكّد عليه من قيم، وما تقدمه من معلومات وتصورات عن الإنسان والكون والحياة، وما تحويه من مناهج للبحث والتطبيق. والمحور الثاني: تركز حول الإنسان والمجتمع الإسلامي المنشود بهدف بناء تصورات عن الإنسان وتكوينه، وسلوكه الفردي والاجتماعي، والسنن التي تحكم حركة المجتمعات.

أما المحور الثالث فدار حول التاريخ والتراث لأجل معرفة واقع التّربية في مجتمعات المسلمين السابقة وسير السلف الصالح، باستخلاص الفكر النظري والواقع العملي، أو بمعنى آخر استخلاص ما فهمه الأشخاص المربون وما كان يجري في واقع تربيتهم، بهدف معرفة أثر النصوص والمبادئ العامة في بناء تلك المجتمعات وما ساد فيها من فكر وواقع ومعرفة عناصر وعلاقات أنظمته التّعليمية، في محاولة لجعله مصدراً لواقعنا الحالي، وتجربةً يمكن أن يُقتبس منها.

وتركز المحور الرابع والأخير حول الواقع المعاصر بما فيه من عناصر موافقة أو مخالفة للإسلام، بقصد تقويم هذا الواقع وملاحظة دور الثقافة الإسلاميّة أو الغربية فيه، ومعرفة كيف يمكن للمسلمين أن يتعاملوا معه، واستكشاف الأساليب الممكنة لتغييره وتقريبه من الإسلام.

ومصادر المعرفة في التصور الإسلامي نوعان: أولهما: الوحي في الجوانب التي يعلم الله سبحانه وتعالى أن الإنسان لا يهتدي فيها إلى الحقّ من تلقاء نفسه، والتي لا تستقيم فيها الحياة على وجهها السليم إلا بمفردات ثابتة من عند الله المحيط بكل شيء علماً. وثانيهما: العقل البشري وأدواته في تفاعله مع الكون المادي نظراً وتأملاً وتجربةً وتطبيقاً في الأمور التي تركها الله العليم الحكيم لاجتهاد هذا العقل

وتجاربه، بشـــرط الالتزام التام فيها بالأصول العامة الواردة في شريعة الله المنزَّلة، بحيث لا تحل حراماً ولا تحرِّم حلالاً، ولا تؤدي إلى الشّر والضرر والفساد في الأرض.

تجديد الفكر التربوي الإسلامي

كل ما في الكون يتجدد ويتغير باســتمرار، تلك سنة الله في خلقه، والكائنات الحية تتجدد وتتغير وفق تغير الظروف الطبيعية من الخارج، ووفق فاعلية الجسم والفكر من الداخل. ولمـــا كان الفكر التربوي في العالم الإســـلامي نتاجاً لحيوية الإنســـان المســـلم؛ فإنه يخضع بدوره للناموس العام، ناموس التطور والتجدد.. والمجتمعات الإسلامية تتطور وتتجدد كلما دأبت على تجديد فكرها التربوي، وترقد وتتخلف كلما توقف وتخلف فكرها التربوي.

وتجديد هذا الفكر لا يعني هدم أو مسخ ما هو قائم، بل يعني إدامته مع إصلاح ما انتابه من خلل، وإضافة ما تتطلبه الظروف والحاجات الجديدة من إضافات، وحذف ما أصبح غير متوافق مع المستجدات. وإن الدعوة إلى التجديد ليست بدعة، بل هي جزء من تعاليم الإسلام الخالدة التي وردت في الحديث الشـــريف: «إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة مَن يجدد لها أمر دينها».

وتجديـــد الفكر التربوي الإســـلامي يتطلب إعادة النظر في شـــؤون التربية الإســـلامية كما تمارس اليوم في البيت، وفي المدرســـة، وفي البيئة المحيطة، وما تحويه من مؤسسات دينية واجتماعية واقتصادية وسياسية.. فقد تقدم المسلمون يومَ كان الفكر التربوي الإســـلامي حياً نامياً متجدداً، وخمل المســـلمون يومَ ركد الفكر التربوي الإســـلامي وســـاد العالمَ الإســـلامي الجمودُ الفكري والتعصب والتشرذم. فإذا أردنا اليـــوم تحقيق النهضة الشـــاملة والارتقاء؛ لا بد أن نفكر في تجديد التربيـــة، لكن، ما التجديد الذي نريده للفكر التربوي الإسلامي، وما مصدره؟

إن التجديد الذي يتطلبه الفكر التربوي الإســـلامي ينبع من دراســـة جديدة متعمِّقة وشـــاملة للقرآن الكريم، والسنة النبوية الشـــريفة، وتراثنا التربوي الإســـلامي، ومشـــاكلنا الإســـلامية المعاصرة، وآمالنا وطموحاتنا المستقبلية ـ دراسة التطـــورات العلميـــة والتقنيات، وما يرافقهـــا من تنظيمات تربوية واقتصادية واجتماعية في البلاد المتقدمة.. وفي ضوء هذه الدراســـات نعيد النظر في أهدافنا التربوية، ومحتويات برامجنا التربوية والتعليمية، والوســـائل والأســـاليب المتبعة لتحقيق الأهداف، فنعيد صياغتها من جديد.

ويدق هذا الناقوس محـــذراً الدكتور بدر حمد المحيلبي في كتابه الصادر عن مكتبة الفلاح للنشـــر والتوزيع مؤخراً، محاولاً «إعطاء فكرة شـــافية وافية عـــن أبرز ملامح تطور الفكر التربوي الإســـلامي»، فعرض صورة مبسطة عن الفكر التربوي الإســـلامي بصـــورة عامة، وبيَّن أهـــم معالم الفكر التربوي في الإســـلام، وتاريخه، وتطرق إلـــى مفهوم التربية الإسلامية وأهدافها، وأساليبها، وأبرز الاتجاهات والآراء في تعليم المرأة في الفكر الإسلامي، ثم أهم المؤسسات التعليمية في الفكر الإسلامي، واختتم بعرض موجز لبعض أعلام الفكر الإسلامي القديم والمعاصر وبيان لأهم أفكارهم واتجاهاتهم في بعض قضايا التربية المهمة.

فجـــاء الفصل الأول متناولاً أبـــرز ملامح الفكر التربوي في عصر ما قبل الإســـلام، ولتكتمل الصورة عرض مظاهر التغيير التي أحدثها الإســـلام، وموقفـــه الإيجابي من طلب العلم والســـعي وراء المعرفة، وتطور هـــذا الفكر، مؤكداً دور حركة الترجمة والنقل من الحضارات الأخرى في تطور العلوم التربوية العربية الإســـلامية، انتهاءً بســـقوط بغداد على يد المغول، وانهيار الخلافة العباســـية، وانهيار النظام الإسلامي معها، فقد ترتب على هذا الانهيار فترة اضطرابات سياسية، وصراعات عسكرية، انعكست على الحركة التعليمية العربية، فشـــهدت بعض الركود، حتى بدأ العالم الإسلامي ينهض من جديد بداية من الدعوة الســـلفية (دعوة الشـــيخ محمد بن عبـــد الوهاب) في الجزيرة العربية، وما تركته من تأثير على الفكـــر التربوي في العالم الإســـلامي أجمع، واختتم الفصل بأثـــر الانفتاح الثقافي العربي على العالـــم الغربي الأوروبي في أعقاب الحملة الفرنســـية على مصـــر، ودوره في ظهور مناخ ثقافي وفكري جديد شكلته تيارات التغريب والتحديث، فظهر تيار تجديدي إسلامي تصدى للاتجاه الفكري التغريبي العَلماني والليبرالي.

وفـــي الفصل الثاني عَـــرَّف مفهوم التربية الإســـلامية بأنها «عملية تنمية شـــاملة للفرد فـــي جميع النواحي، وذلك

لإعداد الإنسان الصالح، مستمدةً من القرآن والسنة النبوية، وتمارسها الأمة الإسلامية»، مشيراً إلى أن التربية الإسلامية تتميز بأنها ربانية المرجع، ومستمرة، وليست روحية فقط، ولا مادية فقط، بل تجمع بينهما بتوازن نسبي، وشاملة، ولم يفته توضيح أهداف التربية الإسلامية من خلال بعض آراء المفكرين، وكذلك تناول أساليب التربية الإسلامية: القدوة، الثواب والعقاب، القصة، والأمثال؛ كأدوات لمساعدة الفرد على اكتساب المهارات والعادات والميول والقيم المرغوب فيها.

وتناول في الفصل الثالث «تعليم المرأة في الفكر الإسلامي»، فالإسلام رفع من مكانة المرأة وساوى بينها وبين الرجل في العبادات، والواجبات، والمسؤوليات، وكفل لها حقوقها، لأنها هي «الأساس الأول في بناء البيت، ومحور الفلك الأسري»، فالمرأة في منظور التربية الإسلامية تحتل مكانة عالية، لأنها مربية الأجيال، وهي الأسرة، وبالتالي هي المجتمع كله. ولقد كانت المرأة قبل الإسلام في المجتمعات الغربية غارقةً في بحار الجهل، وعانت كثيراً في سبيل الوصول لحقوقها، بعدما كانت تُحسب في عداد الممتلكات، ولا ترث أباها، ولم تعطِ الثورة الفرنسية في نهاية القرن الثامن عشر المرأة حقوقها كاملة واعتبرتها قاصرة، رغم مبادئها: الحرية والإخاء والمساواة. واختتم بأن الإسلام حضَّ على تعليم المرأة جميع العلوم، الدينية وغير الدينية، وشجع على ذلك، وحث عليه؛ بشرط ألا يؤثر ذلك على دينها وأخلاقها، ولا على وظيفتها الأساسية كأم ومربية، وقدم الأمثلة الكثيرة لنساء متعلمات لعبن دوراً كبيراً في الفكر الإسلامي على مدار العصور التاريخية المتطورة.

وفي الفصل الرابع شرح «المؤسسات التعليمية في الإسلام»، فأوضح أن الإسلام قد شجع على العلم، واعتبر العالِم أفضل من العابد، وعلى هذا تعددت وتنوعت مؤسسات التعليم في الإسلام فذكر منها: الأسرة، الكتاتيب، المساجد، المدارس، المكتبات، وحوانيت الوراقين، وخلص في النهاية إلى أن السلف من المسلمين قدَّروا العلم والكتاب حق قدره، فنهضوا؛ أما الآن «فلم يعد المسلمون يتمتعون بتلك الروح والهمة العالية في طلب العلم واقتناء الكتاب، بل نجد الغرب يسارع في طلب الكتاب.. وأصبح حال الكتاب في ديار الإسلام غريباً وحيداً.. وقد كلف هذا أمة الإسلام الكثير والكثير، وأصبحنا أمة مستقبلة بعدما كنا أمة مرسلة، وأمة مستهلكة بعدما كنا أمة منتجة».

وفي الفصل الخامس قدَّم نماذج «من أعلام الفكر الإسلامي»: الإمام أبو حامد الغزالي (١٠٥٩-١١١١م)، ابن خلدون (١٣٣٢-١٤٠٦م)، الشيخ عبد العزيز الرشيد البداح (١٨٨٧-١٩٣٨م)، الشيخ يوسف بن عيسى القناعي (١٨٧٨-١٩٧٣م)، الشيخ عبد الحميد بن باديس (١٨٨٩-١٩٤٠م)، الشيخ حسن البنا (١٩٠٦-١٩٤٩م)، و«بنت الشاطئ» عائشة عبد الرحمن (١٩١٣-١٩٩٨م)، فعرض لحياتهم ودورهم في النهوض بالفكر التربوي الإسلامي، وآرائهم في المسائل التربوية الإسلامية.

واختتم الفصل السادس والأخير بـ «قضايا تربوية معاصرة»، فبسط الحديث عن فلسفة التربية الأخلاقية في الإسلام بأنها تتبع منهجاً وسطاً من أجل تحقيق التكامل الأخلاقي لدى المتلقي شكلاً ومضموناً، وأوضح أن التربية الأخلاقية الإسلامية تهدف إلى تربية ضمير الإنسان المسلم على ممارسة السلوك الذي يحقق الأخلاق والإنسانية والاجتماعية؛ اقتداءً بالرسول المربي - صلى الله عليه وسلم - الذي كان خُلقه القرآن في أقواله وأفعاله.. وفي إطار تناوله للقضايا التربوية المعاصرة، تناول العولمة.. ماهيتها، نشوءها، تطورها التاريخي، أدواتها، ومجالات تأثيرها: السياسي والاقتصادي والعلمي والاجتماعي والثقافي، وهل هناك بينها وبين الفكر الإسلامي صدام أم توافق؟ وتناول كذلك «النفعية» كتيار فلسفي تربوي، فبسط المقصود بالكلمة، ودورها في التربية، وأثرها في الاقتصاد والمجتمع. وفي النهاية قدَّم نموذجاً من محاولات التجديد في الفكر الإسلامي، وهو ما يعرف بـ «مشروع إسلامية المعرفة»، والذي ظهر رداً على تحديات الفلسفات العَلمانية التي تحدَّت التعليم الإسلامي، والفهم الإسلامي للعالم المعاصر، وتناول أهدافه ووسائله لتحقيقها، والأساس الفكري الإسلامي له، واختتم بالنقد الموجه إليه بأنه لا يزال في طور الإعداد، مشيراً إلى أن هذا النقد ناتج عن «الضعف التراكمي الذي ابتلي به بعض المفكرين، وقلة الاطلاع على المستجدات، خصوصاً أن هذا المشروع نشأ في أمريكا وتبناه مفكرون عاشوا حياتهم في الغرب».

«عندما ترعى الذئاب الغنم»

مصطفى محمد الحسناوي

في ٣٠ مارس ١٩١٢م، وقَّع سفير فرنسا رينو، وسلطان المغرب عبد الحفيظ، معاهدةَ الحماية، وبموجبها أصبحت فرنسا الحاكم الفعلي للمغرب ويسهر السلطان على تنفيذ سياستها وتحمُّل تبعات إشباع رغباتها ونزواتها وأطماعها.

وقد اشتملت المعاهدة على تسعة فصول، تناولت ثمانية منها أطماع ومشاريع الاحتلال الفرنسي التي سيحققها بالتعاون مع السلطان، أو بعبارة أدق، سيستغل المحتل اسم السلطان وطابعه وصورته وسلطانه، ويختبئ وراءها، لتحقيق أطماعه، في حين تم تخصيص الفصل الثالث للثمن الذي سيتقاضاه المحتل عن الخدمة التي سيقدمها، وممَّا جاء فيه:

"تتعهد الحكومة الفرنسية بأن تبذل المساعدات لجلالته دائماً ضد كل خطر يهدد شخصه أو عرشه أو سيقلق راحة ولايته، وسيلقى من جانبها نفس التأييد لوارث العرش ولتابعيه من بعده".

وهكذا خُصِّصت المادة لحماية شخص الحاكم وعرشه وسلطانه وحكمه.. وكل تلك المؤامرات لفرنسا المحتلة الساعية إلى السيطرة على المغرب وإخضاعه؛ كانت تفعلها باسم الحاكم، فكانت من جهتها تضمن له الحكم، فيطلق يدها طوعاً أو كرهاً، رغبةً أو رهبةً، في فعل ما تشاء، فقد يضع الحاكم نفسه وجيشه رهن إشارة الأجنبي، فيكون بمنزلة الوكيل المنفذ لسياسته وقانونه، وقد يكون هذا الحاكم في حكم المأسور لضعفه وعجزه، فيتكلم الأجنبي بلسانه ويوقِّع بطابعه وختمه.

لقد قامت فرنسا المحتلة العَلمانية بكل تلك المؤامرات وفعلت ما فعلت من إجرام وإرهاب؛ نيابة عن دول الغرب العَلماني المتحضر وبمساعدته، كل ذلك إنما يتم تحت عنوان واحد هو: الحفاظ على وحدة البلاد، أو الحفاظ على سيادة السلطان وضمان عرشه.. فقد أرسلت الحكومة البريطانية رسالة إلى ممثلها في طنجة، سنة ١٨٤٥م، تقول: "يجب أن يكون هدفنا الدائم بذل كل ما في وسعنا في سبيل دعم حكم السلطان، وأن نحول دون كل حادثة قد تؤدي إلى تعريضه لخطر جديد".

وعقد المولى عبد العزيز في بداية حكمه معاهدة مع فرنسا أعلنت فيها احترامها لوحدة الإمبراطورية الشريفة. ووعدت فرنسا واسبانيا في اتفاقهما سنة ١٩٠٤م، باحترام وحدة المغرب في ظل سيادة السلطان. وأكد رئيس الوزراء الفرنسي للسفير الألماني سنة ١٩٠٥م، أن حقوق فرنسا في المغرب متسقة تماماً مع مبادئ سيادة السلطان واستقلاله ووحدة إمبراطوريته، ولما زار قيصر ألمانيا وليم الثاني طنجة سنة ١٩٠٥م قال للمولى عبد الملك عم المولى عبد العزيز الذي استقبله: "إنني أزور سلطان المغرب الملك المستقل.. إنني أعتبر السلطان ملكاً مستقلاً استقلالاً تاماً، وإنني أرغب في الوصول إلى تفاهم معه بالذات..". وقامت قرارات مؤتمر الجزيرة سنة ١٩٠٦م على أسس ثلاثة:

- سيادة جلالة السلطان واستقلاله.
- وحدة ملكه.
- الحرية الاقتصادية من دون تمييز.

لم يكن للسلطان وجود إلا على عرش المغرب[1].. لقد كان ألعوبةً في يد العدو، الذي كان يسنُّ القوانين ويخرج القرارات لمحاربة الدين وظلم المسلمين باسم ولي أمرٍ لم يكن له من الأمر شيء، وكان للمقيم العام وحده الحق في تقديم المقترحات في الأمور التشريعية، وما كان السلطان ليوقع الظهير إلا بناء على رغبة المقيم العام.. يحكي روم لاندو عن الجنرال كاترو قوله: "أمَّا السلطان، فهو المعزول في قصره، والذي لا يعرف إلا أموراً سطحية ممَّا ينقله إليه مستشاره الفرنسي، فلم يكن يعرف شيئاً عن المشاريع إلا عندما كانت توضع أمامه بشكل مراسيم تتطلب توقيعه"[2].

كما أرسل ليوطي تقريراً لحكومة بلاده سنة ١٩٢٠م قال فيه: "جميع الإجراءات الإدارية تجري باسمه (باسم السلطان)، فهو الذي يوقع المراسيم، لكن في الواقع ليس له أي قوة حقيقية، واتصاله الوحيد هو مع المستشار الشريفي، الذي يقابله يومياً، وهذا كل ما في الأمر، والحقيقة أن الاسترشاد برأيه إنما هو قضية صورية فقط. إن الوزير الأكبر والوزراء

(١) العبارة لعبد الكريم غلاب في «مذكرات سياسية وصحفية».
(٢) تاريخ المغرب في القرن العشرين، روم لاندو، ص ١١٧.

لا يشتركون في المشاورات في القضايا المهمة، إذ إن هذه الأمور يبحثها الموظفون الفرنسيون، غير عابئين بوجهة نظر المغاربة، وليس ثمة أي تبادل في المذكرات.."[1].

أمَّا في منطقة طنجة الدولية، فإن السلطان كان له ممثله هناك الذي لم يكن سوى موظف تحت إشراف الفرنسيين. أمَّا في المناطق الإسبانية، فقد كان الخليفة، الذي هو ممثل السلطان الرسمي، يعمل تحت إمرة السلطات الإسبانية التي كان بإمكانها رفض اختيار السلطان وتعيين من تراه صالحاً لمصالحها، كما فعلت مع مولاي المهدي ابن عم السلطان. وبعد كلٍّ من المولى عبد العزيز والمولى عبد الحفيظ والمولى يوسف، تجلى بوضوح حكم الأجانب عن طريق حاكم من بني جلدتنا يتسمَّى باسمنا ويتكلم بلساننا بعد أن نصَّبت فرنسا السلطان ابن عرفة فحكم المغرب مدة سنتين كان فيهما وليَّ أمر المغاربة الذي تجب عليهم طاعته واحترامه، فأطلق الأعداء أيديهم في استخدام اسم السلطان وطابعه لتنفيذ سياساتهم الظالمة، ورعاية مصالحهم ورغباتهم الجشعة، وإصدار مراسيمهم وقوانينهم المخالفة للشرع بعد لَيِّ أعناق نصوص الوحيين وفتاوى علماء السوء.. وهذه نقطة أخرى مهمة لا يجوز إغفالها عند الحديث عن مؤامرات الغرب العَلماني وتسلطه وحربه علينا قديماً وحديثاً، وأعني توظيف الدين لإخضاع المسلمين وقمع المعارضين، وهو أمر لا يقل خطورة عن توظيف الحكام والشخصيات والحكومات لخدمة أهداف الأعداء، فقد استعملت فرنسا العَلمانية المحتلة الدينَ بوسائل وأشكال شتى؛ كإنشاء المجالس العلمية[2] وتكريم رؤسائها والاحتفاء بهم، وتقريب العلماء الموالين لها ورفعهم[3]، وتوجيه البيانات والمنشورات للقبائل لحثهم على قبول الأمر الواقع وإبعاد أي فكرة لجهاد فرنسا من رؤوسهم، مستعينةً بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية، أو إعداد خطب الجمعة التي تُلقى باسم

(١) المصدر السابق، ص ١١٨.

(٢) حيث سعت فرنسا إلى هيكلة الحقل الديني من خلال تأهيل القرويين وتحديثها، وينقل إدريس كرم في مقدمته على إظهار الحقيقة ص ٨٣، أن ليوطي أنشأ المجلس العلمي بتاريخ ١٧ مايو ١٩١٤م، وأسند إدارته للقبطان ميلي.

(٣) فقد قلد ليوطي رئيس المجلس العلمي وشيخ الجماعة في فاس أحمد بن الجيلالي وسامَ الشرف، وعلق له على رقبته صليباً، انظر مقدمة إظهار الحقيقة وعلاج الخليقة ص ٤١.

السلطان في وجوب طاعة أولي الأمر، الذين لم يكونوا حينها إلا المحتل نفسه، أو استعمال وسائل الإعلام العميلة والموالية لها لنشر الشبه وتشكيك المسلمين في قضيتهم وعقيدتهم.

في فترة ما بعد الاستقلال، وبعد أن تعدَّدت دوائر ومراكز القرار وتنوَّعت، ولم يعد الحاكمُ الفرد المؤثرَ الوحيد، وأصبحت الأحزاب العَلمانية والمراكز العَلمانية والإعلام العَلماني، هي التي تصيغ العقليات وتوجِّهها بعد أن مكَّن لها الغرب وأمدها بكل أساليب الدعم، فأصبحت أبواقَ الغرب وأدرعه الضاربة التي تمارس ذلك الدور بشكل سافر، بل تفتخر وتتبجح بذلك؛ أصبح العَلمانيون وكلاء الاحتلال الثقافي بامتياز، وطابوراً خامساً يدمِّر البنية الفكرية والثقافية والعقدية للمسلمين، وقنوات صرف لكل طوام ومصائب وفضائح وعاهات وأعطاب الحضارة الغربية العَلمانية.

كانت هذه نظرة عامة عن مؤامرات الغرب المحتل العَلماني ومحاربته لعقيدة المسلمين ونهبه خيراتهم طيلة أزيد من قرن من الزمان؛ ودوره في إحلال العَلمانية مكان الشريعة، وتمهيده لزرع أذنابه ممَّن يحملون مشروعه ويرعون مصالحه من العَلمانيين بشتى توجهاتهم ومشاربهم؛ نضعها بين يدي القارئ والمهتم والمتابع بعد قرن من بَدء تنزيل فصول المؤامرة وتطبيقها؛ لنتوقف عند النتائج التي تحققت ونستخلص الدروس والعبر.

البناء المنهجي عند طالب العلم

عمر محمد ذيب النصر(*)

مما لا ريب فيه أن إطلاق الحكم على أمر ما أو إبداء الرأي فيه، لا يكون صحيحاً إلا إذا تكاملت الصورة في ذهن صاحب الحكم أو الرأي، وهذا الأمر لا يتعلق بعلم معين أو فن معين، إلا أن الكلام هنا عن طلب العلم الشرعي على وجه الخصوص.

وليتضح الكلام حول البناء المنهجي سأضرب مثالاً على ذلك بنوع من أنواع البيوع، وهو:

- بيع النجش:

يُعرِّف الفقهاء بيع النجش بقولهم: «أن يزيد في ثمن السلعة من لا يريد شراءها»، وبعضهم يزيد: «بقصد الإضرار».

حكم هذا النوع من البيع

اتفــق الفقهاء على منــع هذا النوع مــن البيوع، فبعضهم أطلق التحريم، وبعضهم أطلق الكراهة ومراده كراهة التحريم، وللتفريق بين الأمرين مقصد يعــود إلى ترتب آثار العقد عليه من عدمه.

واختلفوا إذا وقع هذا البيع:

فذهب أهل الظاهر إلى القول بفساد العقد.

وذهــب الجمهور إلى صحة العقــد، واختلفت طرقهم في ذلــك؛ فبعضهم جعله من طريق اللزوم واســتيفاء الشــروط، وبعضهم الآخر جعل للمشــتري الخيار في الإمساك أو عدمه، وإن أمســك هل له أن يعود بقسطه من الثمن؟ وهل هذا يثبت لكل مشترٍ أم للجاهل فقط؟

فلــو طرحنا ســؤالاً بعد هذا العرض وقلنــا: ما حكم بيع النجــش؟ هل يكفي أن يكون الجواب: جائز أو محرم؟ مع العلم أن الحكم أو الفتوى لا بد أن يكون لهما مستند شرعي.

إذن ليتبــين لنا المراد لا بد من العودة لمســألتنا من جديد لنعرف ما الأصول التي بُنيت عليها.

إذا أردنا أن نتصور مسألة النجش لا بد أن نستحضر التالي:

أولاً: أن النجش نوعٌ من أنواع البيوع، وبالتحديد من الأنواع المنهي عنها.

ثانياً: يذكره الفقهاء عادة في موضعين: الأول: البيوع المنهي عنها، والثاني: في أنواع الخيار، وبالتحديد في خيار الغبن[1].

ثالثاً: هل ورد فيه نص من الكتاب أو السنة؟ وإن كان النص ممــا يحتاج إلى نظر في صحته، هل هو صحيح أو لا؟ وإن كان صحيحاً ما نوع الدلالة التي اشــتمل عليها؟ وهل له معارض أو لا؟ وهذا والذي قبله ينطبق على كل نص.

رابعاً: إذا وصلنا إلى النص الوارد ولم نجد له معارضا من النصوص، وتبيَّنت لنا دلالته، وتوصلنا إلى أنه يدل على النهي؛ يجب علينا التالي:

خامساً: هل النهي يقتضي فســاد المنهي عنه، أو يصح مع إثم فاعله؟

وهو ما يعبِّر عنه الأصوليــون باجتماع الجهة أو انفكاكها، وكــذا يعبِّرون برجــوع النهي إلى ذات البيع أو إلى شــرط من شروطه، أو يرجع إلى أمر خارج عنه.

إذن، مــن أراد الإجابــة عــن حكم بيع النجــش لا بد أن يســتحضر ما تقدم، ولو نظرنا فيه لوجدنا أنه اشــتمل على معرفة النص من حيث ثبوته ـ ولهذا بطبيعة الحال متطلباته – ومعرفتــه بدلالة ألفاظه، ومعرفة ما ورد في النصوص الأخرى من موافقة لدلالته أو مخالفة.

كمــا يتطلب معرفة لغة الفقهاء وطريقتهم في بناء الأحكام من خلال مذاهبهم الفقهية، ومعرفة أصول الفقه والخلاف في تطبيقاته، وما يترتب على ذلك.

هذا المثال يوضــح لنا متطلبات البنــاء المنهجي في صورة جزئية واحدة، مع العلم أن من الصور ما يحتاج إلى أكثر من ذلك، خصوصاً إذا أضيف إلى الخلافِ الخلافُ في ثبوت الحديث.

أما ما يتعلق بالبناء المنهجــي العام – وهو مقصودنا هنا، فمــن المعلوم أن للعلم طرقا مســلوكة لا بد لمــن أراد تحصيله والبلوغ فيه أن يســلكها، أما مجرد التوهم فيه أو معرفة بعض مسائله فلا يعد صاحبه مكتملا في المنهج، فلا يكفي أن يطلق التحليل أو التحــريم مجرداً من غير معرفة بالأصول التي بُني عليها، كما لا ينبغي إطلاق تصحيح حديث أو تضعيفه من غير معرفة بأصول الحكم علــى الأحاديث، ومثل هذا يقال في كل علم من العلوم، ولكن يزداد الأمر خطورة إذا اكتفى طالب العلم أو المفتــي أو المجيب بما هو عليه وظن أنه يكفي في الحكم أو الفتوى أو حتى إبداء الرأي في الأمور الفكرية من غير مراعاة لما تقدم الكلام عليه.

(١) لمعرفة موضع ذكر هذا النوع من البيع يُحدَّد لطالب العلم الضوابط التي تحكم الباب الفقهي.

إن ضعف المدرسة العلمية المعاصرة وانحصار انتشارها، كان من أبرز الأسباب في ضعف البناء المنهجي عند طلاب العلم، حيث إنك ترى أن معظم الطلاب في الأقطار الإسلامية يعتمدون على أنفسهم في طلب العلم وتحصيله، وهذا الأمر – وإن كان لا تعدم فائدته – له من الآفات التي لا يدركها كثير من الطلاب الشيء الكثير، وهذا كان من أبرز أسباب الفوضى في الفتوى وعشوائيتها، وبات ذلك لا يخفى على أحد.

أما أهم وسائل البناء المنهجي، فهي كالتالي:

أ - الإخلاص لله سبحانه وتعالى:

فهو مفتاح المغاليق، ومزيل كل صعوبة، ومنير الطريق، بل هو السر الذي تمايز به الناس، فليس العلم بكثرة الرواية، بل هو نور يقذفه الله في قلب العبد فيميِّز به بين الحلال والحرام، قال ابن الجوزي ـ رحمه الله: «اعلم أن الطريق، والسبيل؛ كالليل المدلهم، غير أن عين الموفق بصر فرس لأنه يرى في الظلمة كما يرى في الضوء، والصدق في الطلب منار أين وجد يدل على الجادة، وإنما يتعثر من لم يخلص، وإنما يمتنع الإخلاص ممن لا يراد»[1].

ب - تلقي العلم عن المشايخ:

اتفق سلف الأمة وأئمتها على أن أنفع طرق تلقي العلم أخذه من أفواه العلماء، قال الشاطبي – رحمه الله: «المقدمة الثانية عشرة: من أنفع طرق العلم الموصلة إلى غاية التحقيق به أخذه عن أهله المتحققين به على الكمال والتمام... وقد قالوا: «إن العلم كان في صدور الرجال، ثم انتقل إلى الكتب، وصارت مفاتيحه بأيدي الرجال»، وهذا الكلام يقضي بأنه لا بد في تحصيله من الرجال... فإذا تقرر هذا فلا يؤخذ إلا ممن تحقق به.. ومن شروطهم في العالم أن يكون عارفاً بأصوله وما يبنى عليه ذلك العلم، قادراً على التعبير عن مقصوده فيه، عارفاً بما يلزم عنه...»[2].

«إن فقدان السنة المباركة في التلقي، وهو تلقي العلم في حلقه وما يتبعه من مشامَّة الشيخ ومشافهته ومجالسة أهل العلم التي تضع في النفس الصبر، وطول النفس، ومن ثم العمق والعقل والتأني، وكما قيل: مفاتيح العلم أربعة: عقل رجاح، وشيخ فتاح، وكتب صحاح، ومداومة وإلحاح»[3].

ج - مراعاة الأولويات:

وهذا الأمر من المهمات، فلا ينبغي لطالب العلم أن يتجاوز مرحلة إلى أخرى حتى يلمَّ ويتقن أساسيات هذه المرحلة، كما ينبغي أن يقدم الأهم فالأهم في المرحلة نفسها.

لكل مرحلة من المراحل خصوصيَّتها، ومعرفة هذه الخصوصيات تحتاج إلى مشورة من يُتلقى عنه العلم، فمن هذه الخصوصيات: العناية بالمختصرات قبل المطولات، وهذا من شأن المرحلة الأولى، ومنها كثرة الحفظ والمراجعة، وأن التلقي من المعلم هو المصدر الرئيس لا يُلجأ إلى غيره إلا لحاجة.

وأما في المرحلة الثانية فيتوسع الطالب، حيث يبدأ النظر في كتب الشروح إضافة إلى إملاءات المعلم، مع التوسع في جمع شتات المواد المتلقاة.

ثم المرحلة الثالثة، ويبدأ الطالب بالاعتماد على نفسه أكثر مع بقاء دور المعلم من حيث المشورة والنصح، ومن خصائص هذه المرحلة الميل إلى التخصص والتوسع في قراءة المطولات.

د - السير وفق برنامج محدَّد المعالم:

إن من أكثر أسباب ضياع الجهود وتبديد الهمم، العشوائية وترك تنظيم الوقت، وطالب العلم ليس هو الذي يستغل الفراغ، وإنما الذي يصنع الفراغ ويستفيد منه.

قد تقرَّر عند أهل العلم أن من علامات نجاح الطالب أن يكون له برنامج يعالج فيه اختلاف العلوم وصفاتها – وقد تقدم بعض ذلك في مراعاة المراحل، فالعلم الذي يحتاج إلى صفاء ذهن وسعة وقت – كالحفظ مثلاً – يُختار له أطراف النهار، وما لا يحتاج إلى ذلك – كالمراجعة – يخصص له وسط النهار، وما يحتاج إلى إعمال الذهن يخصص له وقت أطول من غيره.

كما ينبغي للطالب ألَّا يكون ملبِّياً لكل نداء، بل يكون حاله كما قال بعض السلف: «إذا أردت أن تجلس فامسك الشمس»، فالوقت هو روح طالب العلم وقوام حياته.

وفي نهاية المطاف أحسب أني قد وضعت بعض الأساسيات في طريق البناء المنهجي، أسأل الله أن ينفع بها كاتبها وقارئها، والله أعلم.

(١) صيد الخاطر: ٢٧٢.

(٢) الموافقات: ٥٤، وله في ذلك كلام نفيس لا يتسع المقام لذكره.

(٣) مجلة البيان: العدد ٢٨٣، ص٩، مقال بعنوان: (الشذوذ في الفتوى.. الأسباب والأبعاد).

[نص شعري]

يا شام

أسامة المحوري
Osamh12@maktoop.com

يا شامُ جرحك - فاعلمي -
في كلِّ لحظٍ دامعٍ
في كلِّ نوحٍ واضحٍ
تتألمُ الأنسام وال
ثارتْ حروفُ القهرِ في
يا شامُ يا نهرَ الندى
إني أرى دربَ العلا
صوغي دروسَ العزِّ
لاحت خيوطُ النصر في
وتبسَّمت فيكِ المنى

في كلِّ قلبٍ مسلمِ
في كلِّ نبضٍ من دمِ
في كلِّ بوحٍ مُبهمِ
أيام إن تتألمي
قلبي، فأرسلها فمي
يا بحرَ جودٍ حاتمي
يدعوكِ أن تتقدمي
للكونِ الفسيحِ .. وعلِّمي
عُمقِ الزمانِ المعتمِ
يا شامُ .. فلتتبسمي

أربـاب جِدٍّ في العمل

د. عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف(*)
www.alabdulltif.net
@dralabdullatif

لا نـــزاعَ في أهمية التنظيـــر، والتأصيل العلمي، وتحرير الأقوال، وتحقيق المسائل، وتوثيق الدلائل..

لكن هذا التنظير اعتراه الضعف، وهشاشة البحث، وهزال التحرير.. وليســت هذه الســطور في معالجة هذا الضعف والتهافــت في التنظيــر، وإنما هي تذكيــر بالجانب العملي، ومعالجة التقصير في الأفعال، ومدافعة الســلبية والتكاســل عن البدار إلى الباقيات الصالحات، إذ استحوذ على الساحة القيل والقال، وتشقيق الكلام، والإسهاب في جلسات «العصف الذهني»، والإطناب فيما يســمى «الحراك الثقافي»، وتفاقم النقاشات والمخاطبات، فاستُنزفت الأوقات، وأُهدرت الطاقات في الأقوال على حســاب الأفعال، فتكاثر وتضاعف التنظير، وتناقص وتقلّص التطبيق.

لقد كان ســلفنا الصالح «عبيد تسليم في العقائد، أرباب جدّ في العمل»[1]؛ فقد حرصوا على ما ينفع، واشــتغلوا فيما تحتــه عمل، وجدّوا في طاعة الله والاتباع، وجانبوا شــكوك المتكلمين وشطحات المتصوفين. عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: «كان أحبّ العمل إلى رسول الله ﷺ الذي يدوم عليه صاحبه»[2].

«ودخل الحســن البصري - رحمه الله - المسجد، فقعد إلــى جنب حلقة يتكلمون، فأنصــتَ لحديثهم، ثم قال: هؤلاء قوم ملّــوا العبادة، ووجدوا الكلام أهــون عليهم، وقلّ ورعهم وتكلّموا»[3].

«وقــال الأوزاعي - رحمه اللــه -: إن المؤمن يقول قليلاً ويعمل كثيراً، وإن المنافق يقول كثيراً ويعمل قليلاً»[4].

«وكان مالــك بن أنس يقول: الكلام في الدين أكرهه، ولم يزل أهل بلدنا يكرهونه وينهون عنه، ولا أحبّ الكلام إلا فيما تحته عمل؛ لأني رأيت أهل بلدنــا [المدينة النبوية] ينهون عن الكلام إلا فيما تحته عمل»[5].

«وقــال معروف: إذا أراد الله بعبده شــراً أغلق عنه باب العمل، وفتح عليه باب الجدل»[6].

ثم إن الشــخص بطبيعته وجبلَّته لا بد أن يعمل ويسعى،

(*) أستاذ مشارك في قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - الرياض.

(١) قالها ابن عقيل الحنبلي كما في تلبيس إبليس لابن الجوزي ص ٤٢٣.

(٢) أخرجه البخاري.

(٣) الحلية لأبي نعيم ٢/١٥٧.

(٤) الحلية لأبي نعيم ٦/١٤٢.

(٥) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ٢/٩٥.

(٦) السير للذهبي ٩/٣٤٠.

كما في قوله ﷺ «أصدق الأسماء حارث وهمام»[1].

فكل إنسان حارث، أي صاحب عمل وكسب وسعي، فإن أعرض عن العمل المشروع، اشتغل بالعمل الممنوع، وإن لم يفعل المطلوب، ارتكب العمل المحظور[2].

قال ابن القيم: «من رغب عن العمل لوجه الله وحده ابتلاه الله بالعمل لوجوه الخلق، فرغب عن العمل لمن ضرُّه ونفعه وموته وحياته وسعادته بيده، فابتُلي بالعمل لمن لا يملك شيئاً من ذلك، وكذلك من رغب عن التعب لله ابتُلي بالتعب في خدمة الخلق ولا بدّ..»[3].

وكما ذمَّ سلفنا الصالح أهل الكلام في سلوبهم ونفيهم للصفات الإلهية، فقد ذمّوا الصوفية في سلوبهم في السلوك؛ إذ غلبت التروك على أرباب التعبّد المحدث، فالورع - عندهم - مجرد ترك، والتزكية مجرد تطهير فحسب.. يقول ابن تيمية: «وأما المعطلة من المتفلسفة ونحوهم فيغلب عليهم النفي والنهي، ففي العقائد: الغالب عليهم السلب[4]، وفي الأفعال: الغالب عليهم الذم والترك من الزهد الفاسد والورع الفاسد.. لا يفعل، لا يفعل.. من غير أن يأتوا بأعمال صالحة، ولهذا كان غالب من سلك طرائقهم بطّالاً متعطلاً..»[5].

فمن ترك الصالحات فهو بطّال على طريقة أهل التعبُّد الفاسد، وإلا فالورع فعل وعمل قبل أن يكون تركاً، وزكاة النفوس تجمع بين طهارتها من الذنوب وتنميتها بالأعمال الصالحات، فلا زكاة للنفوس إلا بحصول ما ينفعها من الأعمال النافعة، ودفع ما يضرّها من السيئات الواقعة[6].

وقد غَلَب على الخطاب السلفي في بعض الأحايين: الاشتغال بالتروك، وتتبّع المخالفات وتعدادها على سبيل التحذير، والانهماك في سرد أفراد البدع والمحدَثات، والنفوس إنما «خُلقت لتعمل لا لتترك، فالترك مقصود لغيره، فإن لم يشتغل بعمل صالح، وإلا لم يترك العمل السيئ، أو الناقص»[7].

والحق أن الاشتغال بالسنن الفعلية والأعمال الشرعية وإظهارها آكدُ وأجلُّ، فلا يُنهى عن منكر إلا ويؤمر بمعروف يُغني عنه[8].

وإظهار السنن يوهن البدع ويُؤْذِن بانطماسها، كما أن ظهور البدع يصحبه ارتفاع السنن واندراسها، كما في الحديث «ما أحدث قوم بدعة إلّا نزع الله عنهم من السنة مثلها»[9].

ثم إن البدع انفلات عن السنن، وتنصُّل عن الاتباع، ولزوم السنة: أعمال متحققة وأفعال واقعة.

وممَّا يؤكد ذلك أن جنس فعل المأمورات آكدُ من جنس ترك المنهيات، فالمأمورات مقصودة لذاتها، وترك المحظورات مقصود لغيره، كما حرره ابن تيمية وابن القيم وغيرهما[10].

والتعلُّق بالله والدار الآخرة يوجب العمل والبدار، والجدّ والاجتهاد، كما في حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال: «من خاف أدلج[11]، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة»[12].

فالغفلة عن البعث والنشور، والجزاء والحساب؛ توقع في التثاقل إلى الدنيا، والتكاسل عن معالي الأمور، والتقاعس عن الجدّ في تحصيل القربات والصالحات، وكلما زاد اليقين بالآخرة لدى الشخص تضاعفت الطاعات، وتسارعت الأعمال الباقيات، كما كان عليه سلفنا الأوائل.

وصلاح القلب يستلزم صلاح الجوارح، فإذا تحرّك القلب بمحبة الله تعالى وخوفه ورجائه وإجلاله.. تحرّكت الجوارح بالأعمال الصالحات والحسنات الماحية.

وإذا حلّت الهداية قلباً نشطت للعبادة الأعضاءُ

«فالقلب إذا كان فيه معرفة وإرادة، سرى ذلك إلى البدن بالضرورة، لا يمكن أن يختلف البدن عمَّا يريده القلب، ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد، ألا وهي القلب»[13].. فإذا كان القلب صالحاً بما فيه من الإيمان علماً وعملاً قلبياً، لزم ضرورة صلاح الجسد بالقول الظاهر، والعمل بالإيمان المطلق..»[14].

فإذا صلح القلب صحت الأعمال، ونشطت الجوارح في إقامة الصالحات، وذاق العبد حلاوة الطاعات، ووجد الأُنس وقرة العين في أدائها.

ولذا يقول ابن تيمية: «إذا لم تجد للعمل حلاوة في قلبك فاتهمه فإن الرب تعالى شكور»[15].

فاللهم أعنَّا على ذكرك وشكرك وحُسن عبادتك.

(١) أخرجه أحمد ٤/٣٤٥؛ وأبو داود (٤٩٥٠)؛ وغيرهما.
(٢) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية (كتاب الإيمان) ٧/١٧٣ - ١٧٤.
(٣) مدارج السالكين ١/١٦٥.
(٤) السلب أي النفي المحض كقولهم: إن الله لا يوصف باسم ولا صفة ولا فعل.
(٥) مجموع الفتاوى ٢٠/١٢٦ = باختصار.
(٦) ينظر: مجموع الفتاوى ١٠/٩٦.
(٧) الاقتضاء لابن تيمية ٢/٦١٧.
(٨) انظر: الاقتضاء ٢/٦١٧.
(٩) أخرجه أحمد.
(١٠) ينظر: مجموع الفتاوى: ٢٠/٨٥-١٠٩، والفوائد لابن القيم ص ١٣٣-١٤٣.
(١١) أدْلج: معناه سار في أول الليل، والمراد: التشمير في الطاعة.. قاله النووي في رياض الصالحين (٤١١).
(١٢) أخرجه الترمذي، وقال: حديث حسن.
(١٣) أخرجه البخاري ومسلم.
(١٤) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٧/١٨٧.
(١٥) مدارج السالكين لابن القيم ٩/٣٤.

جوال

الكبير

للإشتراك
ارسل رسالة فارغة

STC الاتصالات السعودية ٨٨٠٠٤

موبايلي mobily ٦٣٦٣٩٣

zain ٧٠٤٠٤٧

رسائلنا تحكي أهدافنا

مجلة البيان وجميع إصداراتها المتنوعة متوفرة
بمتجر آبل الإلكتروني لأجهزة آيباد وآيفون.
(فقط عليك تحميل تطبيق البيان)

لجمهورنا الكريم، عدد المجلة لشهر شوال ١٤٣٣هـ

على المتجر

www.albayan.co.uk

أفضل تطبيق "مفكرة" إسلامي على "آب ستور"
باللغتين العربية والإنجليزية

مجلة البيان

والعديد من الخدمات المميزة | اتجاه القبلة | أوقات الصلاة | تقويم: هجري/ميلادي | واجهه خدمية مميزة

Al-Bayan Digital Calendar

Available on the iPhone App Store

www.albayan.co.uk